ذكريات

١٩٣٥–٢٠١٨م

حسن حنفي

ذكريات

١٩٣٥–٢٠١٨م

تأليف
حسن حنفي

هنـــداوي

ذكريات

حسن حنفي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٤ ١٨٣٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Copyright © 2019 Hindawi Foundation C.I.C.
All rights reserved.

المحتويات

الإهداء	٥
الموضوع والمنهج والتقسيم والدلالة	٧
١- الطفولة: الكُتَّاب، المدارس الأولية والابتدائية والثانوية (١٩٣٥–١٩٥٢م)	١٧
٢- التعليم الجامعي (١٩٥٢–١٩٥٦م)	٤١
٣- السفر إلى فرنسا (١٩٥٦–١٩٦٦م)	٥٥
٤- الأستاذ الجامعي (١٩٦٦–١٩٧١م)	٨٩
٥- السفر إلى أمريكا (١٩٧١–١٩٧٥م)	١٠١
٦- إعادة إشهار الجمعية الفلسفية المصرية ومقاومة الانقلاب على الناصرية (١٩٧٦–١٩٨٢م)	١٠٩
٧- التدريس في المغرب والبحث الدولي في اليابان (١٩٨٢–١٩٨٧م)	١١٩
٨- رئاسة القسم ومحاولة تكوين مدارس فكرية (١٩٨٧–١٩٩٥م)	١٣١
٩- «التراث والتجديد» وأحزان خريف العمر (١٩٩٦–٢٠١١م)	١٥٧
١٠- الثورة المصرية، والربيع العربي (٢٠١١–٢٠١٨م)	١٧١
١١- كل نفسٍ ذائقةُ الموت (٢٠١٨م–...)	١٧٩

الإهداء

إلى مصر

ذكرياتٌ عبَرت أُفقَ خَيَالي بارقًا يَلمَع في جُنْحِ اللَّيالِي
نبَّهَت قَلبِيَ من غَفْوَتِهِ وجَلَت لي ذِكْرى أَيَّامي الخَوَالي
كيفَ أنساها وقلبي لم يَزلْ يسكُن جَنبي
إنها قِصَّة حُبي

شعر: أحمد رامي
تلحين: رياض السنباطي
غناء: أم كلثوم

حسن حنفي
مدينة نصر، ٣٠ أبريل ٢٠١٨م

الموضوع والمنهج والتقسيم والدلالة[1]

«الذكريات» ما تَبقَّى من السيرة الذاتية. هي ما رَسَخ في الذاكرة، ولم يَطوِه النسيان. أمَّا السيرة الذاتية فهو سِجلٌّ لتاريخ حياةٍ، يمكن أن يتم عن طريق شريط تسجيلٍ، لا حياة فيها، يعتمد على التوثيق والتنسيق والاختيار، ما يدخل في السيرة وما لا يدخل، الحَيرة بين الذاتي والموضوعي، رؤية سِجِل الذاتية الشعورية أو اللاشعورية، الرسالة التي يُريد أن يُوصلها للناس. أمَّا «يوميات» فهو اللفظ الذي استعمله جابريل مارسيل في «يوميات ميتافيزيقية»، وعثمان أمين في جزء من «الجوانية». والعنوان «ذكريات» ليس ذكرياتي حتى أُضفي طابعَ الموضوعية عليها؛ فالعصر يتكلم من خلالي، هموم الفكر والوطن.

وتتداعى الذكريات بطريقتَين: الأولى زمنيًّا، من الطفولة الأولى حتى الشيخوخة الأخيرة في مَراحلَ زمنيةٍ تُميِّزها مَراحلُ التعليم أو الأسفار أو النضال السياسي على النحو الآتي:

(١) الطفولة: الكُتَّاب، المدارس الأولية والابتدائية والثانوية (١٩٣٥–١٩٥٢م).
(٢) التعليم الجامعي (١٩٥٢–١٩٥٦م).

---

[1] بدأت الإثنين ١٣/٩ ثاني أيام عيد الأضحى المبارك ٢٠١٦م بعد أن توقف الإبصار والكتابة عن طريق التوثيق، تحليل مضمون النص القرآني في الجبهة الثالثة من مشروع «التراث والتجديد»، الموقف من الواقع أو نظرية التفسير، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. أثناء ذلك قَفَزَت إلى ذهني «ذكريات» العمر وبعد شَهرَين كنتُ قد انتهيتُ من كتابتها في يناير ٢٠١٨م، ثم عدت إليها في قراءتَين، ثانية وثالثة، وانتهيتُ منها في مارس ٢٠١٨م. ولم يبقَ سوى كتاب «هيجل واليسار الهيجلي أو الهيجليون الشبان».

(٣) السفر إلى فرنسا (١٩٥٦–١٩٦٦م).
(٤) الأستاذ الجامعي (١٩٦٦–١٩٧١م).
(٥) السفر إلى أمريكا (١٩٧١–١٩٧٥م).
(٦) إعادة إشهار الجمعية الفلسفية المصرية ومقاومة الانقلاب على الناصرية (١٩٧٦–١٩٨٢م).
(٧) التدريس في المغرب والبحث الدولي في اليابان (١٩٨٢–١٩٨٧م).
(٨) رئاسة القسم ومحاولة تكوين مدارس فكرية (١٩٨٧–١٩٩٥م).
(٩) «التراث والتجديد» وأحزان خريف العمر (١٩٩٦–٢٠١١م).
(١٠) الثورة المصرية، والربيع العربي (٢٠١١–٢٠١٨م).
(١١) كل نفسٍ ذائقةُ الموت (٢٠١٨م–...).

والطريقة الثانية، التقسيم الموضوعي للذكريات، مثل: الجامعة، السياسة، الاستبداد، الدين، الفن، الوطن، الهزيمة والنصر، القومية العربية، الحب. وعَيبُ هذه الطريقة تجاوُزُ التطوُّر الزماني، وتقطيعُ التجربة الذاتية عَبْر مَسار العُمر لمعرفة مدى نُضجها وكأنَّ صاحبها قد مات. هذه الطريقة أَشبَه بالجسد الحي الذي يُقطَّع بعد الذبح حِرصًا على الأجزاء، وليس خوفًا على الحياة. قد تُفيد تعليميًّا، ولكنها تقضي على الحياة العُضوية للجسد.[٢] كما تبدو هذه الطريقة وكأنها تأليفٌ في عدة موضوعاتٍ مُتناثرة، وفي هذه الحالة تقضي على مَوضوعيَّتها وعِلميَّتها.

وفي كلتا الطريقتَين تأتي الذكريات وتذهب لاإراديًّا في سَرَيانها، وإن كان يمكن أن تبقى في خطوطها العريضة، مَراحِلها أو موضوعاتها؛ فالذكريات تعوم في مُحيطٍ من الحرية، وتسبح مع التيار، لا يمكن إيقافها بالقوة إن أتت، ولا يمكن استدعاؤها إن هَربَت؛ فالشعور تيَّارٌ جارف كما يقول هوسرل وبرجسون: مَيزَتها الصدق في الحضور والغياب.

ومن ثم يكون السؤال: هل الذكريات علم أو فن؟ فلسفة أم أدب؟ هي كلاهما لأنها تحليلٌ نفسي لصاحبها؛ فهي أقرب إلى علم النفس وتَداعي المعاني والصور. وهي فنٌّ لأنها

[٢] هذه ثالث محاولة لكتابة سيرةٍ ذاتية: الأولى نُشِرَت في الدين والثورة في مصر ١٩٨٢م ج٥ الأصولية الإسلامية، مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧م. والثانية «محاولة لسيرةٍ ذاتية» في «هموم الفكر والوطن»، ج٢، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٠م.

لا تخضع إلا لفن الكتابة وفن الرواية. ونموذج ذلك «قصة نفس» و«قصة عقل» و«حصاد السنين» لزكي نجيب محمود مُقارنةً بـ «حياتي» لعبد الرحمن بدوي التي هي أقرب إلى السجِلَّات والمُدوَّنات؛ لذلك كانت «اليوميات» إحدى وسائل كتابة الذكريات. يكتب الذكرياتِ الأُدباء مثل لويس عوض، والفلاسفة مثل رسل وياسبرز وسارتر، والعلماء مثل أينشتاين. والفنون التشكيلية سِيَرٌ ذاتية لأصحابها؛ مثل تماثيل نهضة مصر لمختار مُؤرِّخًا لثورة ١٩١٩م بالفن ومُعبِّرًا عنها بالحجر والإزميل، وموسى لمايكل أنجلو؛ فعندما تكتمل «ذكريات» من أي نوع ستكون؟

العنوان «ذكريات» وليس الذكريات؛ فربما لم أَتذكَّر كل شيء؛ فالاسم النكرة أكثر دلالة من المعرفة. وربما يستحيل على الإنسان أن يَتذكَّر كل شيء، وتلك فضيلة النسيان عند برجسون، ذكرى تأتي وأخرى تذهب وإلا لانفجرت الذاكرة لِكثرة ما اختُزن فيها من ذكريات. وإذا تذكَّرها فلن يستطيع أن يكتب كل شيءٍ فيها حياءً وخَجلًا في مجتمع ما زال الحب بكافة أنواعه: الحسي والمعنوي، الجسدي والروحي، ما زال غير مقبولٍ صراحة كما يُغنِّي عبد الوهاب في أغنية «عاشق الروح» في آخر فيلم «غزل البنات».

والذكريات تجاربُ ذاتية، قد يعيشها شخصان قريبان مثل الأَخوَين، ولكنهما يُعبِّران عنها بطريقتَين مختلفتَين مثل يوسف وإخوته؛ فالذكريات لا تتعلق فقط بالذاكرة، هي إحدى وظائف، العقل، ولكنها ترتبط بالعواطف والانفعالات بل والمصالح والأهواء؛ فالحاضر هو الذي يتحكَّم في الماضي كما يتحكَّم الماضي في الحاضر؛ فالذكريات ليست فقط روايةً للقديم بل هو تحريكٌ من الجديد.

وهي ليست «ذكرياتي» لأن الموضوع ليس ذاتيًّا خالصًا، إنما هي «ذكريات» أكثر من ثمانين عامًا؛ فهي ذكرياتٌ عن عصرٍ بأكمله: سبعة عشر عامًا قبل الثورة، ثورة ١٩٥٢م وتقلُّباتها من الناصرية (١٩٥٦–١٩٧٠م)، والانقلاب عليها منذ ١٩٧٠م حتى بعد اغتيال رئيس الجمهورية عام ١٩٨١م، ثم استمر الانقلاب على الناصرية لأن الرأسمالية ليست جريمة حتى الثورة الشعبية في يناير ٢٠١١م والتموُّجات فيها بين الإسلاميِّين والعسكريِّين والفلول، جمعًا بين الاستبداد والفساد، ووضعًا للإسلاميِّين واليساريِّين في السجون والمُعتقَلات، انتظارًا لثورة الجياع أو الجرابيع والعشوائيات، والعودة إلى الناصرية روح الثورة الأَوَّل، وتحقيقًا لشعار الخبز والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية.

وليس العنوان «حياتي» أو «سيرتي الذاتية»؛ فكلها تُحوِّل الذكريات إلى جانبٍ ذاتي خالص، وتنسى أنها تعبيرٌ عن عصرٍ بأكمله يُمكِن الرجوع إليه. وليست «يوميات» تُدوِّن

أحداثَ يومٍ بيوم؛ لأن هذه الأحداث لها مَسارٌ موضوعي. وليست مُجرَّد حوادثَ مُتفرِّقة، وإن كان أحمد رامي في الإهداء يقصد حبيبته؛ فربما أقصد أنا مصر، حبيبتي الكبرى، بالرغم من كل ما طرأ عليها من تطوُّراتٍ جَعلَت الناس تندم على أيام زمان أو الزمن الجميل؛ فهذا واجب المُثقَّف الوطني الذي يحمل «هموم الفكر والوطن». ظنَنتُ أنها ستأخذ وقتًا طويلًا؛ عامًا تقريبًا، فلمَّا قَفَزتُ على الجزء الأخير من «التراث والتجديد» «التفسير الموضوعي»، كما قَفَز «هيجل والهيجليون الشبان» من قبلُ، بدأتُ في الكتابة لاستراحة مُحاربٍ من توثيق الآيات والموضوعات التي ربما أكون قد نَسِيتُها حتى أُصِبتُ بضعف النظر أو إحساسًا بِدُنوِّ الأَجَل.

وإذا كانت الذكريات هي استدعاء الماضي، والماضي مُنصب في الحاضر، فيتداخل الماضي في الحاضر، الموتى مع الأحياء. تذكُّر الموتى ليس به حرج، ولكنَّ الحرج مع الأحياء في المُراجَعة والتأويل المُضادِّ على أَحسنِ تقدير، وفي الخصام أو التقاضي على أسوأ تقدير. وفي تذكُّر الأحياء في الحاضر تشتد أزمة الاختيار بين الذكريات: أيها يُذكر، وأيها لا يُذكر؛ فتتدخل الإرادة في انتقاء الذكريات منعًا للإحراج. وربما يختلط المستقبل أيضًا مع الماضي والحاضر في ذِكرِ ما كان الإنسان يوَدُّ فِعله ولم يفعله وهو قد فعله بالفعل. وهنا تتداخل الأبعاد الثلاثة للزمان؛ الماضي والحاضر والمستقبل. وقد تُنسى بَعضُ تجاربِ الحاضر، فلا تدخل في الذكريات التي تحتوي على التجاربِ الحية التي تبقى في الذاكرة، سواءٌ في الماضي أو في الحاضر.

والتقسيم إلى إحدى عشرة مرحلةً هو تقسيمٌ زمني وموضوعي في آنٍ واحد؛ فبدأت بالموضوع والمنهج والتقسيم والدلالة، ثم أوَّلًا: الطفولة: الكتَّاب، المدارس الأولية والابتدائية والثانوية (١٩٣٥–١٩٥٢م) حيث بدأ الوعي بالعالم عن طريق اللعب والفن والفكر. ثانيًا: التعليم الجامعي (١٩٥٢–١٩٥٦م) حيث بدأ الوعي العلمي مُتزاوجًا مع الوعي الوطني، والتطلُّع إلى أُفقٍ أوسع. ثالثًا: السفر إلى فرنسا (١٩٥٦–١٩٦٦م) حيث توازنت الشخصية بين الدين والدنيا، تجارب الأنا والآخر، وصياغة مشروع «التراث والتجديد» (بالفرنسية). رابعًا: الأستاذ الجامعي وفلسفة المقاومة (١٩٦٦–١٩٧١م) ودرء الهزيمة أو النكسة في ١٩٦٧م بعد النكبة في ١٩٤٨م وقبل صفقة القرن في ٢٠١٧م أشبه بنداء إلى الأمة الألمانية لفشته لمقاومة نابليون الذي احتل ألمانيا. خامسًا: السفر إلى أمريكا (١٩٧١–١٩٧٥م)، لمعرفة العالَم الجديد؛ أمريكا، تدريسًا ودراسة، قراءات وزيارات وتوسيع المعرفة بالدين من المسيحية إلى اليهودية، والفلسفة، من الفلسفة الأوروبية إلى

الفلسفة الأمريكية. سادسًا: إعادة إشهار الجمعية الفلسفية المصرية ومقاومة الانقلاب على الناصرية (١٩٧٥–١٩٨٢م) خاصةً بعد مظاهرات يناير، ١٩٧٧م «انتفاضة الحرامية»، وإعادة إشهار الجمعية الفلسفية المصرية عام ١٩٧٦م بعد أن أَسَّسَها منصور فهمي باشا في ١٩٤٤م وتَوقَّفَت بعد الحرب العالمية الأُولى، وزيارة القدس نوفمبر ١٩٧٧م لإيجاد أحلافٍ خارجية، وكامب ديفيد ١٩٧٨م، واتفاقية السلام ١٩٧٩م، وطرد أساتذة الجامعات والصحفيِّين، وتحويلي مُوظَّفًا في وزارة الشئون الاجتماعية، وسجن هيكل، وإبعاد الأنبا شنودة إلى الصحراء في سبتمبر ١٩٨١م مما كلَّفه حياته في أكتوبر من نفس العام. وقد كتبتُ «مقدمة في علم الاستغراب» عام ١٩٨٢م وأنا خارج الجامعة وفي ذهني ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. سابعًا: فلسفة المشرق والمغرب، بالتدريس في المغرب وتَولِّي الإشراف على البحوث الدولية في جامعة الأمم المتحدة في اليابان (١٩٨٢–١٩٨٧م). ثامنًا: رئاسة القسم ومحاولة تكوينِ مدارسَ فكرية (١٩٨٧–١٩٩٥م). تاسعًا: «التراث والتجديد» وأحزان خريف العمر (١٩٩٦–٢٠١١م). عاشرًا: الثورة الشعبية والربيع والعربي (٢٠١١–٢٠١٨م). الحادي عشر: كل نفسٍ ذائقةُ الموت (٢٠١٨م–...).

ويختلف طول المراحل من حيث المكان: أَطوَلُها مرحلة ١٦٧ شارع الحجاز (١٩٧٠–١٩٩٥م) خمسة وعشرين عامًا، ثم مرحلة باب الشعرية (١٩٣٥–١٩٥٦م) واحدًا وعشرين عامًا في شارع البنهاوي، درب الشرفا، عطفة البنهاوي رقم ٤، ثم مرحلة مدينة نصر (١٩٩٥–٢٠١٨م) ثلاثة وعشرين عامًا في ١٨ شارع لوزاكا متفرع من أحمد فخري، ثم مرحلة فرنسا (١٩٥٦–١٩٦٦م) عشرة أعوام، ثم مرحلة العباسية الشرقية (١٩٦٦–١٩٧٠م) مع الوالدين ١٣ شارع الجنزوري منذ العودة من فرنسا ١٩٦٦م حتى الزواج ١٩٧٠م. إلا أن أكثرها عُمقًا في استدعاء الذكريات الماضية والأحلام الحاضرة هي المرحلة الأُولى (١٩٣٥–١٩٥٦م) مرحلة الميلاد والكُتاب والمدارس الأولية والابتدائية والثانوية والجامعية؛ فما زالت الشقَّة التي وُلِدتُ فيها، والغُرفة التي ذاكرتُ فيها، وكنتُ فيها مع أخي سيد وأعز الأصدقاء محمد وهبي عبد العزيز هي أَعمَق الذكريات، وتعود دائمًا أَكثرَ من أطولِها في شارع الحجاز (١٩٧٠–١٩٩٥م)؛ فذكرياتُ الطفولة أكثر عُمقًا في النفس من ذكريات الشباب في فرنسا أو الرجولة بعد الزواج أو الكهولة في مدينة نصر.

وكانت الذكريات في الصياغة الأولى تسترسل دون جهدٍ كبير؛ فالخطوط العريضة تظهر، والمراحل الزمنية لا شك فيها. وفي الصياغة الثانية بدأت تُظهِر ما أسقطه النسيان

في الصياغة الأولى؛ فبدأت بتجسيدٍ أكثر، يملأ فراغاتها. وفي القراءة الثالثة بدأت تظهر موضوعاتٌ جديدة من دائرة النسيان إلى دائرة التذكُّر. ولو كانت هناك قراءة رابعة لخَرجَت بعض الذكريات من جوف النسيان؛ فالذكريات بِئرٌ له أعماقٌ متعددة، وكلما نزل الدلو أَعمقَ أخرج الماء؛ لذلك يستطيع من عاصروا الأحداث من الأقارب والأصدقاء، التلاميذ والزملاء، بالقراءة الجماعية، أن يُصحِّحوا أو أن يزيدوا ما نَسِيت؛ فالذكرى بارقٌ يلمع ثم يختفي كما صَوَّر أحمد رامي في الإهداء. وما كنتُ أُحاول أن أتذكره بالإرادة في قراءةٍ أُولى يأتي طواعيةً في القراءة الثانية؛ فتسلسل الذكريات ليس فعلًا إراديًّا بل هو تيَّارٌ جارف يأتي ويذهب. وهناك فَرقٌ بين الذكرياتِ السطحية؛ أي مُجرَّد تسجيل الأحداث، والذكرياتِ العميقة التي أَثَّرَت في الوِجدان، وتَركَت آثارًا في الشخصية. الأولى سرعان ما يأتيها النسيان، وتكون على هامش الذاكرة. والثانية تكون في أعماق الذاكرة ولا تُنسى، وتكون جُزءًا من الشخصية.

وهناك إشكال يظهر خاصةً في الجُزأَين الأَخيرَين وهو: هل تستدعي الذكرياتُ الأحياءَ مع الأموات، الحاضِرين مع الراحِلين؟ لا حرج في استدعاء ذكريات الراحِلين، ولكن ماذا عن ذكريات الحاضِرين؟ وكيف تستدعي ذكرياتِ الحاضِرين وقد تكون بعضَ المثالب مما يستدعي الحرج أو ما يُظن أنه تجريح وتَعرُّض بالمذكور؟ وكلهم أَصدقاءُ وزُملاءُ في الظاهر أو في الظاهر والباطن. ويَصعُب ألا يُتعرف عليهم، بالرغم من عدم ذِكر أسمائهم. والحل الوسط ذِكرُ النماذج الجامعية دون إشارةٍ إلى أَحدٍ بالاسم، ومع ذلك يمكن تعيين الأسماء بهذه الطريقة عن طريق هذه العلاقات مثل التخصُّص أو النشاط العلمي أو العلاقات الاجتماعية. ومع ذلك ظلَّ استدعاء أسماء الأعلام مسألةً مُثارة لا أدري ماذا أفعل فيها رغبةً في أَكبرِ قَدْرٍ من العمومية، ورفعًا للإحراج، والزمالة الطويلة التي تجاوَزَت نصف القرن؛ فإذا ذكرتُ أَحرَجتُ، وإن لم أذكُر تاهتِ الذكريات ووَقَعت في ضبابية، وهي مصدر المعرفة. وسألني أحد الأقارب أو الأصدقاء: لماذا لم تَذكُرني؟ ذَكرتُ ثم شَطبتُ ثم عُدتُ إلى الذِّكرِ من جديد؛ فالأفضل أن يكون الإحراج لي وليس إلغاء الحوادث والأشخاص التي نَشَأت فيها الذكريات. ثم أَحسَستُ في قراءةٍ ثالثة أنه لا بد من ذِكر الأعلام حتى تتضح الذكريات في الراحِلين فقط دون الحاضِرين، ولكن في الهامش؛ نفورًا مني من وضع أسماء الأعلام في النص. وأخيرًا في قراءةٍ رابعة وأخيرة عُدتُ إلى الخيار الأول بإعادة أسماء الأعلام إلى المتن بمحاسنها وعيوبها؛ ففي العلوم الإنسانية لا يُوجد صوابٌ مُطلَق أو خَطأٌ مُطلَق. وقد استدعى ذلك إسقاط الألقاب ورموزها مثل «أ.» للأستاذ، «د.» للدكتور،

«أ.د.» للأستاذ الدكتور؛ فالذكريات لِنماذجَ بشرية وليس لِشخصياتٍ اجتماعية تَحرِص على ألقابها. ويظل التردُّد حتى الآن قبل أن أَدفَع الكتاب إلى المطبعة، وربما يُوجد حلٌّ نهائي. ووَصلتُ إلى حلٍّ وقتي، وهو ذِكر أسماء الراحلِين دون أسماء الحاضِرين، ثم تَبرُز قضية تلميذي نصر حامد أبو زيد، هل هو من الراحلِين أو من الحاضِرين؟ هل يدخل في النماذج أم إنه لا تصنيف له؟

وتتفاوت الذكريات في الأعماق. الذكريات الأُولى هي الخطوط العامة للسيرة الذاتية والتي تأتي في القراءة الأُولى، وعادةً تكون ذكريات الطفولة. والثانية ذكريات فرنسا التي كَوَّنَت الشخصية بعد ثقلها من اختيار النص إلى اختيار الواقع، ومن التقليد إلى الاجتهاد. والثالثة ذكريات العودة إلى مصر خاصةً ذكريات الفترة الأخيرة بعد السفر إلى أمريكا والمغرب واليابان، وبعد مزيدٍ من التعرُّف على الوطن العربي. وأَعمقُ الأعماقِ هي الطفولة الأُولى ومحل الولادة والسكن قبل المُغادَرة إلى فرنسا، وهي مرحلة الأمل في الاستقلال أو الموت الزؤام ومقاومة الاستعمار والفقر والإقطاع قبل أن تنقلب على نفسها في المرحلة الأخيرة في قرب النهاية؛ مرحلة اليأس بعد عديدٍ من تجارب الإحباط في محاولات النهضة والإصلاح والتجديد والثورة إلى مرحلة الاستبداد والاعتراف بإسرائيل وإقامة كافَّة العلاقات معها والارتماء في أحضان أمريكا والخليج ووَضعِ نفسها في صَفقة القَرن.

والخطورة في الذكريات أن يتناولها أَحدٌ بالزيادة والنقصان؛ زيادة ما يحب، وإخفاء ما لا يُحب؛ الكشف عما يُريد أو التستُّر على ما لا يُريد ظانًّا منه أنه يُحافظ على مركز صاحب الذكريات. ويتم ذلك إراديًّا وليس بالفعل الطبيعي للذاكرة والنسيان، بل إن إكمال الصورة وإبرازَها على نحوٍ غيرِ ما هي عليه يَقرُب من المُغالاة؛ فقد تُوصف بالكذب إذا زادت عن حَدِّها، وأصبَحَت أَكبرَ من جزءٍ للصورة الأُولى، تعظيمًا للنفس أو إقلالًا من شأن الآخرِين.

ومن القضايا المنهجية الصلة بين الخاص والعام؛ فهل كل ما يَحدُث وتستدعيه الذاكرة هي ذكريات؟ وماذا يُفيد الناس أنني جُعتُ أم شَبِعت، نمتُ أم استيقظتُ، عَرِيتُ أم لَبِست؟ لا يهم إلا ما له من دلالة على الفقر، ونشأة الوعي مبكرًا؛ فالذكريات هو مجموع الدلالات للأحداث وليس الأحداث ذاتها كما يفعل الخبر الصحفي للناشِئين. لا يهم إلا ما له علاقةٌ بالفكر أو الوطن كما عرضت في «هموم الفكر والوطن»، وهو ما يَشغَل كل الناس في اللاشعور بعد أن انشغل الشعور بمشاكله في الحياة اليومية كالغذاء واللباس والإسكان والمرض، وكيفية تكييف حاجاته مع دخله المحدود. ومع ذلك لا تنفصل

الذكريات عن البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي نَشأَت فيها؛ فهي أقرب إذن إلى علم النفس الاجتماعي عن الوَصفِ التقريري.

والخطورة أيضًا في عدم ضبط الميزان بين الذاكرة والخيال؛ فقد يَتَذكَّر الإنسان شيئًا إلى المنتصف دون النصف الآخر، فيأتي الخيال لِتكملةِ الصورة؛ فالموضوع نِصفه ذاكرةٌ ونِصفه خيال. والسؤال هو: هل الخيال يُكمِل الذاكرة أم إنه يفارق الذاكرة بدافع الإبداع الفني؟ نصفه فلسفة ونصفه فن، بدايته صدق ونهايته أَقلُّ صِدقًا ولا أقول كذبًا؛ فالذاكرة تحتاج أحيانًا إلى ضبط وتوضيح وإكمال. لا يُطبَّق على التذكُّر مِقياس الصدق في العلوم الطبيعية المتطابق مع التجربة ولكن الصدق مع النفس. لا يعني ذلك وجود منطقٍ للتذكُّر فإنه يظل فعلاً حُرًّا يقوم على الاستبطان والتداعي، بصرف النظر عن الترتيب الزماني، وهذا سبب التَّكرار أحيانًا كما هو الحال في الموسيقى؛ إذ يتكرر اللحن من المقدمة إلى الوسط إلى النهاية. وكما هو الحال في القرآن الكريم مثل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن؛ لذلك يصعب ذكر فهرسٍ تفصيلي بحوادثَ معينة؛ لأن ذلك يفصل المتصل كما يقول برجسون. يَكفِي المَراحل الكبرى التي تختلف الذاكرة عليها.

وبالرغم من حرصي الدائم على التوازن الكمي بين الأبواب والفصول إلا أن الذكريات حَكمَت نفسها بنفسها؛ فهناك تجارب شَكَّلَت شخصيتي مثل إقامتي في باريس عشر سنواتٍ ورئاستي للقسم ومحاولة تأسيس مدارسَ فكريةٍ ولا أقول فلسفية، وتعمَّقَت في شعوري وأصبَحَت لا تُنسي، في حين كانت أجزاءٌ أُخرى أصغر مثل أحزان خريف العمر وتمنياتي المتفائلة، والمستقبل المفتوح.

ومعروفٌ في دراستي «التراث والتجديد» أنني لا استعمل ضمير المتكلم المفرد «أنا» أو «الجمع»؛ فالعلم موضوع وليس ذاتيًّا. أمَّا الذكريات فإنها تجمع بين الذات والموضوع من خلال الذات؛ ومن ثَمَّ لا ضَيرَ في استعمال ضمير «الأنا المتكلِّم»؛ فالتجربة ذاتية، وهو مصدر الذكريات الذي يجمع بين الذات والموضوع في علاقةٍ مُتبادلة بينهما. إذا رأى الكاتب سَكنَه القديم هاجت فيه الذكريات، وإذا تَذكَّر شيئًا أَكمَله بالخيال الذي هو الوجهُ الآخر للذكريات.

وقد تتكرَّر بعض الإحالات، ولكن لِكلٍّ سياقها ومدى عمومها أو تفصيلها؛ فالذاكرة لا تعرف التنظيم والتنسيق والرسم الهندسي؛ فالكتابة هي استدعاءٌ تِلقائي طِبقًا لمدى عُمقها واتساع حضورها في اللاشعور. والحكم بالتَّكرار هو عَدَم تَميُّزٍ كافٍ بين التقرير الصحفي والسيرة الذاتية، بين الوصف والتقرير والإبداع الذاتي.

إن هذه الملاحظات المنهجية لم تأتِ استنباطًا من منهجٍ مُعَدٍّ سلفًا، بل هي نِتاج استقراءِ كل إشكالٍ صادفَني في كتابة الذكريات، وحاولتُ التعبير عنها تجريبيًّا، ثم رصَدتُها نظريًّا كتمهيدٍ منهجي، أُسوةً بباقي أجزاء «التراث والتجديد»، وأنا أَوَّل من يَنقُدها، كما تم أيضًا من قبلُ في «محاولة للنقد الذاتي». ومع ذلك أتمنى أن تصل هذه الملاحظات إلى حد «خطوات في المنهج» بعد وضعه مَوضِع النقاش مع مَن ما يزال يجد فائدةً في النقاش الفلسفي.

الفصل الأول

الطفولة: الكُتَّاب، المدارس الأولية والابتدائية والثانوية (١٩٣٥–١٩٥٢م)

أنا من مواليد ١٩٣٥م حي باب الشعرية الذي به جامع الشعراني الذي كان يُؤذِّن فيه محمد عبد الوهاب. ومن شارع الجيش الشارع الرئيسي في باب الشعرية الذي يربط بين العتبة والعباسية، يتفرع منه شارع البنهاوي الذي به جامع البنهاوي الذي يصل إلى باب الفتوح ثم باب النصر. وتتفرع من وسطه تقريبًا حارة درب الشرفا ثم عطفة العبساوي والمنزل رقم ٤ الدور الأول فوق مخازن السحار للبقالة. عنوانٌ طويل مُقارنةً بالعناوين الطبقية الأخرى، رقم المنزل واسم الشارع ثم اسم الحي كما حدث بعد ذلك في ١٦٧ شارع الحجاز، مصر الجديدة. وكنت أستحي من هذه العناوين الطويلة التي بها الدُّروب والعطفات. وكنت أذهبُ إليه بين الحين والآخر؛ أذهب لرؤية البيت الذي وُلِدتُ فيه، والشقَّة التي قَضيتُ فيها طفولتي وصِباي قبل سفري إلى فرنسا. وما زلت أحلم بها وبِسُطوحها الخاص وجَملُوناتِه الخشبية التي كانت سَقفَ مخازن السحار للبِقالة. وكنت أَنزعُ قعدتها الخشبية السوداء لعمل «عوَّامة» التي يسير بها الأطفال. رِجلٌ فوقها، ورِجلٌ أخرى على الأرض ترفعها بعد تركيب عجلتَين صغيرتَين، أمامية وخلفية، ومتصلة بين العمود الرأسي والقاعدة الأفقية، تربطهما مُفصَّلةٌ — على أحسن تقديرٍ — للانحراف بها يمينًا ويسارًا مثل دريكسيون العربة.

وكان أَوَّل وعيٍ بالناس بعد الأقارب هم الجيران؛ ففي مَدخل المنزل هناك غُرفةٌ واحدة في الحوش، وهي التي تَحوَّلَت في المنازل الحديثة إلى حجرة البواب، كانت تَسكُنها نساءٌ فقط؛ فهيمة الأم والتي كانت تلبس السواد طُول الوقت لتكشف عن ذراعَيها وساقَيها البيضاء، وصالحة الابنة الطويلة الفارهة، والتي كنتُ أشعر نحوها بشيءٍ ما لا أعرفه. ولَمَّا

ضاقت الحجرة، سكنوا تحت بير السلم المُظلِم الذي تَسكُنه العفاريت؛ فقد كان به الحوض ودورة المياه. وكانت صالحة تعمل وتعول الأسرة. ويُنظر إلينا على أننا من الأغنياء لأننا نسكن بالدور الأول ونذهب إلى المدارس والجامعات. كانت أرض الحوش من الطين؛ فلم يكن السيراميك قد عُرف بعدُ، وإن وُجد فمن يقدر على شرائه؟ وكان في مدخل شقتنا على يمين الحمَّام البلدي والمطبخ. وفي الواجهة غرفةٌ داخليةٌ مظلمة لا تُطِل على شيء إلا سطح المخزن على مستوًى أدنى والذي كان يُستخدم مَلعبًا «للعوَّامة». وعلى اليمين غرفة لأخي سيد وأنا الصبيان في المنزل. وعلى اليسار غُرفةٌ لأخواتي البنات الخمس: نبيهة، سعاد، فاطمة، علية، نادية، وكلهن من خِرِّيجات مَدارس المُعلِّمات التي كانت في ذلك الوقت أنسب تعليمٍ للإناث وأسهل وظيفةٍ لهن مُدرِّسات. وعليَّة الوحيدة التي تفَوَّقَت في دراستها، وأَخذَت الثانوية العامة من المنازل، ثم ليسانس الآداب من قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، ثم الماجستير والدكتوراه حتى أصبحت رئيسة القسم، وسافَرَت إلى اليونان، وتَزوَّجَت وهي طالبةٌ صديقًا لي طبيبًا، د. عبد المحسن حسين عبد الله. أمَّا نادية الصغيرة فقد تخرَّجَت من مدرسة التجارة، وأصبحت موظفةً في بنك حيث تَعرَّف عليها زميلها محمد وتزوَّجها، وأصبَحَت رَبَّة منزل. وهي التي قمت بتكاليف الإعداد لزواجها بعد أن قام أخي سيد بتكاليف إعداد أخواتي الثلاث الأخريات نَظرًا لغيابي في فرنسا، وحَجَّج الوالِدَين مَرَّتَين. وكانت أكبر الغرف تُطل على العَطفة، وتحتها مخازن السحَّار. أمَّا الوالدان، فكان الوالد في غرفة الأولاد والوالدة في غرفة البنات. أمَّا الصالة الوُسطى فكانت غرفة المعيشة والاستقبال، وبجوارها شقة الجزار والكبابجي، وفوقها غُرفة الفَرَّان عم توحيد وابنه صلاح، وبجواره اللبَّان الذي كان أبناؤه في الدراسة، وكُنتُ أُعطيهم دروسًا في الثانوية العامة اتِّقاءً لِشرِّهم. وأمَّا جارتنا نعيمة فكانت جميلةً بيضاءَ وطويلة، وزوجها يعمل في «الأورنس»؛ أي الجيش الإنجليزي، كما يُصوِّر نجيب محفوظ في «زُقاق المَدَق».

كان الوالد موسيقيًّا بالجيش بفرقة البيادة المصرية، يلعب الترمبون، يرفض اللعب في الأفراح لأنه كان يعتبر ذلك إهانةً له وللفن وللجيش، يشارك كضيفٍ نعم، أما كلاعبٍ فلا، باستثناء حفل التخرُّج السنوي لمدرسة الجزويت بالفجالة التي كان يُقدِّرها؛ ربما لحضورها الأجنبي أو لِلغتها الفرنسية أو لِلعَشاء الفاخر الذي كان يُقدَّم للموسيقيِّين، وكان يأخُذني لأتفرج على عالمٍ جديد غيرِ عالَم المدارس الحكومية الفقيرة والتي يَحرُم كل شيء فيها. وقد كان هو أستاذ الموسيقار الشهير لفرقة رضا، علي إسماعيل، ولَمَّا رأى فيه النبوغ نصحه باللجوء إلى المعهد العالي للموسيقى الذي كان يشترط الحصول على

التوجيهية؛ أي شهادة الثانوية العامة، فقُمتُ بالتدريس له، نظام الثلاث سنوات في سنةٍ واحدة. كنتُ أذهب إليه في حي الدقي. ولَّما نجح أصبح أشهر لاعب كلارينيت في مصر. ظهر في أغنية «عاشق الروح» الأخيرة في فيلم «غزل البنات». ولَّما أُنشِئت فرقة رضا للفنون الشعبية أصبح مُلحِّن أغانيها الراقصة الشعبية، وقائدَ فرقتها. وكُنتُ أذهب إليه أحيانًا في مسرح البالون أنا وصديقي محمد وهبي عبد العزيز، فيُدخلنا مجانًا، وكان أخوه رجب مُجرَّد عازف للأبوا في الفرقة، وكان كلاهما يُحبَّان الجنس الآخر؛ رجب لابنة عمه، وعلي للفنانات شأن مُعظَم الفنانِين في ذلك الوقت.

وكانت ستي يامنة وخالتي أم عبد الله تحضران من بني سويف إلى القاهرة لحضور حادث الولادة. وكانت ستي من قبيلة بني مر في أسيوط، جنوب بني سويف، ثم نَزحَت إلى الشمال، وهي القبيلة التي منها الزعيم عبد الناصر. وكان جدِّي قد نزح من الأندلس إلى المغرب ثم انتقل شرقًا واستقر في بني سويف عائدًا من الحج، وأصبح تاجر دقيقٍ بجوار محطة القطار، وما زِلتُ أذكر شعره الأشقر ووجهه الأحمر. وأراد أن يُزوِّج أبي قبل الذَّهاب إلى التجنيد، فأخذ بيده إلى منزل ستي بجوار مدرسة زعزوع خلف المركز، وطلب من ستي يد ابنتها، وكانت نائمة، فرفَعَت الغِطاء من على وجهها ثم سأل جَدَّي أبي إذا كانت تُعجِبه فأجاب بالإيجاب. واستيقَظَت والدتي فوَجدَت نفسها قد تزوَّجَت وهي نائمة؛ فالاختيار ليس لها. ثم نزحا معًا إلى القاهرة، حي السيدة زينب، بجوار مدرسة السَّنِيَّة، ثم بعد ذلك انتَقلا إلى باب الشعرية حيث وُلِدنا أنا وأخي وجميع أخواتي. وما زلنا جميعًا نَحِنُّ إلى هذا الحي الذي أصبح رمزًا للأصالة كلما أَحسَستُ أنني انتقلتُ من طبقةٍ لأخرى، وكلما أَحسَستُ أنني اغتربتُ عن أصالتي وعن سُلوكي الشعبي.

وكانت خالتي لا تُنجِب، ولا تحتاج إلى أموال ستي أو أن تَرِثها، فكانت ستي تُعطي والدتي ما تَيسَّر من مالٍ لِيُساعدها على المعيشة. كان لستي عدة بيوتٍ ريفية قسمتها مناصفةً بين أمي وخالتي، ونحن في الجامعة وفي حاجة إلى مصاريفها. كانت والدتي تذهب إلى بني سويف وتَهمِس في أُذن ستي فتُوافِق على بيع أحد البيوت. بِيعت أربعة بيوت ونحن في أربع سنوات الجامعة، ثم اندَارَت سِتِّي وأَقنعَت خالتي ببيع بيوتها وهي عاقرٌ بالرغم من زواجها وطمع زوجها في صيغتها في يدَيها. ولَّما اقتَنعَت وتوفت ستي أقنَعَت والدتي خالتي ببيع آخر بيوتها، وتأتي لتعيش معنا في القاهرة حتى تجد من يساعدها، وكانت عرجاء؛ رِجلٌ طويلة وأخرى قصيرة بعد أن وقَعَت من على السطح وهي تُطعِم الدجاج، فانزَلَق بها السُّلم، ولم يكن في ذلك الوقت أطباء، فاكتفت بالوَصفاتِ

البلدية والجبيرة ولكن ظل العَظمان مُتفرِّقَين. وبالفعل عاشت خالتي آخر سنواتها معنا في ١٣ شارع الجنزوري بالعباسية بعد أن أصبح المنزل الذي وُلِدنا فيه مُعرَّضًا للانهيار. وبالفعل هُدِمَت الأدوار العليا الأربعة وبقي الدور الأول الذي وُلِدتُ فيه.

وكان أبي قد تُوفي فيها، ورأيتُه أنا وزوج أختي الكبرى في لحظته الأخيرة، ورأيتُ الروح وهي تَصعَد وأبي يتألَّم إلى أن فتح فمَه ثم تَوقَّف عن الحَراك. وما زلت أتساءل: هل الروح في لحظتها الأخيرة تخرج من الفم؟ وكنتُ أسمع وأنا صغيرٌ دون أن أشاهد أن الروح تبدأ بأَخمصِ القَدمَين وتنتهي تدريجيًّا إلى أعلى. وما إن خَلَت غُرفةٌ في الشقة حتى استَدعيتُ خالتي للعيش فيها، وكانت سعيدة، بينها وبين أفراد الأسرة مُنافسةٌ على الطعام. كانت تعتبر أولاد أختها أولادها، يأخذون منها العيدية في كل عيد. الوالدة ليس لها شهادة ميلاد؛ فلم يكن مطلوبًا منها ذلك، ولكنها كانت تقول إنها أصغر من الوالد بحوالي عشر سنوات.

والوالد وهو من مواليد ١٩٠٠م بسبب الخدمة العسكرية كان شاويشًا بالجيش في فرقة البيادة (المشاة) لِلمُوسيقى العسكرية، لاعب ترومبون الأَوَّل، ثم رُقِّي صول (شرف). وكان علي إسماعيل وهو قريبٌ لنا من تلاميذه. وكان يرفض دعوات اللعب خارج الجيش احترامًا لهيبته، وما كان يسود الأفراح من هِزار وتدخين الممنوعات لا يليق. ورفض أن ينتقل إلى أي مكانٍ آخر مثل السودان ليس فقط كي يَترقَّى بل أساسًا حفاظًا على البقاء في القاهرة مع أسرته. كان يحب الجلوس على المقهى مع زملائه في الجيش ويشرب الشيشة حتى كِبر أولاده، وظن أن ذلك عَيبٌ وهم على أبواب الجامعة. ولَّما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢م، أرادت إفساح المجال للشباب في الجيش، فأَخرجَته وحَوَّلَته إلى وزارة الشئون الاجتماعية، كما انتقلتُ أنا إليها عندما أَخرجَنا الرئيس المغدور بقرارٍ منه في سبتمبر ١٩٨١م خارج الجامعة مع الإعلاميِّين وعلى رأسهم هيكل وإبعاد البابا إلى دَيرٍ في الصحراء؛ لأنهم كانوا يعارضون سياساته التي انقَلَب فيها على عبد الناصر، والتي بَلغَت قِمتها في مقاومة مُظاهراتِ يناير ١٩٧٧م (انتفاضة الحرامية) بالقوة وزيارته إلى إسرائيل في نوفمبر من نفس العام، ثم اتفاقية كامب ديفيد في ١٩٧٨م، ثم معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في ١٩٧٩م والذي أدى إلى اغتياله في أكتوبر ١٩٨١م. ثم أُحيل إلى المعاش كموظف في الدولة ١٩٦٠م ثم تُوفي ١٩٨٠م، ومعاشه ستة جنيهات.

وبعد أن تَوفَّت خالتي، وكان أبي قد اشترى قبل أن يُتوفَّ مقبرةً بالبساتين كان هو أَوَّلَ من دُفن فيها. كان أبي باستمرارٍ يُمازح خالتي ويَخطَف منها طبق الطعام وهي

تمنعه من ذلك عن طريق البصق فيه، وتضحك عليه بأنها هي التي كَسبَت المعركة. وكانت والدتي ترجوه أن يتركها في هدوء «سيبها يا أبو السيد.» كانت تُحِبُّني وتعتبرني ابنها الوحيد؛ فقد حَضرَت ولادتي عندما أتت من بني سويف إلى القاهرة، وكنتُ أنا أقربَ إخوتي لها، كانت تُؤثِرني بالمصروف المدرسي اليومي قرشًا أو قرشَين عليهم. وكنتُ أُدافع عنها باستمرار إذا مسها أَحدٌ بسوء، وتحزن وتقول لوالدتي: «ياللي بيعتيني بيتي.» وأنها خَسِرَت كل شيء بسببها وأولادها، ولم أكن أدري هل هذا مزاحٌ أم جِد. لقد كانت تَحِن إلى بيتها الأخير في بني سويف، وحُجة والدتي أنه دخل في التنظيم؛ أي سيُهد عن قريب؛ لأنه بارز في الشارع عن صف البيوت الأخرى. وبَيتُ عصمت المقابل الذي يُحدث اختناقًا مع بيت خالتي، لا يُهَد لأنه أكثر جِدَّة، وعصمت ذو شأنٍ في المدينة، ولأَوَّل مرة أرى الحاجَّ وهو يضع كفَّيه في دِماء الضحية ويطبعها على الحائط كي يعرف الجميع أنه حاجٌّ ويُنادونه بلقب «حاج» في «الحاج عصمت»؛ لأن عصمت بمفردها أو عصمت أفندي لا تُعطيه حقه.

وأصبحت مقبرة البساتين مدفن العائلة؛ بها أبي وأخي وزوج أختي فاطمة وأمي وخالتي وحماتي وأحد الأقرباء لأمي وأخيرًا زوجة أخي، والموت ليس به ازدحام كالحياة، وربما أكون أنا أو أختي الأصغر مني أَوَّل زائريها. ومع ذلك فَكَّرَت أخت زوجتي في شراء مَقبرةٍ لهما بطريق السويس، لم يُدفن بها أحد حتى الآن، وربما أكون أول زَائِريها، والأَمر متروك لزوجتي الحبيبة؛ إمَّا أن أُدفن في مقبرة العائلة حيث بها أمها أو في المقبرة الجديدة لآل مرعي. الأولى طُرقها غيرُ أَسفَلتيَّة وكلُّها مَطبَّات، وتتسرب إليها مياهُ عين الصيرة بين الحين والآخر. والثانية طُرقها أَسفَلتيَّة، نظيفة، أعدَّها الجيش. الأولى داخل القاهرة، والثانية خارج القاهرة.

وكانت شقَّة العائلة بالعباسية التي تُوفِّي بها أبي وأمي وخالتي مَطمعَ أختي لِتُزوِّج بها ابنها الأكبر الذي يسير بِعصَوَين، فلم يعترض أحدٌ نظرًا لحالته الصحية، فتزوج بها وأنجب، ورعت زَوجتُه والدتي في سنواتها الأخيرة، فكانت الشقة استحقاقًا لها بالرغم من تساؤل جميع البنات.

كانت الأخت الكبيرة «طيبة»، «بنت حلال» أنجبَت أربع بناتٍ وولدَين، يعِشونَ من معاش من أمي. وكانت مَن بَعدَها أيضًا طيبةً وفي حالها، تزوَّجَت وأنجبَت ولدَين وثلاث بنات. والثالثة كانت تعشق الدنيا، ثم بعد ذلك تَديَّنَت وقَرأَت القرآن، ومَسكَت بالمصحف، ولبِسَت البياض، وغطَّت رأسها، تعِظ الناس، تَزوَّجَت وأنجبَت، ولها ثلاثة ذكور وأنثى واحدةٌ شبيهةٌ بأُمِّها مثل أحد الذكور. والصُّغرى جَمعَت بين الطيبة وسلامة النية، وزادتِ

الهَبالة فتزوَّج عليها زوجُها المُتديِّن امرأةً مُتديِّنة نصَّابة طَمِعَت فيه، وأخيرًا عاد إلى الحُب الأول. وأولاده أَربعُ إناثٍ تَزوَّجنَ وأَحببنَ إلا واحدة، أصابتها عُقدةٌ نفسية لِشدَّة الرقابة عليها من أبيها المُتديِّن. كلُّهن الآن جَدَّاتٌ لهُن أحفاد، أطال الله في عُمرِهن. تفوَّق الذكور والإناث جميعًا بين أستاذةٍ جامعية ومحاسبٍ ومهندس. وكانت أمي تُسمِّيها «من تُشاركني في حياتي» باعتبارها ابنتَها البكر.

وكانت الوالدة أُمِّيَّة، لا تقرأ ولا تكتب، ولكنها في الحياة عالمةٌ كبيرة، سواءٌ في شئون المنزل أو مع الأقارب والجيران والأصدقاء. كانت تَستيقِظ في الفجر مثل الوالد وتبدأ في إعداد شئون المنزل من عَجينٍ وطبيخ وغسيل وتنظيف. كان من عادة الأُسرة المصرية أن تَعجِن في المنزل؛ تشتري الدقيق وتَعجِنه وتُخمِّره وتَرُصُّه وتُقدِّمه على طاولاتٍ من الفَرَّان الذي يأخذه وينقله إلى الفُرن ويستخرجه طازجًا بِالعَدد. وكانت تعرف كم كيلو دقيقٍ يُستخرج منه رغيف، الطري والمُلدَّن، وكان هذا يتم مرةً في الأسبوع؛ فما دام هناك عَيشٌ في «المِشَنَّة» تكون الدنيا مستورة. وكنا نشتري الدقيق من السحار على باب درب الشرفا وشارع البنهاوي، وهو يُسجِّل التاريخ، ومرةً واحدة أخطأ في عَدد المرَّات في الشهر، ولكن الوالدة هي التي صَحَّحته بذاكرتها؛ فليس مقياس الصواب والخطأ المكتوب في دفتر البقَّال بل المُسجَّل في ذاكرتها. كانت تُعِد ثلاثَ وجباتٍ يوميًّا لتسعة أفراد؛ الوالد والوالدة، وأخي سيد وأنا، وخمس بنات: نبيهة، سعاد، فاطمة، علية، نادية. وكُلُّنا نأكل الصنف من طبقٍ واحد. ولم تكن هناك عادةُ أَطباق الغَرف المشتركة ولكلِّ فردٍ طَبَقٌ يأكل منه بعد أن يغرف ما يريد. وكانت المشكلة ما بعد الطعام، تتكاسَل أخواتي البنات عن تنظيف الأطباق، والرجال؛ الوالد وأخي وأنا، ليس المطلوب منهم شيئًا، فيقع العمل كُلُّه على الوالدة، فتَعِبَت. ومرةً سمِعتُها تَصرخُ عاتبةً على أولادها البنات: «أصل انا العبدة اللي اشتراها لكم أبوكم»، فأَحسَستُ بِالظُّلم الاجتماعي الذي يقع على المرأة. أمَّا الرجل فلم يكن مطلوبًا أن يفعل شيئًا، عكس ما رأيتُ في أمريكا فيما بعدُ، عندما دعانا أستاذ الفلسفة إلى العشاء، زوجتي وأنا. ولَّما انتهينا قام هو ولَبِس مَريلة المطبخ وظل يَغسِل الأطباق وزوجتُه تُسامِرنا!

وكان الوالد يَغارُ عليها من أيِّ رجل يأتي لزيارتنا؛ فقد كان يراها أجمل امرأة في العالم. كان يغار خاصةً من عم إسماعيل (والد علي) الذي كان يأتي لزيارتنا لرؤية بنت خالته مُتأنِّقًا، على شَعَره الناعم كريم يجعله يلمع لِيَجذب النساء إليه، في حين كان

والدي بسيطًا في لبسِه بالجلباب ولا يضع فوق شَعَره أَيَّة مساحيق. وكان عم إسماعيل مُتكلِّما مُبتسِمًا في حين كان الوالد أقصر في الكلام، ولا يبتسم أو يضحك إلا عند الضرورة. والوالدة تُريد أن تُظهر قُدرتها على الكلام، فتتبارى مع عم إسماعيل، ووالدي لا يستطيع أن يُجاريها، فأحس بالغيرة، فقام وانتفض وصرخ في وجه أمي لأن الضيف ضيفٌ وعم إسماعيل يُهدِّئ فيه حتى تَهبِط نار الغَيرة منه. وكانت عائلة عم إسماعيل كُلُّها تحب النساء؛ علي، ورجب، وجمال. وهذا طبيعي. أمَّا بالنسبة للوالد فهذا غير طبيعي؛ فالنساء كُلُّهن في الوالدة. مع أن زوجة عم إسماعيل كانت بيضاء، وضاحكةً بالرغم من قِصَرها وبدانتها. وكانت ابنتها خديجة، هيفاء، بيضاء، في غاية الجمال، أَحببتُها عن بُعد، وحَضرتُ يوم زِفافِها على ابن عمها الذي أخذها في الحُجرة المجاورة وهي تصرخ، وقام بالواجب، وفي الخارج يُطبِّلون ويُزمِّرون. وعندما خَرجَت رأيتُ الأَلَم على وجهها، وحزِنتُ لها وعليها، على هذا الحبيب الذي انتُهِكَت كرامته، وعلى وجه الرجل علامات بؤسٍ وشقاء لأنه لم يجد أي لذةٍ أو سُرورٍ في ذلك.

أمَّا الأخ فهو سيد الذي كان أستاذًا للأدب العربي في جامعة القاهرة، وتلميذًا لشوقي ضيف، تلميذ طه حسين، ثم وكيلًا للكلية، ثم عميدًا لآداب بني سويف، ورئيسًا لقسم اللغة العربية، وبها كان إداريًّا ماهرًا، يُغلِّب مصلحة الطلاب على قوانين الإدارة. أمَّا الأخت الكبرى فكانت مُدرِّسة، بَدأَتِ التعيين في دشنا بمحافظة قنا، وكانت هذه أَوَّل مرة تبتعد فيها عن أفراد الأُسرة، وكان والدي يذهب لزيارتها بين الحين والآخر بزيه العسكري، وله صُوَر في آثار الأقصر. وبالرغم من قِصَر أختي الكبرى وسِمْنَتها فقد جاءها خطيبٌ من هناك، أحول العينين، طويلٌ وأَسمر، أكبرُ منها سِنًّا، يُسمُّونه «علي أفندي»، يُعوِّج الطربوش بزِرِّه الأسود المُتدلِّي، مُعجَبًا بنفسه كما هو الحال في الأفلام المصرية، وكانت الوالدة تقابله بالترحاب، وهو لا يتوانى في خدمة الأسرة لِيُبيِّن مهارته الاجتماعية، يعرف فلانًا وعلانًا من عِلية القوم؛ فكان على صِلةٍ بالدولة وإدارتها حتى إنه جَهَّز إجراءات دفن أخي الأصغر علي الذي مات وهو رضيعٌ بنزلةٍ معوية، وحَملَته جارتنا في البدروم على يدَيها وهي تَتَصنَّع البكاء، وذَهبتُ معهما مُصاحبةً إلى المدافن لا أدري أيها، ولو عاش لكان لي أخان. وتَقدَّم لخطبة أختي الكبرى، لا أدري رسميًّا أو غَيرَ رسمي، ورَفَضَت أمي. كيف تفارق ابنتها الكبرى إلى الأبد وتعيش في الصعيد؟ وكانت الجارة التي لم تكن على وِفاقٍ دائم مع أمي، وكانت جميلةً بيضاء، كلما تَعارَكَت مع أمي بالكلام، كما هو الحال في العادات الشعبية، تقول لها: «يا بتوع علي أفندي.» وتقول لها أمي بعد أن أَحسَّت

بالإهانة: «اخرسي، قطع لسانك من لغلوغه.» وكان زوجها طيلة النهار خارج المنزل، ولا يخرج إلا في الصباح الباكر. وفي يومٍ خرج والدي لشراء خبز فتقابل معه ويبدو أنهما تَشاجَرا بالكلام، وأَحسَّت والدتي بتأخُّر والدي، فخافت أن يكون قد اصطدم بخروج جارتها، وعاد والدي مُكفهِر الوجه، وسألَته الوالدة: هل تقابلتَ معه؟ فقال لها: نعم، وتشاجرنا. فخرج الموضوع من أيدي النساء، ووقع في أيدي الرجال، ولكن بسلام. وفي يومٍ من الأيام وجَدتُ الشرطة على باب المنزل ثم على باب الشقَّة المجاورة لي ويأخذ جارتنا مُكبَّلة بالحديد. وكانت التهمة أنها خَلعَت بلاط الحمام، وعَمِلَت هُوَّةً تسمح بنزولها إلى مخزن البقالة وسرقة صفائح الجبن والزيت وأَشوِلة الأرز، ففَرِحتُ. وكنا نُعايِرها بعد أن رَجعَت إلى المنزل، بأنها «حرامية»، وهي تُعايِرنا بأننا «بتوع علي أفندي».

وأخيرًا تَزوَّجَت أختي الكبرى، وكانت تُدعى نبيهة واسم الدلع «بخاطرها»، وكانت أمي تُسمَّى «أم بخاطرها» نسبةً لها أو أم سيد نسبةً لأخي الأكبر سيد؛ تَزوَّجَت من قريبٍ لوالدتي، سيد حامد، مثالًا في الأخلاق والمساعدة الأُسرية. وهو الذي كنت أعتمد عليه دائمًا في مصالَحَتي مع الأسرة عندما كانت لا تستجيب لِطلباتي مثل شراء الكَمان أو في الاشتراك في حمَّام السباحة حتى لا أغرق، وكانت طريقتي في الخصام هي الصوم؛ لذلك كانوا يُسمُّونني «غاندي». هو الذي يُصمم لي المكتبة والرفوف لوضع الكتب. وهو الذي تابَعَ طبع رسالتي الأولى الفرنسية بالمطابع الأميرية بعد موافقة الأمين العام للمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في ذلك الوقت، ثم شحن مائة نُسخةٍ إلى باريس كما تَتطلَّب السربون في ذلك الوقت. وهو الذي جاء معي لمحل الموبيليات لِلتفاوُض على ثمن غُرفة النوم مع زوجتي وتخفيضها من مائتَين وعشرين جنيهًا إلى مائتين وعشرة جنيهات، وأَصَر عامل المحل على أن يأخذ خمسة جنيهات إكراميةً له لِوقوفه إلى جانبنا ضد صاحب المحل صدقًا كان أم نقاقًا. كانت حالتنا المالية لا تسر؛ فكان معاش الوالد ستة جنيهات، نأخذ الدقيق، وهو الأهم، من بقَّال على ناصية الحارة، وهو السحَّار، مع تأجيل الدفع حتى أول الشهر، حوالي أربع مرَّات؛ فالخبز أهم شيء في الأسرة، وكان الفرن قريبًا من المنزل على مدخل عطفة العبساوي، ويسكن صاحبه فَوقَنا.

انتَظرَت والدتي مرةً أختي الكبرى على باب المدرسة بعد أن سعت لنقلها إلى القاهرة بعد زواجها، ونَجحَت في ذلك، وعاتَبَتها على أنها تَركَت أُسرتها دون أي معونةٍ مالية، فقَصَّت أختي القصة إلى حماتها التي عايَرتنا بهذه الطريقة في الشحاذة مع أنها موافقةٌ على أن تعطي أختي والدتها جنيها أو اثنَين شهريًّا.

ولَّما تَوفَّت زوجته وهي شقيقتي الكبرى لم يَستطِع العيش بدونها، وتُوفِّي هو بعد شهر، وكانت مَقبرته بجوار مَقبرتنا، وفي آخر الطريق مَقبرة علي إسماعيل، وتَركَ من بعده ذريةً صالحة، ولدَين وأربع بنات، تَزوَّجن جميعًا وأصبح لهُنَّ أحفادٌ يَحفَظون الوُدَّ لخالهم.

وكنتُ مُرتبطًا بأولاد شقيقتي الكبرى: سوسن، وسهير، وسهام، وسلوى، وأحمد، ومحمد. وكنت آخذ سوسن وسهير سَيرًا على الأقدام من باب الشعرية إلى شبرا لإرجاعهما إلى والدَيهما بعد أن تكونا قد قضَتا الليل عند جَدِّهما وجَدَّتهما وخالَيهما. وكُنَّا نطوي المسافة طيًّا دون أي ألمٍ في الأقدام خشيةً من ركوب المواصلات العامَّة، مثل التِّرام، الذي كان في ذلك الوقت خيرًا مما هو عليه الآن. كما كنتُ آخذ شقيقاتي؛ سعاد، وفاطمة، وعليَّة، إلى سينما مصر، وكنَّا نَرقُص على سُلَّم المنزل ونقول: «رايحين السيما.» ولَّما كِبرَت شقيقاتي، ووالدي محافظ، كن يُقصِّرن الرداء بالحزام فوق الركبة تقليدًا للكِبار.

أمَّا الأقارب فأَتذكَّر تاجر الجلود بالصنادقية الذي كان قريبًا للوالدة، وكنا بين الحين والآخر نذهب إليه لاقتراض بعضِ المال، خاصة في أوائل العام الدراسي، سيرًا على الأقدام خلال شارع المعز لدين الله الفاطمي وخلال القاهرة القديمة. وكانت أخت الحاج حسنين جَدِّي أفقر منا، تعيش أسرتها من عمل اللُّعَب، الوز المُلوَّن المتحرك؛ الأب يقطع الأخشاب، والابن يبيع في الأسواق، والثالث غادر هذه الحياة البائسة ليبحث عن رزقٍ أوسع نجَّارًا، ويأتي لزيارة الأسرة بين الحين والآخر. لم يَتزوَّج بائع اللعب، ومَرةً أتانا إلى المنزل مُصاحَبًا بامرأةٍ مدهونة بالأصباغ وعلى رأسها قُبَّعةٌ ظانًّا أن ذلك أعلى قيمةً في الحداثة، وقدَّمها على أنها زَوجتُه التي يتباهى بها. وكان له أَخٌ آخر سائق بين القاهرة والإسكندرية، أتانا مرةً وانفجر بالبكاء لأننا أُسرةٌ مُفكَّكة، فقَدَّمنا له العَشاء والمنامة حتى ضَحِك وجفَّف دموعه، ولم نَرَه بعدها! وكان أبي له أَخٌ علَّمه الموسيقى فكوَّن فرقةً موسيقية متواضعة يُشارك فيها في الأفراح. وكان يزورنا في هذه الفترة «عم إسماعيل» أنيقًا لامعَ الشعر لزيارة الوالدة قريبته، فكانت تلقاه بِالحَفَاوة المطلوبة ولكنَّ الوالد كان يَغَار منه على والدتي ويَفتعِل خناقة مع الوالدة، ثم تَتِم المُصالَحة، وكان الوالد لا يُحب كثيرًا أن يأتي. وكان عم حسين حما شقيقتي النابغة يُحب الحديث مع الوالدة، هو كثير الكلام وهي تسمع، وكان حُلو الحديث. لم يكن أبي يغار منه لأنه لم يكن مُتأنِّقًا مثل عم إسماعيل، كان بِجِلبابٍ فَضفَاضة، أَهتَم الأسنان. كلاهما تجاوزَا السبعين؛ الوالدة، أمَّا

عم حسين فقد جاوَزَ الثمانين. اثنان من كبار السن لا خَطَر من أن يتحادثا لِشَغل أوقات الفراغ.

وكان الجيران على أنواع: الصديق، في الظاهر والباطن، والمُنافِق؛ أي الصديق في الظاهر والعدُو في الباطن، والعدُو في الظاهر والباطن؛ فالصديق في الظاهر والباطن في الشباك الذي أمامنا، وكانت صالحة على مستوًى مُعيَّن من الجمال، بيضاء هيفاء، قليلة الكلام، وعينان برَّاقتان، وفمٌ ضاحك، وقلبٌ نابض. والصديق في الظاهر والعدُو في الباطن من فوقنا، زوجة الفَرَّان، التي لديها ابن (صلاح) الذي كان مُتقدِّمًا في شئون المرأة عنا، وهو الذي علَّمني كيف أُعاكِس المُطلَّقة التي في السطح، بإطفاء نُور السُّلَّم وتقبيلها. ولَمَّا كان ذلك كثيرًا عليَّ، انتظرتُها وهي خارجة من المنزل وأنا في الشباك وقَذفتُها بالماء، وهي حركة عدُوٍّ لا صديق، فمَسحَت قَدَمها بِمِنديلها وواصَلَت السير. نَظرَت إلى أعلى ولِسانُ حالها يقول: هل هكذا يفعل العاشقون؟ ونَدِمتُ وعَرفتُ أنه ليس كذلك تكون المُعاكَسة؛ أي الغزل. وبعد كل فَشلٍ تَرِنُّ في أذني أغنية محمد عبد الوهاب «عاشق الروح» في آخر فيلم «غزل البنات»: «وعشق الروح ما لوش آخر، لكن عشق الجسد فانٍ.» فهل هناك عِشقٌ صادق أم تعويضٌ عن الفشل؟ وقد كان صلاح غَيرَ مُوفَّق في دراسته وليس له في العلم رغبةٌ لأنه هو الذي سيرث أباه في الفُرن. اختلف مع والده مرةً عندما عاتبه أنه ليس ناجحًا مثل مَن تحته، وهم نحن، فسكب على نفسه الجاز فأَشعلَها، ثم أَطفأَته الجيران، وبقي تأثير الحريق في وجهه، وذهب إلى قريبةٍ له في مدخل درب الشرفا حتى يتصالح مع والده. وكان الوالد فُتوَّة، يَدخُل المعارك بالعَصا بين الأُسَر أو الأحياء عندما يبدأ الصراع بين درب الشرفا حيث أسكن والعطوف. وعادةً ما تكون الغارة علينا لأنهم هم الأقوى، قوةً وعددًا، وكما صوَّر نجيب محفوظ في «التوت والنبوت» في الحرافيش. وكانت أخته ليلى جميلةً ذات صَدرٍ بارزٍ يكاد يقَع من بُروزه. وتَثْنِي ظهرها بدعوى التنظيف والكنس.

وكان في وَسَط الحارة امرأةٌ فُتوَّة، نفيسة، يخشاها الجميع، ولم أكن أعرف لماذا؟ وهي طويلةٌ بيضاءُ مثل تحية كاريوكا في فيلم «سمارة» و«عفريت سمارة». في يديها صِيغةٌ من اليد إلى الكوع، تجلس على باب المنزل أكثر مما تعيش في شقتها. وكان في آخر العطفة ميدانٌ مُغلَق، سكانه أكثر رقيًّا، كان لي فيه أصدقاء لم يعيشوا طويلًا في صداقاتهم. وكان جمال إسماعيل في الخديوية الثانوية يأتينا لزيارة فريق التمثيل في خليل أغا الثانوية، وكان أخي أحد أعضائها، يتحدثون عن التمثيل، وكان العزبي يُغنِّي،

واستَمرَّ جمال إسماعيل في التمثيل، وتحوَّلَت الهواية إلى مهنة، أمَّا أخي فاستمر في السلك الجامعي، وكان أبو زهرة مع هذا الفريق، وأنا مثله تركتُ الموسيقى إلى الدراسة.

وكنا ونحن صِغار في سِن ما قبل المدرسة نلعب في الحواري والشوارع. وكانت اللُّعبة المُفضَّلة لدينا في ذلك الوقت «العوَّامة» وتتكون من عمودَين من الخشب؛ واحدٍ أفقي نضع عليه رجلًا والأخرى تدفع بها على الأرض، والثاني رأسي في آخر خشبةٍ أخرى أصغر مثل (الدركسيون) وعجلتَين رولمان بلي؛ الأولى أمامية والثانية خلفية. وإذا كان الطفل ميسور الحال وضع عجلةً أخرى، الأولى يمينًا، والثانية يسارًا. وإذا كان ميسورًا أكثر ربط العمودَين بِمُفصَّلةٍ حديدية تسمح بالتحوُّل يمينًا أو يسارًا. وكان في سطح المنزل الخاصِّ الذي تحته مخازن السحار جَمَلُوناتٌ للضوء مُحمَّلة على عواميدَ خشبية، فكنتُ أخلع عمودَين وبالتالي يكتمل جسم العوامة. وكُنَّا نلعب بها منذ ساعات الفجر الأولى، والشوارع خالية. وفي صباحٍ باكر قام شيخٌ جليل ذو ذَقَن بيضاء وفي يده شيشةٌ من على الكرسي على رصيف المقهى وجرى نحوي وأخذ العوَّامة ورَفعَها ثم ضربها على الأرض فتَفتَّتَت؛ فقد صلَّى الفجر وأراد أن يجلس على المقهى في هدوء ويُدخِّن الشيشة، وهؤلاء الأطفال يُسبِّبون الصَّخَب له. فمُنذُ ذلك الوقت كَرِهتُ المشايخ ونِفاقَهم، والدينَ الذي لا يرحم. وكيف لي أن أُصلح العوَّامة من جديد؟ واللعبة الثانية أن شقَّتنا كان بها غُرفةٌ تُطِل على سطح مخازن السحَّار، فإذا كنا مَيسورِين نلبس قباقيبَ عَجَل ونسير في السطح، وفي وسط العام الدراسي نأخُذ كُتبنا للمذاكرة هناك. وعندما قام الصراع بين الإخوان والثورة في ١٩٥٤م أخفيتُ منشورات الإخوان في إحدى مواسير الحائط حتى اكتَشفَها والدي وأَخذَها وحرقها خوفًا عليَّ، وانتابني حُزنٌ كبير.

وكنا نلعب في الحارة السباق جريًا بالعَرض من شرطي «امسك حرامي»، وهي مسافة لا تتجاوَز خمسة أمتار، وكانت بالنسبة لنا كافيةً للسباق. وفي لعبةٍ أُخرى نقذف بصفيحةٍ إلى أعلى ونَتلقَّفها باليدَين، ومن ينجح في ذلك يكون أبوه مَلِكًا. فَعلتُ ولم يُصبح أبويا مَلِكًا، بل دخلتُ أنا المستشفى لإجراء جراحةٍ عاجلة في الرقَبة ما زال أثرها حتى الآن، في شارع عبد العزيز تحت إدارة وزارة المعارف العمومية وهو الاسم القديم لوزارة التربية والتعليم. أمَّا كرة القدم «الكرة الشراب» فكنتُ أكرهها ولا أُحِب لَعِبها لأنني لم أعلم أين الفن فيها، وأحيانًا يكون الدفع فيها هو الأساس، وأين الحارة التي تغلق نفسها للاعبين؟ ومهما كبِرَت الكرة الشراب فلن تتجاوز قبضة اليد، وليس لدَينا مالٌ لِشراء كرة النفخ، وكانت الخسائر فيها كثيرة؛ الوقوع على الأرض وجروح الركبتَين، ووَلوَلَة الأم،

وقَسمِها أني لن أنزل لِأَلعب في الحارة من جديد، ولكنَّنا كنا نجعلها تحنث بالقسم. ولُعبةٌ أخرى هي نَطُّ الحبل، ولكنها كانت للبنات أَكثرَ مما هي للصِّبية. ولُعبة «السيكة» التي كانت تُرسم على الأرض بالطباشير الأبيض عِدةَ مسافات، ووَضْع قطعةٍ من الطوب في كُل مسافة، ثم القَفز عليها من أجل زحزحة الطوب من خانةٍ إلى أخرى، وتُسمَّى أيضًا «النطَّة». ولم تكن الرياضة أمنية الأطفال في ذلك الوقت.

ثم وَقعَت كَنبةٌ على ساقي فانكَسَر، وتم تجبيره عند برسوم، طبيب الشعب، في ميدان رمسيس. وكانت والدتي تَحمِلني على كتفَيها كالحِصان من باب الشعرية إلى ميدان رمسيس لِتشتري السمك الطازج من رجلٍ مشهور هناك، في الخلفاوي أو الحلفاوي، كان يَقعُد «بِالمِشَنَّة» على الرصيف، وتعود والدتي إلى المنزل، وكنت أستغرب كيف حَملَت هذا الحِمل الثقيل ذَهابًا وإيابًا، وتَحمِل السمَك؟ ولما كبِرتُ عَرفتُ أن ذلك هو إخلاص المرأة المصرية لبيتها.

وكان والدي يُرسِلني إلى مَحل الطرشي بدرب البزازرة أمام جامع البنهاوي لشراء طرشي، وأُوصي البائع بمزيد من ماءِ اللفت، فكنت أذهب بطبقٍ مفتوحٍ وأعود وقد انسَكَبَت منه مُعظَم مياه اللِّفت على الأرض. وفي المرة الثانية أردتُ أن أعرف طعمَ ماءِ اللِّفت هذا الذي يُصِرُّ عليه والدي، فقُمتُ بتذوُّقه بدلًا من انسكابه على الأرض بفعل المشي، فوَجَدتُ طعمه لذيذًا، وذهبتُ إلى الوالد وماء اللِّفت ناقص أيضًا. ثم أرسلني الوالد إلى بائع الطرشي لأقول له إني أتيتُ من طَرَف عم حنفي، فزاده إلى الثُّمَالة. ولم نكن نعرف في ذلك الوقت أن طَبق الشراب في حاجة إلى غطاءٍ لكي يحفظه داخل الإناء.

وأرسلني والدي إلى الكُتَّاب في سن الرابعة لأن الحكومة لا تقبل في المدارس الأولية قبل الخامسة، وكان الكُتَّاب يُسمَّى باسم مدرسة «الشيخ سيد»، ويقع في آخر درب الشرفا، عطفة العبساوي. صالة في الدور الأرضي مفروشة بالحصير، تُستخدَم للصلاة أيضًا. وكانت التكاليف رغيف خبز وطبق مُخلَّل بشرابه أو طبقَ سلطة. وكان التدريس بطبيعة الحال تحفيظ القرآن، وتعليم بعض قواعد اللغة العربية، وعلامات الإعراب. وكان الجلوس على الأرض تربيعًا وحافِين. والأطفال بالجلابيب مثل الشيخ بالجُبَّة والقُفطان والعِمَّة. وكان صوتُ الأطفال جماعيًّا مُرتفعًا حتى يُسمِع الحاضرُ الغائب. وبمجرد أن ينتهي الدرس يُهرَع الأطفال بالخروج إمَّا لِلَّعِب أو إلى أهله. وكانت عيون الشيخ تَروغُ يمينًا ويسارًا إذا ما أَحضَرَت الأُم طفلها بنفسها، وسَلَّمَته للشيخ كأمانةٍ فتقترب من الشيخ أَكثرَ فأَكثر، ولا ينسى الشيخ أن يُبلِغ السلامَ لأُم الطفل مع ابنها في نهاية الأسبوع

أو بدونها. لم أَستسِغ هذه الطريقة، ولم أستطع أن أُكمل الكُتَّاب، ولا طريقة الشيخ في تحفيظ القرآن، ولا العصا (الخرزانة) التي في يده، ولا صَمْتَ الأطفال إلا من صوت ترديدِ آيات القرآن وراءه، ولا هذه العلاقة بين السيد والعبد؛ علاقة العصا. فقَدتُ اللعِب، ولم أجِد شيئًا أفضل منه؛ حارةٌ مسدودة، وعقلٌ شارد، ولكن القلب ما زال ينبض.

وتَروِي الوالدة أنني بعد الطهارة كنتُ كلما أتانا ضيفٌ أرفع الجلباب وأقول له: «أنا اطَّاهرت.» كنت فِرحًا بالحَدَث، وكنتُ أريد أن تُشارك الضيوف فَرحتي، وكان رِباط الشاش ما زال موجودًا، وكنتُ أسمع من يقول: «عيب يا ولد.» ولا أدري من القائل، ولكن لزِقَت في ذهني أن هذه المنطقة عيب أُعرِّيها، وأنني يجب أن أُغطِّيها، وهكذا بَدَأت التفرقة بين مناطق الجسد؛ بين «التابو» الذي يجب أن يختبئ، وباقي مناطق الجسد التي يمكن أن تُعرَّى. ورأيتُ ذلك في غُسل الميت فيما بعدُ، عندما كانوا يُخبِّئون هذه المنطقة بالمِنشَفة.

ولما بلَغتُ الخامسة في ١٩٤٠م انتقَلتُ إلى المدرسة الأولية، مدرسة سليمان جاويش، في شارعٍ موازٍ لدرب الشرفا من ناحية وشارع الحُسينيِّين من ناحيةٍ أخرى، ويفتح على باب الفتوح وشارع المعز لدين الله الفاطمي في وسَط زُقاقٍ ضيق. والمدرسة ذات فناءٍ واسع، وفصولها خَشبيَّة «داير داير» الفناء، والإدارة بعد الباب بِعدَّة سلالم يمينًا ويسارًا. وكان التلاميذ في الفسحة يخرجون من الباب لِيشتَروا الصميط من صابر الذي وضع بِضاعته على صاجٍ أسودَ كبيرٍ على الأرض، والتلاميذ يتسابقون للشراء؛ منهم من يدفع، ومنهم من يتظاهر بالدفع. ولا يستطيع صاحبُ الصاج في الزحام والصرُّاخ أن يضبط كل شيء، كل يدٍ ممدوةٌ إلى صاجه، وأحيانًا أكون واحدًا منهم ما دام الأمر سهلًا. يكفي صاحبَ الصاج أن يجمع التعريفاتِ في حجرِه، وهو كسبان في النهاية. وكانت الغاية من المدرسة ليس التعليم بل الحفاظ على التلاميذ من ألعاب الطريق. فإذا أكمل التلميذ سنوات المدرسة الأولية الخمس فإنه يكون في الطريق إلى المدرسة الأزهرية، وليس الجامعة. وكُنتُ أَلبَس البَدْلة والطَّربوش كي أكون أَفنديًّا، والطَّربوش كان مُغرِيًا كي يكون كرة قدم، فأرجع إلى المنزل والطربوش قد تَمزَّق، فآخذ درسًا في أن الطَّربوش رَمزُ النُّضج والكِبَر، فكيف ألعب به كرة في لُعبة كرة القدم؟ وفَرقٌ بين الطَّربوش المُطبَّق الذي يظهر من خُوصة فتحات القماش الأحمر والطربوش المكويِّ المُستقيمِ جنَباتُه، وأحيانًا تُضاف رابطة العُنق إلى البَدلة حتى تكتمل صورة الأفندي. واكتَشفَت الأُسرة أن عندي قِصَر نظَر لأني لا أرى إلا القريب دون البعيد، وقمتُ بعمل نَظَّارةٍ طبية. وكانت العَدساتُ في ذلك الوقت من الزجاج، ينكسر بسهولةٍ إذا وَقعَتِ النظَّارة على الأرض. ولَّما كنتُ سريعًا ما أَصطدِم بصبيٍّ

آخر لضعف بصري وأنا أجري فتقع النظَّارة على الأرض، ويَنكسِر الزجاج، ويَصرُخ الأهل ليس خوفًا من التكاليف ولكن قد يَدخُل الزجاج في عَيني، ولم أكن أدري ما العملُ لِلجمعِ بين النظَّارة واللَّعِب جريًا واصطدامًا؟ لم يكن هناك تلفزيون في ذلك الوقت، والذي دخل فقط عام ١٩٦٠م كي أَتشبَّه بأَفندِيته. وكُنَّا نذهب إلى بني سويف في الصيف خوفًا من غارات الألمان على القاهرة وأصوات المدافع. ولما تَوفَّت ستي نقلناها إلى مقابرنا في الضفة الأُخرى للنيل. أمَّا خالتي فدُفِنَت في القاهرة في المقابر التي اشتراها أبي، وساعدناه ماليًّا، أخي سيد وأنا، ودُفن فيها، وعليها اسمه حتى الآن حنفي حسانين أحمد. وبها، بالإضافة إلى خالتي، أمي، وحماتي، وشقيقتي فاطمة وزوجها فريد، وأخي سيد، وعلي النجار من أقرباء أمي، ثم أخيرًا زوجة أخي.

ولمَّا كانت المدرسة الأولية طريقًا مسدودًا إلا نحو مدرسة المُعلمِين العليا، ولا تُؤهِّل للثانوية والجامعة، انتقلتُ إلى مدرسة السلحدار الابتدائية في أَوَّل شارع المعز لدين الله الفاطمي من ناحية باب الفتوح، وهو جُزء من السور القديم، وكانت مملوءة بالآثار الإسلامية في النحت، نلعب بها، ولا ندري ما قيمتها، نختبئ وراء رءوس الرخام، وعواميد القصور. بها فضاءٌ فسيح نلعب فيه، وفيها بدأ التعليم. ومُدرِّسون يعطون مجموعاتِ تقوية بدلًا من الدروس الخصوصية بخمسين قرشًا في الشهر. وكنتُ التلميذ الوحيد الذي رفض أَولًا لأنني لا أحتاج. ثانيًا أن الثمن كان خمسين قرشًا، وهو كثيرٌ على مصاريف الأُسرة. أوقفني المدرس ووجهي للحائط عقابًا لي، وكأنني المسئول عن ذلك. كنا نَخرُج كل يوم ١١ فبراير كل عام في طوابير للذهاب إلى قصر عابدين، بقيادة مدرس اللغة العربية أو الدين، بالعِمَّة والقُفطان، جمعًا بين الدين والسياسة بدلًا من الجمع بين الدين والعلم والوطن؛ لِلهُتاف بحياة الملك، وهو النشيد الآتي:

لِـلـمَـلـيـكِ اهـتِـفُـوا   يـا أُسـودَ الـحِـمَـى
لِـلـمَـلـيـك اهـتِـفُـوا   دائـــمًـــا دائـــمَـــا
لِلمليكِ يا بلادي اسعَدِي   لِلمليكِ كُلُّنا نَفتدِي
نَــحــنُ فــي ظِــلِّــهِ   قـد مَـلَـكـنَـا الـزمَـنْ
نَــحــنُ مــن حَــولــهِ   فِــديــةٌ لِــلــوطَــنْ

وكان التلاميذ في ذلك الوقت وفي هذه السن المُبكِّرة يشاركون في المُظاهَرات دون انتظار حتى ما بعد الجامعة لو أمكن الصبر بالرغم من أن لِلصبر حدودًا. وسمِعنا أن في

الجامعة مُظاهراتِ «لجنة الطلبة والعمال» فخرجنا من المدرسة في مُظاهَرة ونحن نهتِف، وذهبنا إلى باب الشعرية حيث كان يسير الترماي، وأَمَرنا السائقَ: «دوِّر يا أسطى.» إلى الجامعة، فذهبنا إلى جامعة القاهرة، وشاركنا في المظاهرات التي فتَح عليها القَصرُ الكوبري، كوبري عباس، فسقَط الطلبة في النيل واستُشهِد البعض الآخر برصاص الجنود، كما هو واضح في بداية فيلم «في بيتنا رجل»، قصة إحسان عبد القدوس. وسمِعنا باستشهاد عمر شاهين وعبد الحكيم الجراحي. وقد سُمِّي مدرجان بآداب القاهرة على اسمَيهِما قبل أن يَتَغيَّرا إلى مجرد أرقام ٧٤، ٧٨ حتى لا يَتذكَّر الطلبة الحركة الوطنية، ومع ذلك النصب التذكاري أمام بوابة جامعة القاهرة الرئيسية، وفي آخر كوبري الجامعة تمثال نهضة مصر. وأخفيتُ ذلك عن الأُسرة، وعُدتُ من نفس الطريق إلى المنزل وكأنني عائد من المدرسة. وكانت هذه أَوَّلَ مرة يكون لي فيها نشاطٌ سياسي في هذه السن المُبكِّرة. وقَضيتُ في مدرسة السلحدار الابتدائية ثلاث سنوات (١٩٤٥–١٩٤٨م).

وفي عام ١٩٤٨م انتقلتُ إلى مدرسة خليل أغا الثانوية بشارع الجيش، وكان بها أيضًا بعد الظهر «مدرسة تحسين الخطوط الملكية» في البدروم. ويُلاحظ أن أسماء المدارس كانت كلها تركية أو مملوكية مثل: سليمان جاويش، السلحدار، خليل أغا. وفيها ازدادت نسبة التعليم والنضج. وكان بها قِسطٌ من الرياضة البدنية، واشتركت في «الجمباز» وأخي سيد في المُصارَعة، كما اشتركت في فرقة الرسم، وكنت أَهوَى رسم «البورتريه» صُوَر الموسيقيِّين، مثل بيتهوفن وشوبان، أو الشعراء، مثل شوقي وحافظ. وكانت طريقتي هي تقسيم الصورة الصغيرة إلى مربعاتٍ أصغر، ثم أبدأ الرسم بتكبيرِ هذه المربعات عشر مراتٍ تقريبًا، ثم أبدأ برسم كل مُربَّع حتى تكتمل الصورة على فرخ ورقٍ كبير. وقد علَّقتُ صُوَر بيتهوفن وشوبان وشوقي وحافظ على حائط غرفتي أنا وأخي سيد، التي كانت تُطِل على السطح. وعندما غادرتُ إلى فرنسا في عام ١٩٥٦م لم أعرف ماذا أفعل بهذه الصور؟ أَتركُها مُعلَّقةً على الحائط أم أَخلعُها وأحتفظ بها في مكانٍ ما؟ السطح وفوق أحد الجَمَلُونات. وفعلتُ، وأَفسَدتُها مثل كل البلي. ويا ليتني احتفظتُ بها في مكانٍ أمينٍ كجزء من الذكريات المُبكِّرة والجلوس على المِنضَدة هذا الوقت الطويل كما فعلتُ ذلك فيما بعدُ من أجل الفلسفة. كان هَمِّي أن آخذ أوراق الأفكار المُتناثِرة التي أُدوِّن فيها أحلامي بمجرد الاستيقاظ! وأخذتُها معي إلى فرنسا عن الفكر والواقع، وتركتُها في حقيبةٍ في غُرفة الحقائب في بيت الطلبة الألمان بالمدينة الجامعية بباريس. كما اشتركتُ في فرقة الموسيقى وأخي في التمثيل مع أبو زهرة. أمَّا جمال إسماعيل فقد كان في المدرسة الخديوية، وكانت

فرقتا التمثيل بالمدرستَين تلتقيان لتكوين فرقةٍ مشتركة. وتعلَّمتُ النوتة والصولفينج. وكنتُ أنا ورفيق العمر محمد وهبي عبد العزيز، الذي أصبح مستشارًا في جامعة الدول العربية، نذهب إلى معهد شفيق للموسيقى في عابدين والملاصق لِسُور القَصر، وكان عم وهبي — وهو عازفُ كمان في فرقة أم كلثوم — يدفع له المصاريف، وأنا لا أستطيع أن أدفع شيئًا ولو خمسين قرشًا في الشهر. وهناك تَعرَّفنا على العلمي عازف الكمان، ثم قدَّم لنا عم وهبي في معهد الموسيقى العربية في شارع رمسيس ببنائه العربي، وكان هناك امتحان قبول في مادتَي العزف والصولفينج، وأوصى عم وهبي المدرس الأرمني على وهبي فنجح، وأنا نجحتُ في العزف ولكني لم أستطع تقليد الأصوات؛ فقد كنت أسمع جيدًا نغمة البيانو ولكني لا أستطيع تقليدها، وذَهبتُ إلى علي إسماعيل لِيوصي عليَّ، ولم أَدرِ إذا كان فعل أم لا. حَزِنتُ انفعالًا، وقد تكون هذه التجربة إحدى علامات الاتجاه كُليةً نحو الفلسفة. وقد تكرر هذا الخيار بين الموسيقى والفلسفة وأنا في فرنسا بتجربةٍ مَرضِيَّة، إرهاق سنتَين بدراسة كِلَيهما واحتمال الإصابة بِالسُّل في الرئتَين. وتَذكَّرتُ ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾. وقد حاولتُ العَدلَ ولكني لم أستطع. وتَذكَّرتُ تجاربَ أخرى دفعتني إلى الفلسفة طبقًا للمثل الشعبي: «أبو بالين كداب» وكان معنا أيضًا المغني الأول العزبي الذي غَنَّى في فرحي، وتردَّدتُ هل أعطيه أجرًا أم لا؟ وإذا أعطيت، خمسة أم ثلاثة جنيهات؟ وكان لدَينا نظام الثقافة بعد أربع سنوات؛ حيث لا تخصُّص، والتوجيهية بعد خمس سنوات؛ حيث يختار الطالب بين ثلاثِ شُعَب: علمي، أو رياضة، أو فلسفة. لم أكن أُفضِّل العلم؛ فهو دراسة للطبيعة. ويبدو أن اتجاهي كان دراسة الإنسان دون أن أعرف. ولَمَّا كان أدبي به شعبتان أدبي رياضة وأدبي فلسفة، وكان العقل أحد مَلَكَات الإنسان، فاخترت أدبي رياضة. ودخل أستاذ الرياضيات، وكان أعرجَ عبوسًا، وملأ السبورة السوداء بِمُعادَلاتٍ بالطباشيرِ الأبيضِ لم أفهم منها شيئًا، فحَوَّلتُ في الحصة الثانية إلى أدبي فلسفة، ثم صَرَّح المُدرِّس بعد ذلك أنه قصَد أن «يُعقِّد» الطلبة؛ فمن كان هشًّا ترك، ومن كان صُلبًا بقي، ثم شرح هذه المُعادَلات التي هَرَّبَتني منه بعد ذلك مُعادلةً معادلة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. وذَهبتُ إلى أدبي واستمعتُ لِأَوَّل مرة إلى الشعر العربي فتَذوَّقتُه. بدأتُ أَتذوَّق الآداب، القصة والرواية والشعر. وكان أستاذ الأدب يتكلَّم من قلبه، يُريد أن يسمعه الطلبة ولا يكتبون وراءه شيئًا. وكان أستاذ الفلسفة عقلانيًّا، يَشرَح تاريخ الفلسفة، ويُعِيرنا كُتب أفلاطون وأرسطو، والبعض مِنَّا لم يشأ أن يُرجِع كتب الأستاذ بعد التخرُّج، فمَنَع تسليم شهادته حتى يُرجِع الكتب، وهو ما حدث بالفعل. وكان مُدرِّس

التاريخ «أبانوب» ضخم الجثة ولكنه حلو الحديث، يبدأ الدرس بآخر نكتة، يضحك هو أولًا قبل التلاميذ حتى يضحكوا ويأخذون عليه. كنا نحبه إنسانيًّا واجتماعيًّا، ولكنَّ التاريخ لدَيه رصدٌ للحوادث، وهو ما لا تشتهيه النفس؛ لأنه خالٍ من النزعة الإنسانية. والعقل والفن — أي الفلسفة والفن — عوَّضاني حنيني للموسيقى، في حين أن هيجل هو الذي اعتبر الأوبرا أعلى الفنون لِجَمعِها بين الشعر والموسيقى. وفي هذه الأيام أُعلن عن مسابقة التوجيهية في الشعب الثلاثة، ومن الأدبي الفلسفة، فدخلتُ المسابقة وكان ترتيبي الأوَّل على القُطر مما شجَّعني على دخول قسم الفلسفة بآداب القاهرة بالجامعة. وأقامت مدرسة خليل أغا الثانوية حفلا لتكريمي، دُعي فيه أستاذ الفلسفة عثمان أمين، وكنتُ أراه بوجهه الضاحك الأشقر، وكان هو الذي وضع سؤال المُسابقة عن مُقارنة الشك بين ديكارت والغزالي. وأحضر مدرس الفلسفة جاتوه وحلوى للمناسبة، وقُمتُ بعزف قطعة من الموسيقى الشرقية أمام الجميع، وسارت شائعاتٌ بأنني أخذتُ ما تبقى من الحلوى في عُلبة الكمان! ولا أدري كيف تدخل الحلوى داخل جراب الكمان وهي موجودة! ووُضِع اسمي في لوحة الشرف مع أوائل الطلَّاب والناجحِين في مسابقة العلوم والرياضيات على مدخل المدرسة بجوار حجرة الناظر. وأخذت مكافأة عشرين جنيهًا وزَّعتُها، خمسًا لوالدي، وخمسًا لإخوتي، واشتريتُ كمانًا بخمسة جنيهات، وساعةً بخمسةٍ أخرى. وكانت الجامعة ما زالت بمصاريفَ إلا للمُتفوِّقِين كما ثَبَت من مسابقة التوجيهية ثم من امتحان الثانوية العامة الذي حَصَلتُ فيه على ٧٧٫٥٪. ثم قامت الثورة في يوليو ١٩٥٢م، وقرَّرَت أن يكون التعليم الجامعي مجانًا مثل التعليم العام الذي قرَّره طه حسين وزيرًا وفديًّا للتعليم بعبارته الشهيرة: «التعليم كالماء والهواء.»

واكتشافي المرأةَ كان تدريجيًّا. البداية بصالحة أخرى في الشباك الذي أمامنا بجمالها وبياضها وكانت لها أولاد، وأكبر مني سنًّا، لكنَّه كان حُب المراهقة. أمَّا التجربة التي هَزَّتني هي تجربة جارتي (الشابَّة) نعيمة بنت الكبابجي الذي على ناصية الشارع البنهاوي ودرب الشرفا. ولم يكن جَزَّارًا باللحم بل كان بائع كبدة يُعِدُّها في المنزل ويَقلِيها في الدُّكَّان فتجلب الزبائن. كانت الشقة السكنية بجوارنا، وقَلْي الكبدة في الحوش فتملأ المنزل كله، وكانت رائحة الثوم تُسيل اللُّعَاب على نقيض الكبدة الإسكندراني المطبوخة والتي لا يمكن التمييز فيها بين المطبوخ والنيئ؛ فكلاهما بدمه. كانت تُساعِد أباها مع أمها في إعداد الكبدة، وكانت الأُم تقوم بكل شيء، وتكون الشابة بمفردها في السكن، وكُنتُ أنا لا أذهب إلى المدرسة لإعدادي مُسابقةَ التوجيهية. وكان هناك شُبَّاك في الحائط

الفاصل أَصعَد إليه لِأُناجيها. لا أدري إن كنت أُحبها أم أُحب صفاتها: البياض، الطول، الحيوية، الابتسامة، وربما لا أدري ما هو الحب إلا إحساسٌ باطني يدفع الإنسان إلى فعلٍ لا إرادي بِصرف النظر عن الخطأ والصواب وبصرف النظر عن الهدف والمستقبل، يرانا الطالع والنازل على السلم ونحن نتناجى، والشبَّاك الآخر الرئيسي بجوار شُبَّاكها نتكلم من خلالهما، ونحن مكشوفان للجار في الحارة ولأبي صلاح صاحب الفُرن الذي فوقنا، وفُرنُه أسفلنا على ناصية درب الشرفا وعطفة العبساوي؛ ففضحنا أنفسنا بأنفسنا إلى أن جاء يومُ زواجِها وانتقالها إلى بيت «العدَل»، غنَّت لي أنها تتركُني على عَينِها. وكان الجيران يُحذِّرونها من «يد الهون» ولم أَفهمِ الرمز وقتها كما يُحرِّم السلفيون الآن، بعضهم وليس كلهم، استعمالَ المِنقار لِتكويرِ الكوسة والبطاطس والباذنجان. وكانت فَترةَ حزنٍ شديد، رَجَف القلب آخر يومٍ لها في المنزل. خَرجتُ معها مرةً واحدة، هي بالملاية اللَّف وأنا بالبدلة والكرافتة يسير كلٌّ منا بجوار الآخر، ووَجهُها في الأرض، وأنا أسمع تعليقات المَارَّة: «مش كده يا أستاذ!» وذهبنا إلى المُصوِّراتي وأخذنا صورةً معًا، وكان هذا أقصى ما يستطيع الحبيبان الغُشم أن يفعلاه في الأحياء الشعبية. عَرفَ ذلك الوالد ومنعني، وقال إنه يخشى على أخواتي مني، وشتَّان بين الموقفَين، الأخت والحبيبة، عشق الروح وعش الجسد. كنت أُحِب الجمال والحيوية والظُّرف؛ أي القدرة على النكات مع المرأة، وأنا فنَّان، رسَّام وموسيقي. أَرسمها وأُلحِّن لها، ولو كُنتُ شاعرًا لَغنَّيتُها في قصيدة حسن ونعيمة. كان مصيري هو مصير نجيب الريحاني ومصيرها مصير أنور وجدي في «غزل البنات».

وكنت قد تَعلَّمتُ وأنا في الثانية الثانوية بعد البلوغ وبطريقةٍ تلقائية عندما احتك القضيب بفخذي فقَذَف، وبَلَّل البنطلون، وشَعَرتُ بِلَذةٍ فائقة. وما جاء مصادفةً تَحوَّل إلى فعلٍ قصديٍّ طَوال مرحلة الثانوية، ثم قرأتُ بعد ذلك عن عيوبها، وتوقَّف بعد مُغادرتي إلى فرنسا بأربع سنواتٍ عام ١٩٦١م عندما أدركتُ أن العمل الطبيعي أفضل من العمل الصناعي؛ فالعمل الطبيعي به أُنسٌ وضَحِك وتَعرُّف على الآخر، في حين أن العمل الاصطناعي خوفٌ ووحدةٌ وتأنيبُ ضمير.

وكان العمل السياسي ما زال مُستمرًّا؛ فقد كانت الأربعينيات هي الثورة الوطنية ضد القصر والإنجليز. وكان الأستاذ علاء مُدرِّس الرياضة البدنية في حَيرةٍ من أَمرِه مع الطلاب في المظاهرة أم مع النظام المدرسي والدفاع عنه؟ كان في مصر في ذلك الوقت أربعةُ تيَّاراتٍ رئيسية: الأول، الوفد وهو التيار الرئيسي الأول، وكان يقود المظاهرات. وكان اليسار

الوفدي قد بدأ في الظهور وبه مصطفى موسى الذي كان يسير في شوارع باب الشعرية يُسلِّم على الناس في انتخابات عام ١٩٥١م، وهذا ما فعله معي وأنا سائرٌ على الرصيف، وتساءلتُ: هل لي هذه الأهمية الكبيرة؟ وهو ما يحدث حتى الآن من المُرشَّحِين بالإعلان عن ذلك تأييدًا لهم. الثاني، الإخوان المسلمون بشعار «الله أكبر ولله الحمد». والثالث، مصر الفتاة وكان مُتَّهمًا بإقصاء خصومه السياسيين عن الحكم. والرابع «حدتو» وهو اختصار للحركة الديمقراطية للتحرُّر الوطني شبه الماركسي الذي كانت تحية كاريوكا عضوًا فيه. وكان الطلبة لا يحبون الوفد لأنه حزب القصور والباشوات والتخلي عن ثورة ١٩١٩م وحادثة ٤ فبراير، ولا يُقدِّرون قيمة أحمد حسين ومصر الفتاة، ويخافون العنف والأعمال السريَّة، وكانوا تحت الفكرة الشائعة بأن الماركسية مادية وإلحاد، ولا تتفق مع المجتمع المصري، فلم يَبقَ لديهم إلا الإخوان المسلمون، فانضمُّوا تحت لوائهم، واستمعوا لِنداءاتهم في المُظاهَرات. وفي باب الشعرية كان هناك سيد جلال مرشَّحًا في انتخابات ١٩٥١م، بنى مستشفى باسمه، ولم يكن وفديًّا بل كان سعديًّا — على ما أَذكُر — مُناهِضًا للوفد، فكنت في صراعٍ أكون مع من ضد من؟ ولماذا عَارَض السعديُّون الوفد؟ هل صراعٌ على السلطة؟ وما عَيبُ يَسارِ الوفد؟ ولم تكن فكرة الائتلاف قد بَزغَت بعدُ. وهنا ظَهَر الإخوان المسلمون وكأنهم المظلَّة الوحيدة للعمل السياسي دون عِلمٍ بالخبايا والصراعات الداخلية والتنظيم السري ومقتل السيد فايز، وكُنا نسمع عنه أنه كان يُمثِّل يسار الإخوان أو على الأَقَل المعارضة العاقلة بوضع قُنبلةٍ على نافذته.

وفي عام ١٩٥١م ونحن على مَشارِف الإخوان بَدأَت حربُ الفدائيِّين في قناة السويس، وتَعرَّف الإخوان على كمال الدين رفعت الذي كان يقود حرب الفدائيِّين، وكان من الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة ١٩٥٢م، وكان الشهداء يُنقَلون من الإسماعيلية للصلاة عليهم في جامع الكخية بميدان الأوبرا، وكان إخوان مدرسة خليل أغا يقودون المسيرة بلباسهم الكاكي والعصا وراء ظهورهم تشبيهًا بالسلاح. وكُنتُ أَسمعُ الناس يهتفون على الجانبَين «حماكم الله»، «حرسكم الله»، فكان ذلك امتدادًا للتعاون بين الإخوان والثورة منذ ١٩٤٨م في فلسطين؛ فليست العلاقة بين الاثنين صفحةً سوداء دائمًا. وكان عمري وقتئذٍ ستة عشر عامًا، وكان المُقاتِلون أنفسهم لا يظهرون، ولم يكن الضباط الأحرار معروفِين في ذلك الوقت. ونمَت فيَّ روح الوطنية استمرارًا للاشتراك — وأنا بمدرسة السلحدار الابتدائية — في مظاهرات جامعة القاهرة مع لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦م. وفي يناير ١٩٥١م وقع حريق القاهرة، ولم أكن أفهم معنى الحدث، لماذا؟ وما الهدف؟ هل ثورةٌ أم فوضى

كما يُقال الآن؟ هل نضالٌ وطني أم «انتفاضة حرامية» كما وُصِفَت — فيما بعدُ بربع قرنٍ — انتفاضة يناير ١٩٧٧م ضد غَلاء الأسعار؟ هل لإقالة حكومة الوفد التي تُناضِل ضد القصر والإنجليز، من تدبير القصر والمعارضة؟ لم يكن هناك تلفزيون في ذلك الوقت كي أراها، ولكني نزلتُ شارع الجيش حتى ميدان الأوبرا سيرًا على الأقدام؛ فقد تَعطَّلَتِ المواصلات، ورأيتُ فندق الكونتنتال وهو يحترق، والناس تجري، معظمهم بجلابيب، وتساءلتُ: شعب أم لصوص؟ مع الشعب أم ضده؟ ولم أكن أفهم في التحليل السياسي كما يَحدُث الآن.

وفي صيف ١٩٥٢م في ٢٣ يوليو انقَلبَتِ الموازين، واندَلعَتِ الثورة المصرية، وكنا في بداية الصيف. وظهر لنا محمد نجيب زعيمًا وطنيًّا مصريًّا سودانيًّا، وحوله مجموعةٌ من الضباط الأحرار، فانتهت الحيرة بين التيارات السياسية الأربعة، وانضم الجميع تقريبًا إلى الثورة خاصة وأن بياناتها الأولى تتحدث عن القضاء على الاستعمار والإقطاع والملكية والتحقيق في اغتيال حسن البنا، وإعداد جيشٍ قوي، وإقامة حياةٍ ديمقراطية سليمة، فانضم الجميع إليها. وكان خطابه الأخير يتحدث عن وحدة الأمة الإسلامية وليس فقط وحدة مصر والسودان. وكان الإخوان مع الثورة في البداية لأنها أبقت عليهم، ولم تَحُلَّهم كما حلَّت باقي الأحزاب خاصة الوفد حتى لا يكون خَصمًا للثورة المباركة. وجاء نجيب إلى جامعة القاهرة، وأَلقَى خطابًا دعا فيه إلى الوحدة الإسلامية الجامعة، فضَجَّت القاعة بالتهليل والتكبير. وكان بجواره أو وراءه قليلًا ضابطٌ واضع يدَيه على صَدره، وهو يرى هذا المنظر ولا يُشارك في الإعجاب أو التصفيق أو يُحيِّي الطلاب، عرفنا بعده أنه عبد الناصر الذي استطاع تصفية مُعارِضيه من الضباط الأحرار، بما فيهم الإخوان، مع أنه كان قد جعل رشاد مهنَّا، وهو من الإخوان، وصيًّا على العرش. وكان أعضاء مجلس قيادة الثورة اثني عَشَر، نصفهم من الإخوان مثل كمال الدين حسين الذي عُيِّن وزيرًا للتربية والتعليم وصاحب شعار «مدرستان في يومٍ واحد»، ثم استقال عندما وجد عبد الناصر ينفرد بالحكم. وجاءت مأساة ١٩٥٤م، واتهام الإخوان بمحاولة اغتيال عبد الناصر بعد أن أَطلَق أحد أعضائهم في شعبة إمبابة النار عليه وهو يخطب في المنشية مُتطوِّعًا بنفسه دون أخذ أَمرٍ مُباشرٍ من مرشد الجماعة حسن الهضيبي والذي كان ضد استعمال العنف، فحُلَّت الجماعة، وفُكَّ التنظيم السري لعبد الرحمن السندي، وقُبِض على معظم قيادات الإخوان بمن فيهم المرشد العام وأعضاء مكتب الإرشاد وسيد قطب، وحُوكِموا أمام مَحكمة الثورة، وهي مَحكمةٌ عسكرية، إمَّا بالإعدام مثل المُفكِّر القانوني المستشار عبد القادر عودة

صاحب «التشريع الجنائي الإسلامي»، وكانت كل جريمته أنه استقبل المُتظاهِرين في ميدان عابدين، ورفع قميصَين مُلطخَين بالدماء تنديدًا بهذا الفعل الوحشي. وكان حسن الشافعي أحد أعضائها وبرياسة جمال سالم، وما زال الشافعي يَتهرَّب من هذه الذكريات الأليمة.

وفي السنة الثانية شاركتُ في مظاهرات ١٩٥٤م بعد أن كان عبد الناصر قد وقَّع مع بريطانيا اتفاقية الجلاء التي تَخرُج بريطانيا طبقًا لها من قاعدة التل الكبير ومن منطقة القناة، وتُجلي معسكرها الأحمر على ضفاف النيل مكان الجامعة العربية حاليًّا، ولكنها تسمح بالعودة إلى مصر في حالة «الضرورة القصوى»، خطوة إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف. وما زِلتُ أَذكُر الشهيد عبد القادر عودة وهو يَهزُّ قميصًا مُلطَّخًا بالدماء من شُرفة عابدين قائلًا إن هذه هي أخلاقهم. كنا نهتف في المُظاهَرات: «يا جمال للصبر حدود.» وأَتذكَّر أغنية أم كلثوم «للصبر حدود»، وفيما بعد قَرأتُ آية ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾. وكان هذا هو أحد الدوافع التي جعلتني أتحدَّث عن ذلك في «من الفَناء إلى البَقاء». وقد اختفيتُ في فندق سيمراميس الذي كان يُطل على ميدان التحرير الذي كان قبل الثورة يُسمَّى ميدان الإسماعيلية نسبة إلى الخديوي إسماعيل في القاهرة الخديوية، وسط البلد. وفَرِحنا بالثورة وبقوانين الإصلاح الزراعي، والقضاء على الإقطاع، وتحرير الفلاح، وإعطاء كل فلاح خمسة فدادين مِلكًا له والقضاء على الملكيات الكبيرة وأَوَّلُها أراضي القصر وأَبعَديَّات الباشوات التي كان يسير فيها القطار بالساعات، مجتمع النصف في المائة. وكان القصد ليس فقط تمليك الفلاح الأرض بل تحرير الفلاح من عبوديته للباشا والمَلِك عن طريق مِلكية الأرض. فإذا قيل لقد تفتَّت الملكية وأصبح من الصعب «ميكنة» الزراعة قيل إن هناك الجمعيات التعاونية التي نَشأَت من أجل ذلك. وقرَّرنا أنا وبعض الأصدقاء: عبد المحسن حسين عبد الله الذي أصبح طبيب عظام وزوجًا لأختي علية، محمد وهبي عبد العزيز صديق العمر من الجامعة العربية، العطار أستاذ الرياضة البدنية، فيما بعدُ، الذهاب من القاهرة إلى الإسكندرية سيرًا على الأقدام، نرى الريف قاع المجتمع، والفلاح عماده. واتفقنا على أن المبيت في مَقارِّ هيئة التحرير، التنظيم السياسي الجديد للثورة والذي طلب عبد الناصر من سيد قطب أن يرأسه فرفض. وأَخَذ كلٌّ منا حقيبةً صغيرة فوق ظهره، وكانت أول محطة بنها، وسألنا عن مقر هيئة التحرير، فأشاروا إلى بدروم عليه يافطة «هيئة التحرير» تحوط به المياه الطافحة، حتى جاء رجل، وحَسِب أننا من الحكومة فارتعَد، وطمأنَّاه أننا لسنا من الحكومة بل طالِبو معرفة بأحوال الريف حُبًّا في الثورة، ونمنا الليلة على الأرض، ولم نجد أحدًا نُحادثه أو نسأله عن شعور الفلاحِين بعد الثورة. وفي الصباح استَأنفْنا

السير حتى طنطا، وسَألْنا نفسِ الشيء: أين مَقرُّ هيئة التحرير؟ فأشاروا علينا بدورٍ أَوَّل في مبنًى فارغ ليس به أَحدٌ إلا اليافطة. واستأنفنا السير في اليوم الثالث من طنطا إلى كفر الزيات، وهنا أشاروا علينا بمصنع زيت وصاحبه بلا يافطة. ولَّما ظن أننا من الثوَّار انتابه الفزع والفرح في آنٍ واحد، وأمر بالكباب، وكان يُسمَّى ناشد، وطلب مِنَّا أن نستريح ليلةً لدَيه بدلًا من الاستئناف إلى كفر الدوار ثم إلى دمنهور، فوافقنا لإجهادنا، وقلنا له إننا سنُخطِر القيادة في مصر بحسن الاستقبال حتى تتأكَّد رياسته لهيئة التحرير، ثم صعوده بعد ذلك إلى أعلى سياسيًّا. واستأنفْنا السير إلى دمنهور، وهناك أَحسَسنا بالتعب بالفعل، وبَدأَت أقدامنا تلتهب، ومع ذلك وصلنا إلى الإسكندرية، وذهبنا إلى هيئة التحرير في ميدان المنشية، فوَجَدنا أخا عبد الحكيم عامر، فرَحَّب بنا، وتركنا ننام في شُرفة ميدان المنشية الذي تمَّت فيه محاولة اغتيال عبد الناصر. وبعد الاستراحة عدة أيام، أَخَذْنا القطار عائِدين إلى القاهرة، وكانت ذِكرى علاقة التنظيم السياسي الذي لا وجود له بالشعب الذي لا يعرف عن هيئة التحرير شيئًا، والدولة التي لا تعبأ بشيء. وعلمنا في هذه السن المبكرة أنه لا يُمكِن بناء تنظيمٍ سياسي من فوق على عكس الإخوان أو حتى قيام نخبةٍ عسكرية بالثورة.

وكنتُ أذهب إلى شعبة الإخوان بباب الشعرية مساءً بين الحين والآخر، ثم تَعلَّمتُ كيف أذهب إلى المركز العام بالحلمية الذي أصبح الآن قسم الدرب الأحمر. وهناك تَعرَّفتُ على سيد قطب وسألتُه أنني أريد أن أحول الإسلام إلى منهاجٍ إسلاميٍّ عام، فنصحني بقراءة أبا الأعلى المودودي. وتَعرَّفت أيضًا على علال الفاسي الزعيم والمُفكِّر المغربي، وسَمِعتُه بلهجته المغربية، ورأيته بلباسه المغربي. وكانت المحاضرة الأسبوعية كل يومِ ثُلاثاء، وكنتُ صغيرًا، وكانوا كِبارًا. وكنتُ وأنا ذاهبٌ إلى الشعبة بباب الشعرية أَحمِل كَماني معي فيقول لي أَحَد الإخوة: ألا تعلم يا أخ حسن أن الموسيقى حرام؟ كيف حرام وهناك موسيقى القرآن؟ وقد استقبل الأنصارُ المُهاجِرين بالدفوف والغناء كما حفِظنا ونحن صغار، وكما يُنشَد في الأفلام المصرية:

طلَع البَدر علَينا من ثنايات الوداعْ
وَجَب الشكرُ علَينا ما دعَا لله داعْ
أَيُّها المبعوثُ فينا جِئتَ بالأَمرِ المُطاعْ
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

ولَّما قامت ثورة مصدق عام ١٩٥٣م ضد الشاه وأمريكا لتأميم البترول، وهَربَ الشاه، اعترض الإخوان في شعبة باب الشعرية وهاجموا مصدق، ووصفوه بأنه شيوعي، وأيَّدوا آية الله الكاشاني صديق الشاه، وعلَّقوا على جريدة الحائط الهجوم على مصدق ومَدْح الكاشاني، فغَضِبتُ وطلَبتُ الكلمة بأن هذا اتجاهٌ يميني، وأن الإسلام مع التأميم وضد حكم الملوك، وأن الأفضل جعلُ الشِّعار كتابًا وقلمَين وليس مصحفًا وسيفَين؛ فالمصحف والسيفان دعوة للقتال، والكتاب والقلمان دعوةٌ للعلم.

الفصل الثاني

التعليم الجامعي (١٩٥٢–١٩٥٦م)

وأُعلِن عن مجانية التعليم في الجامعة، فحَصَلتُ على المجانية في الجامعة لثلاثة أسباب: الأول، مجموعي في التوجيهية كان ٧٧٫٥٪ أي فوق السبعين مما يُؤهِّل للجامعة. والثاني، أنني كنت الأول على القُطر في مسابقة الفلسفة التي تُؤهِّل للمجَّانية. والثالث، قرار الثورة بمجانية التعليم الجامعي أُسوةً بالتعليم العام. ولم يكن هناك تَردُّدٌ في الالتحاق بكلية الآداب، قسم الفلسفة، وكان قسمًا واحدًا مع علم النفس والاجتماع في السنتَين الأولى والثانية، ثم انفصل الاجتماع عن الفلسفة بعد السنة الأولى، ثم انفصل علم النفس عن الفلسفة ونحن في السنة الثالثة. وبقِي كلا العلمين كمُقرَّرَين دراسيَّين بحيث يُدرَّس علم الاجتماع في السنة الثانية وعلم النفس في السنة الرابعة. ولم يُخبرني أحد من أساتذة علم الاجتماع وعلم النفس أو حتى الفلسفة حتى انفصال الفلسفة في السنة الثالثة عن القسمَين الآخرَين، ربما لأن القرار لم يكن قد اتُّخِذ بعدُ. وهنا استرعي انتباهي عثمان أمين الذي كان يُدرِّس الفلسفة الحديثة خاصة ديكارت، وكانت طريقته التعليق على ديكارت وتطبيقه على الواقع العربي المعاصر، وكان يقول «بين قوسين» كان ضاحكًا مبتسمًا، يُركِّز على «مقال في المنهج» و«التأمُّلات في الفلسفة الأولى»، وفي الفصل الدراسي الثاني كانط. وكان يُطيل في شرح معنى كلمة ترنسِندِنتال والفلسفة الترنسِندِنتاليَّة، والتقابُل بين البَعدي والقَبلي. وفي «نقد العقل العملي» كان يُركِّز على الواجب والأخلاق عند كانط، وكناقدٍ فني في «نقد مَلَكة الحكم». في السنة الثانية في علم الأخلاق، ويقوم بتدريسه توفيق الطويل الأستاذ الثاني الذي استرعى الانتباه من على المنصَّة، بينما عثمان أمين كان يقف في أسفلها في منتصف القاعة، يُدرِّس واقفًا وسائرًا على الأقدام، ينقد الأخلاق الوضعية بجميع أنواعها، ويدافع عن الأخلاق المثالية بجميع أنواعها وفي

مُقدِّمتها كانط. وكان يسمح بالاختلاف في الرأي وتبادُل وجهات النظر، وإذا قرَّر كتاباتٍ في الفلسفة الخُلقية فإنه يطلب قراءته ومناقشته بابًا بابًا أو فصلًا فصلًا في المُدرَّج.

وكانت الجامعة بالنسبة لي عالمًا جديدًا، سواءٌ من حيث العلاقات الاجتماعية المفتوحة أو من حيث التعليم الذي كان يتراوح بين الإملاء والكتب المُقرَّرة من ناحية والتفكير الحر دون إملاء أو تقريرِ كتابٍ من ناحيةٍ أخرى، وهم غالبًا من الشبَّان، الجيل الجديد؛ مثل أستاذ الاجتماع الذي كان يرتجل وُيناقش، وكان ماركسيًّا يُسمَّى شريف، وتم تطهيره من الجامعة مثل محمود أمين العالم، ولويس عوض، وعبد العظيم أنيس، أو الإخوان مثل توفيق الشاوي من الحقوق في أزمة مارس ١٩٥٤م. وكان يُدرِّس واقفًا أيضًا زكريا إبراهيم الذي عاد من فرنسا عام ١٩٥٥م، وفي صوته بحَّةٌ أو انسدادٌ سرعان ما ينفتح. وكان السؤال الباطني الذي يدور في نفسي: وما عيب الجمع بين العلم والأيديولوجيا، يسارية أو إسلامية؟ وهل ينفع تدريس العلوم الإنسانية كالاجتماع والقانون والفلسفة دون أيديولوجيا؟ وما العَيب إذا ما أَدَّت الأيديولوجيا إلى العمل السياسي؟ وما العيب في أن يسمع الطالب أيديولوجياتٍ مختلفة ويُفكِّر فيها بدلًا من أن يحفظ كتابًا مُقرَّرًا؟

في السنة الأولى كُنَّا في مدرج ٧٤ أو ٧٨، مُدرَّجٌ كبير مُتدرِّج مَهيب جدير بالجامعة، ومنصَّةٌ طويلة عريضة تَضطَرُّ الأستاذ المُفكِّر أن يقوم وراءها، ويتمشى وهو يُلقي الدرس. أمَّا الأستاذ الذي يُملي فيكفيه الجلوس؛ فضَعف الجسَد من ضَعف العقل. وكانت التقاليد لا تسمح بالاختلاط الكلي؛ فالطالبات في ناحية، والطلبة في ناحيةٍ أخرى، ومن يُخِل بالتقاليد يُنظر إليه على أنه يَتَحرَّش بالبنات أو إليها أنها تَتَحرَّش بالصبيان. وكان أستاذ الاجتماع أحمد الخشاب شابًّا أبيضَ قصيرًا عازبًا يُملي ببطء، ويكتب الطلبة والطالبات وراءه، والكل سعيد. وكان ينظر بعين الإعجاب إلى فتاةٍ بيضاءَ جميلة اسمُها إيفون، باستثناء بعض المُراسَلات العَلَنية، حادَثَها مرةً عَلنًا؛ قال لها بحنانٍ بالغ: «اسكتي يا إيفون.» فردَّت عليه بدلال: «مش أنا يا أستاذ.» بالنسبة لي كانت حُبًّا بلا رُوح في حين أن مُواصَفاتها كانت تجمع بين الروح والجسد معًا وهي الصفات التي أُحِبها. وتساءَلْتُ: ماذا كان جمال حواء؟ وهل أُغرِم بها آدمُ وهي الوحيدة الموجودة على الساحة ولم يُقارِن بينها وبين غيرها حتى يختارها، أم إنها كانت مفروضة عليه؟ وكانت هناك فتاةٌ فلسطينية طويلة بيضاء، بنت عم الأولى، ذات وجهٍ مُشرق وصَدرٍ بارز، ولها ضحكةٌ أنثوية لدرجة أنني تساءلتُ فيما بعدُ: هل أحببتُ الذات أم الصفات كما تَساءَل علماء الكلام والصوفية بالنسبة للذات الإلهية؟ ولما سألتُ عرفت أنها مسيحيةٌ من فلسطين،

فأَهديتُها في عيد ميلاد السيد المسيح نُسخةً من كتاب «عبقرية المسيح» للعقَّاد مع إهداء فأَرجعَته لي مع صديقٍ كنت أجلس معه مع قَطعِ مُربَّع الورقة الأُولى التي عليها الإهداء، فحزِنتُ؛ فإلى هذا الحد كان البُعد ولا أقول الكراهية. حاوَلتُ فلم أُفلِح، كانت مُتكبِّرة، تعرف قيمة نفسها، شغلت قلبي، ولكن كيف الوصول إليها وكأنها كانت تهربُ كلما اقترَبتُ. وكان يأتيها قريب أو خطيب من كلية الحقوق ليصاحبها؛ فقلبها مشغول، فتَدبُّ الغَيرة منه، كانت أقرب إلى الصمت منها إلى الكلام. وبعد أن انفصل القسمان، الفلسفة والاجتماع، في السنة الثانية لم أعُد أراها كثيرًا، وكانت كلما رأتني فرَّت، لا أدري ما السبب: هل كراهية لي، أم لا تعرفني، أم لأنها مخطوبة لزميلها أو قريبها أو حبيبها الحقوقي، أم للتقاليد الاجتماعية؟ وفي السنة الرابعة علمت أنها النهاية؛ فستُغادر إلى فلسطين وتتزوج هناك، وأُغادِر أنا إلى فرنسا، وتنتهي قصة هذا الحُب الصامت. وبعد خمسين عامًا كنت بِعَمَّان وعَرفَت إحدى صديقاتي الأردنيات أنها هنا، فدَعَتها إلى المقهى، أتت لحظاتٍ في المقهى ومعها زوجها، مع أني كنت أُعِدُّ قصة حياتي منذ أن افترقنا؛ فلا خوف مني. وهَربَت كالعادة وهي تنظُر إلى الوراء بأن هذا موضوعٌ انتهى، وأنا أنظر إلى الأمام بأن حُبَّ وعِشق الروح لا ينتهي كما غنَّى عبد الوهاب في غزل البنات: «وحب الروح ما لوش آخر لكن عشق الجسد فانٍ.» ثم انتهى كل شيءٍ في زحمة الحياة التي هي أَوسعُ كثيرًا من دائرة الحب كما تُصوِّر الأفلام المصرية.

وكانت مجموعات الإخوان تقعُد في حلقاتٍ على الحشيش الأخضر في حَرَم الجامعة قبل أن تُحاط بِسياجٍ حديدي كما هو الحال الآن، يتدارسون، وكان يمر عليهم حسن دوح خطيب الجامعة المُفوَّه، ويُلقي التحية، وبالمثل كان عبد المنعم أبو الفتوح الذي أصبح مُرشَّحًا رئاسيًّا منذ سِنين. وفي يومٍ داخل الحرم الجامعي انقَلبَت سيارةٌ مشتعلة نارًا، ولا أدري إذا كانت سيارة الأمن الذي كان لا يُسمَح له بدخول حرم الجامعة أو سيارة الإخوان بها نواب صفوي زعيم حركة فدائيان إسلام الإيرانية، وهو تنظيمٌ ثوري سابق بإيران على الثورة الإيرانية في فبراير ١٩٧٩م، فأدركتُ منذ البداية العلاقة بين الإخوان والعنف كما رأيتُ، وليس كما سَمِعتُ، فتراجعتُ قليلًا لأن حَرْقَ عَربةٍ داخل حرم الجامعة لا يدخل ضمن النشاط الفِكري لِلحَرَم. وقُبِض على كل زُملائي الإخوان بالجامعة؛ منهم فلسطينيٌّ في قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، وقُضِي على مُستقبَله بعد أن أَخَذ مُؤبَّدًا لاشتراكِه في المُظاهَرة، ولم أَرَه حتى الآن، ولا أدري إن كان حيًّا

أو ميتًا. وتساءلتُ: لماذا لم يُقبَض عليَّ أنا أيضًا؟ صحيحٌ أنني لم أكن نشِطًا إلى هذا الحد، واختَرتُ الإخوان اختيارًا فكريًّا أكثر منه سياسيًّا. كان هناك ضابطان بالكلية: الأول مُبتسِمٌ أبيض البشرة، طويل ونحيف نسبيًّا يُصادِق الطلاب ليأخذ منهم المعلومات عن زملائهم بدافع الصداقة والحِماية. والثاني أَسمَرُ عَبوسُ الوجه، مُكفهِرٌّ، مملوء وقصير يُخبِرنا الأول عنه أنه خَطرٌ على أمن الطلاب، ومن الأفضل أن يكونوا ضِدَّه، وهو يُساعِدهم في القبض عليهم. وأخبرني الأول أنهم بحثوا عني، واقتفَوا أَثَري، وتَتبَّعوا حَركاتي وسَكناتي، فوجدوني إخوانيًّا مُسالِمًا، ولستُ خطرًا، وأن جمع التبرُّعات لِأُسَرِ الشهداء والمُعتقَلِين ليس عملًا مُضادًّا لأمن الدولة بل إنه يُخفِّف عنهم هذا العبء. هذه رواية. وافتراضٌ آخرُ أنهم لم يقبضوا عليَّ لأن أخي من الضبَّاط الاحتياط؛ ومن أجل بَسالته «وعشان خطره» تُرِكتُ حُرًّا بشرط ألا أعود إلى المُظاهَرات من جديد. وبالفعل لم تكن هناك مظاهرات حتى عام ١٩٥٦م سنة التخرُّج والمغادرة إلى فرنسا بحرًا. وظَلَلتُ صامتًا، كاتمًا الخوف في قلبي وفي سلوكي، ومُقسِّمًا العالَم إلى أبيضَ وأسود، حقٍّ وباطل، صوابٍ وخطأ، كما فعل سيد قطب في مرحلته الأخيرة بعد أن كان شاعرًا، قصاصًا ناقدًا أدبيًّا ثم إسلاميًّا اشتراكيًّا ثم إسلاميًّا إخوانيًّا.

لقد كان الجو مُتوتِّرًا بين الإخوان والثورة على مدى سنتَين منذ اندلاع الثورة. وحَدَث الانفجار في عام ١٩٥٤م بمناسبة رفض الإخوان المُعاهَدة التي عَقدَها عبد الناصر مع بريطانيا بالانسحاب من قناة السويس ولكن لها الحق في العودة في حالة «الضرورة القصوى». وكان خوف القوى الوطنية من عبارة «الضرورة القصوى» التي يمكن أن يكون لها عشراتُ التفسيرات؛ فهو جلاءٌ مشروط. كنت أُوزِّع نَقدَ المعاهدة في الجامعة، وفي مظاهراتٍ كُبرى خَرجَت من الجامعة إلى كوبري الجامعة وهي تهتف بسقوط اتفاقية الجلاء. ويَهتِف الطلبة السودانيون يسقط «صلاح الرجَّاص» ويقصدون صلاح سالم من أعضاء مجلس قيادة الثورة، والذي هو اسمُه على طريقٍ جديد يربط بين شمال القاهرة وجنوبها، والذي يُعزى إليه فصل السودان عن مصر، وجنوب الوادي عن شماله كما فُصل أخيرًا جنوب السودان عن شماله. وسُمي «رجَّاص»؛ لأنه لبس سُودانيًّا، وركب حِصانًا يرقص على إيقاع الدفوف. وكان عبد الناصر وزيرًا للداخلية في ذلك الوقت وعَينُه على السلطة فأَمَر بإطلاق النار على الطلبة المُتظاهِرين على كوبري الجامعة فتَفرَّقوا وأعادوا التجمع في ميدان عابدين، وكان ذلك عام ١٩٥٤م، وكُنتُ في السنة الثانية. وشاركتُ في مظاهرات ١٩٥٤م بعد أن كان عبد الناصر قد وَقَّع مع بريطانيا اتفاقية

الجلاء التي تَخرُج بريطانيا طِبقًا لها من قاعدة التل الكبير ومن مَنطِقة القناة، وتُجلي معسكرها الأحمر على ضفاف النيل مكان الجامعة العربية الحالي. ومع ذلك تسمح بالعودة إلى مصر في حالة «الضرورة القصوى»، خطوة إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف.

كنت فرحا بالجامعة ليس فقط بما يُلقَى في المُحاضَرات التي كان يغلُب عليها الطابع المدرسي، ولكن أيضًا بالنقاشات خارجها، على الحشائش في الحرم الجامعي، هايد بارك أخرى. وإذا كان فكري بارزًا في المُحاضَرات فإنه يُستحسن في مناقشات الحرم الجامعي. وظلَلتُ أُفكِّر كيف تكون حديقة الأورمان ساحةً يتناقش فيها الطلاب إن عَزَّ على الجامعة ذلك، كيف تكون «هايد بارك» القاهرة وكلها أراضي فاطمة إسماعيل بما فيها الجامعة وحديقة الحيوان؟

ومُنذ ذلك الوقت فُرض نظام الفصلَين الدراسيَّين في العام، ليس لأسبابٍ علمية بل حتى ينشغل الطلبة في المُذاكَرة ولا يكون لديهم وقتٌ لِلمُظاهَرات. ومع ذلك، ظلَّت عقلية الفصل الدراسي الواحد موجودة، نبدأ في أكتوبر، وتنتظم الدراسة في نوفمبر حتى مايو في السنة الثالثة باستثناء إجازة نصف السنة. في حين أن نظام الفَصلَين يقتضي أن تبدأ الدراسة في أوائل سبتمبر، وتتوقَّف عند عيد الميلاد ورأس السنة، ثم يبدأ الفصل الدراسي الثاني في يناير، وينتهي في يونيو، أربعة أشهر كل فصلٍ دراسي على الأقل؛ أي ستة عشر أسبوعًا، فأضر نظام الفصلَين بالعلم، ولم يمنع المُظاهَرات؛ فالوطن أحيانًا تكون له الأولوية على العلم، بدليل شُهداء كوبري عباس، وكما يحدث الآن بتطبيق نظام الساعات المعتمدة أو اختيار الطالب بين الدروس الإجبارية والاختيارية؛ فيصبح هم الطالب تجميع درجات A. ويكاد الاختياري لا يَحضُر فيه الطالب لأنه اختياري ولا الأستاذ؛ فكيف يقود سيارته من مدينة ٦ أكتوبر حتى الجامعة لطالبٍ أو طالبَين وقد تعود على القاعة المملوءة ولو نِسبيًّا لتوزيع كتابه. وفي الإجباري لا يَتَورَّع الأستاذ عن توزيع الكتاب المُقرَّر. ويبقى الحال هكذا لمدة سنتَين عليها ٦٠٪ من درجة الماجستير أو الدكتوراه، ثم يكتب رسالةً صغيرة عليها ٤٠٪ معظمها معلوماتٌ منقولة من الإنترنت.

خَرجتُ من السنة الأولى خاوي الوفاض، لم أتعلَّم شيئًا. وفي السنة الثانية نظرًا لغياب زكي نجيب محمود في أمريكا درَّس نيابة عنه مصطفى سويف المنطق. ولما كان أستاذًا لعلم النفس وليس المنطق إلا أنه اختار موضوعًا هزَّني لغويًّا وهو «المفاهيم العلمية وضرورة الدقة في استخدامها» مثل الفرق بين التقدُّم والتطور، وكان يرتجل. كان جادًّا عَبوسًا لِدرجة أن أحدًا لا يستطيع أن يمزح معه، وكان يمشي في الطرقات

مُستكبِرًا مع أنه لم يكن قد أخذ الدكتوراه بعدُ. وقد تُوفِّي منذ عامَين، وحضر العَزاء كثيرٌ من طلابه ومُريدِيه. وهو الذي بنى أكاديمية الفنون، وقام باختباراتٍ نفسية لِلقَبول، وهو مؤسس علم النفس الاجتماعي. أمَّا درس الفلسفة الإسلامية فكان يُلقيه علينا — وهو جالس — أحمد فؤاد الأهواني، وهو دَرسٌ تقليدي في الفلسفة الإسلامية، يرُكِّز على الفلسفة بالمعنى الدقيق، الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد. كان ضاحكًا مبتسمًا اجتماعيًّا «ابن نكتة»، ولكنه لم يُثِر في ذهني أي مشكلات، ولا رَبطَ بين الماضي والحاضر. كان قريبًا لعيسى البابي الحلبي صاحب المكتبة الشهيرة بالأزهر، يُمدُّه بالنصوص التقليدية، وقريبًا من الأب جورج قنواتي، وهو من نفس الروح، وهي روح يوسف كرم التي كتب بها «تاريخ الفلسفة اليونانية»، و«تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط»، و«تاريخ الفلسفة الحديثة»، روح جيلسون؛ فالفلسفة عمل الفلاسفة، ولكل فيلسوفٍ منهج، مع أن جيلسون قد تجاوَزَ هذا المنهج بكتاب «روح الفلسفة في العصر الوسيط»، ولم تكن هناك فلسفةٌ مسيحية أو يهودية، ولم تُؤثِّر في أحد من أساتذة الفلسفة تأثيرًا كبيرًا، وهي نظرةٌ استشراقيةٌ للفلسفة الإسلامية. كانت روحه أقرب إلى وزارة التربية والتعليم؛ فقد كانت رسالته للدكتوراه «التعليم عند القابسي» بين التعليم والتراث الإسلامي.

وكنت طالبَ قِسم امتياز، وهو القسم الذي يدخله الطلبة الحاصلون على جيد جدًّا أو أكثر في السنة الثانية، ويأخذون فيه مادةً زائدة، ويكتبون بحثًا، وكان لا يتجاوز عددهم طالبَين، وأحيانًا لا أحد. فإذا حافَظَ عليه الطالب بعد الحصول عليه في السنوات الثالثة والرابعة يُعِدُّ الماجستير مُباشرةً دون سنةٍ تمهيدية، ويكون مُرشَّحًا كي يكون مُعيدًا بالقسم، وهو شيءٌ مهيب كالضابط في الجيش أو الشرطة، وهو مثل أمين الشرطة اليوم.

وفي السنة الثالثة بدَأت اليقظة الفلسفية مع عثمان أمين الذي كان يعشق الفلسفة ويعيشها، وكان يبتسم ويريد أن يُوصل الفلسفة للطلاب بسهولة ويسر. كان حبيبه ديكارت، وترجم له «التأملات في الفلسفة الأولى»، وكان «مقال في المنهج» قد تُرجم من قبلُ، وكذلك «مبادئ الفلسفة»، وكان يطيل في شرح النصوص، ويُطبِّقها على الواقع العربي، وهو ما كان يُسمِّيه «بين قوسَين»؛ أي خارج الموضوع، بينما هو في صلب الموضوع. وفي الفصل الدراسي الثاني كان يُدرِّس كانط، ويُطيل النظر، ويشرح ويضرب الأمثلة في معنى «الترنسِندِنتال» في مقابل «الترنسِدِنت». وهو ما سمَّاه فيما بعدُ في فلسفته الخاصة «الجوَّانية» في مقابل «البرَّانية»، العقلي في مقابل الحسي، القلب في مقابل

العقل، الباطن في مقابل الظاهر. كان يُركِّز على «نقد العقل الخالص» لكانط وبدرجةٍ أقل على «نقد العقل العملي» باعتبار أنه موضوع علم الأخلاق، ولا يذكر تقريبًا. و«نقد ملكة الحكم» عن الحكم الغائي والحكم الجمالي باعتبار أن ذلك موضوع علم الجمال في السنة الرابعة. وبعض الدارِسِين يُرجعني إلى الظاهريات أصلًا ومرجعًا خارجيًّا، مع أنه من الأسهل إرجاعي إلى الجوَّانية كإطارٍ مرجعي داخلي. كانت كلماته تدخل في قلبي مباشرة، فتُوقِظه، وتزيد من حرارته، وهو أحد معاني «ذكريات» إهداء الكتاب. وما زالت ذكرياتي معه هي الذكريات، ليس فقط في المُدرَّج الجامعي بل في ساحات الحسين حتى الفجر، ونحن نطلب منه أن يتصل بزوجته الفرنسية كي تطمئن عليه، وهو يقول: لو اتصلتُ بها لَقَلِقَت؛ فالأفضل ألا أتصل حتى تطمئن. ولا غرابة في أنها ترَكَته وأَخذَت أولاده، وعادت إلى فرنسا، موطنها الأصلي، واعتَنَت به شقيقته، ولكن شتَّان بين الزوجة الأقرب إلى القلب والشقيقة الأقرب إلى العقل. وعندما كُنتُ أزوره في الفيلا التي يقطن فيها في ميدان أعضاء هيئة التدريس بالدقي كُنَّا نتسامر حتى الصباح. زوجته تعرف عادته فتنام وابنه، أمَّا الشقيقة فكانت تُذكِّره دائمًا بأن الوقت قد تأخَّر فيقول لي: «سيبك منها.» وعَلِمتُ بعد ذلك أنها كانت تُريد السيطرة عليه عندما زُرتُه عام ١٩٦٠م أثناء زيارتي للقاهرة آتيًا من باريس وأَهديتُه «نقد العقل الجدلي» لجان بول سارتر الذي صدر حديثًا. وبَقِيَت ترجماته لتأمُّلات ديكارت آيةً في الإبداع والجمال اللغوي. كان يعرف قَدْره، يجمع بين الفلسفة والحياة، بين علمه وذِكرياته. كان يُعظِّم محمد عبده أكثر من اللازم، وهو موضوع رسالته للدكتوراه في باريس، وأنا أنقده لأنه يعتبر أن العقل في حاجة إلى وصيٍّ وهو النبي كما يُصرِّح بذلك في «رسالة التوحيد»، وكُنتُ قد كتبتُ على السبورة مرة: «أُحِب محمد عبده ولكن حُبي لِلحق أعظم.» وهي العبارة الشهيرة التي قالها أرسطو عن أستاذه أفلاطون. وكُنتُ وما زِلتُ أقرب إلى الأفغاني الثوري أستاذه والذي كان يُمسِك بتلابيبه ويقول له: «والله إنك لَمُثبِّط.» ومع ذلك كان بالنسبة لمشايخ الأزهر من يُغرِّد خارج السرب.

وأخيرًا أتى زكريا إبراهيم، وكان قد عاد من فرنسا عام ١٩٥٥م مُشبعًا بِرُوح الظاهريات والفلسفة الوجودية. ولما سألناه من الذي أَثَّر فيه وهو في فرنسا كتب على السبورة السوداء: هيدجر، ياسبرز، مارسل. وكُنتُ أسمع عن هوسرل والقصد المتبادل، وعندما يخرج أنظُر من النافذة وأشعر بهذا الإيحاء المتبادل بيني وبين الطلبة في الفِناء. سَمِعتُ عن التجربة المشتركة لأَوَّلِ مرة منه. وكان لا يقرأ من ورق أو يُقرِّر كتابًا مع أن

له — فيما بعدُ — عدة مُؤلَّفات عن مشكلاتٍ فلسفية مثل مشكلة الفَلسَفة، مشكلة الحب، بأسلوبٍ سهلٍ شعبيٍّ لِدارسي ومُحبي الفلسفة على السواء. أَحَبَّه الطَّلبة، وكان منزله في مصر الجديدة مفتوحًا لهم جميعًا. ولم يَنسَ الفلسفة الإسلامية؛ فكتب عن البيروني وآخرِين. وكان هو الفيلسوف بعد عثمان أمين، تمَّتْ إعارته إلى جامعة الخرطوم، فرع جامعة القاهرة وإلى الأردن حيث كُتِبَت عنه عدة رسائل، وإلى المغرب مثل نجيب بلدي وحبيب الشاروني. لم يَعِش طويلًا، ولو عاش لكان أَثَرُه في مصر والوطن العربي أكبر، وأشدَّ وأَعمَقَ كما حدث معي.

وبقَدْر ما كنت فَرِحًا في السنة الرابعة بدراسة الفلسفة المعاصرة مع زكريا إبراهيم حَدثَت عدة أحداثٍ قاسية. أعطانا يوسف مُراد درسًا في «علم النفس الصناعي»، وكيفية استعمال علم النفس في إدارة المصانع، فاعتَرضتُ على المُقرَّر، وأنه استخدام العلم لخدمة المجتمع الرأسمالي، وقياس قُدرات العمال لاختيار أحسن عاملٍ لأحسن آلة. وأتانا سؤالٌ آخر العام في الموضوع، وأَجبتُ بنفس الطريقة فعَرفَ ورقتي وأعطاني ١٢ / ٢٠. وكان لا يُوجد أستاذٌ لعلم الجمال، وكُلِّف الأهواني بتدريسه، وكان السؤال: كيف تختار رابطة العنق؟ وكنت ثائرًا على هذا النوع من علم الجمال؛ فقد كُنتُ أنتظر علم الجمال عند هيجل وكانط، فعرف ورقتي وأعطاني ١٢ / ٢٠. وكان عثمان أمين يُدرِّس محمد عبده في الفلسفة المعاصرة، وكنتُ ناقدًا لحركة الإصلاح بأنها لم تُطوِّر نفسها، وأن محمد عبده ليس عقلانيًّا كما يُقال لأن العقل يحتاج إلى وحيٍ ومعه النبي. ولَّما كان محمد عبده إلهًا، وبالنسبة لي يُمكن تحويل الإصلاح إلى ثورة، فعرف ورقتي وأعطاني أيضًا ١٢ / ٢٠. وبدلًا من أخذ ١٨ / ٢٠ في ثلاثِ مَوادَّ خسرت ١٨ درجة في السنة الرابعة. وبدلًا من أن أنجح بامتيازٍ في السنة الرابعة وأكون طالب امتياز نَجحتُ بدرجة جيد. وكان لديَّ ست عشرة درجةً وفرًا في الموادِّ الأخرى أُضيفت إلى الناقص فبَقِيَت درجتان تُبيح لجان التعويض منحها. وكان الأوَّل في السنة الرابعة هو أخي وصديقي رشدي راشد الذي أصبح عالمًا كبيرًا في تاريخ الرياضيات، ونال العديد من الجوائز العربية، وهو الآن باحثٌ بمركز البحوث العلمية في فرنسا قبل أن يُحال إلى المعاش، أتمنى له الصحة وطُول العمر والبقاء. وقبل أن تُعلَن النتيجة النهائية قابلَني رئيس القِسم يوسف مراد وهو قبطيٌّ مصري على السُّلَّم الرئيسي وأنا صاعد وهو نازل: أين ستذهب يا حسن بعد التخرُّج؟ قُلتُ: سأطلب تعييني معيدًا بالقسم، ثم أعاد السؤال: في أي موضوع؟ قلت: أُحوِّل الإسلام إلى منهجٍ عامٍّ للفرد والجماعة. فسأل لماذا؟ قُلتُ لِأُصلح به حال الأمة،

وأُنهِض من شأنها، وهو مشروع الأفغاني ولكن على المستوى الفكري أَوَّلًا. فرَدَّ قائلًا: «كده، طيب.» لا أَتَّهِم أحدًا بالطائفية ولكني سمعتُ — فيما بعدُ — أنه أُقيل من الجامعة مُحالًا إلى المعاش بِتُهمة تغيير نتيجة أحد الطلاب المسيحيِّين؛ فأعطاه درجاتٍ أعلى من طالبٍ مسلم كي ينجح بِتفوُّق، وهذه تهمةٌ أخلاقية أشنعُ ما يُتَّهم بها الأستاذ الجامعي.

كما حَدثَت لي صدمةٌ كبيرة في حرية الفكر في الجامعة، وهي الصدمة الثانية. كانت في امتحان اللغة الألمانية التي كانت مُقرَّرةً عليَّ في آخر سنتَين باعتباري طالبَ امتيازٍ يأخذ لُغةً أخرى ومادةً زيادة. كان مُقرَّرًا أن آخذها مع الدراسات العليا في قسم التاريخ بينما وضَعَتنا إدارة الامتحانات بالكلية مع قسم اللغة العربية. وفي الامتحان وجَدتُ الأسئلة مختلفة، فطلب مني المُراقِب، وكان قبطيًّا من حرس الجامعة، أن أكتُب طلبًا للعميد أشرح فيه الموقف. وبالفعل أَخذتُ اكتب طلبًا للعميد وبدأ بعبارة «الأخ الفاضل» عميد كلية الآداب، فانتزع مني المُراقِب الورقة مُعترِضًا: هل يُكتَب لِعميد الكلية بأنه الأخ الفاضل، وليس السيد العميد؟ فقلت له: «إن البشر جميعًا إخوةٌ لا سائد فيهم ولا مَسود.» ويبدو أنه أراد إخراجي من القاعة فلمس قلم الحِبر ذِراعَه وترك أَثَر الحِبر فيه، وحَوَّلَني إلى العميد، وكان هو يحيى الخشاب (زوج سهير القلماوي)، فحَوَّلَني إلى رئيس الجامعة بِتُهمة «قلة الأدب»، الذي كوَّن مجلس تأديبٍ من خمسة أساتذة من ضمنهم أساتذة حقوق طبقًا للقانون. وسألني أحد أعضاء اللجنة: هل العميد أخوك؟ فأجبت بحديث الرسول نعم «وأنا شهيدٌ على أن عباد الله إخوانٌ.» ثم سأل: هل تعتقد ذلك قولًا وعملًا، فكرًا وسلوكًا؟ فأجبتُ نعم، أنا لا فرق عندي بين رئيس الجمهورية وجامع القُمامة في الشارع؛ فكلاهما يُؤدِّي وظيفة طبقًا لتقسيم العمل في المجتمع. فسأل: هل ستَبقَى على هذا الاعتقاد طُول العمر؟ قُلتُ نعم. وأنا الآن في طريقي إلى فرنسا لإتمام دراسة الماجستير والدكتوراه، فطالبوني بالقيام مع التوفيق والنجاح بالموافقة. وعلى هذا الأساس أخذتُ الورقة البيضاء وهي تُعادِل تأشيرة الخروج. وبعد عدة استطلاعاتٍ وجَدتُ أن أرخصَ طريقةٍ للذهاب إلى فرنسا هي المركب من الإسكندرية على ظهرها ٥٨٨٢٢٢. وكان ثمنها اثنَي عشر جنيهًا استَطعتُ توفيرها. وكان معي في ذلك الوقت بهاء طاهر بقسم التاريخ، والسيسي عازف البيانو من قسم اللغة الإنجليزية، وعبد الجليل حسن الذراع اليُمنى لتأسيس مجلة «الكاتب»، وكان في قلبه «اليسار الإسلامي»، والذي غادر إلى ليبيا، وربما هو الذي كتب «النظرية الثالثة» بأجزائها الثلاثة للقذافي

— وهو تلميذ عبد الناصر — قبل أن يستبد ويَتَجبَّر فيعود عبد الجليل إلى القاهرة، ويموت في وطنه. وقد سبقني بدفعة نبيل زكي الكاتب الصحفي بجريدة الأهالي، وجاء بعدي حلمي النمنم الكاتب الصحفي الذي أصبح وزيرًا للثقافة، ومكرم محمد أحمد الصحفي الشهير ونقيب الصحفيِّين السابق، وطه حنفي المليجي الذي كان مُدرِّسًا لِلغة الفرنسية في وزارة التربية والتعليم ثم أصبح مُوجهًا عامًّا لها. جاء لزيارتي بالكلية مرةً وأنا أمين اللجنة العامة لترقيات الأساتذة والأساتذة المساعِدين برئاسة الجوهري، وكنا نَدْرس موضوعًا هامًّا لا أستطيع أن أترك الجلسة، وما إن انتهتِ الجلسة وخَرجتُ وَجدتُه قد غادر. خَطئي أنني لم أطلب منه الانتظار في الغُرفة المُجاورة للعميد، ولم أَخرُج لتحيته أولًا وسط الجلسة، وحزِنتُ حزنًا شديدًا لأنني لم أَرَهُ منذ أن غادرتُ إلى فرنسا. يبدو أنه شَعَر بالإهانة لأني لم أخرج على التَّو. وقَرأتُ نعيه في الأهرام بعد شهر. يبدو أن التاريخ كان يريد أن يَجمَعنا من جديد، ولكن الإرادة البشرية عاقَت دون ذلك. وكان أقربَ الأصدقاء إليَّ في الجامعة في سنوات الدراسة الأربع. ونظَر إلى عينيَّ مرةً وأنا في المسجد قبل السفر إلى فرنسا وقال لي: «عيناك تَبرقَان.» وربما كان ذلك من الحزن لِما حدث في الجامعة، والفَرحِ لِلسفَر إلى فرنسا. أمَّا أحمد الكاشف فقد بدأ بهيئة التحرير وانتهى إلى سكرتير محافظ القاهرة. ذهبتُ إليه مرةً لِأحُلَّ بعض مشاكلِ رُخصةِ بناء بيتي العربي. بعد أن امتَلأَت شقتي بشارع الحجاز، وملَأتُ الحوائط رفوفًا لاستيعاب الكتب، بنيتُ منزلًا عربيًّا بمدينة نصر الفارغة في ذلك الوقت؛ بنَاه نجل شقيقتي علية، وهو المهندس محمد عبد المحسن بعد أن جرَّبتُ مُهندِسين ومُقاولِين آخرِين؛ منهم من استولى على كتابي عن المدينة العربية ولم يُرجِعه. وكُنتُ قد اشتريتُ الأرض من مُفتِّشةٍ في وزارة التعليم التي كانت تمتلك الأرض وتُقسِّمها على مُوظَّفِيها بستين قرشًا للمتر، واشتريتُها أنا حسَب إعلان الجريدة بقيمة ١٨٠ جنيهًا للمتر، وكانت تُريد المبلغ فوريًّا ونقدًا، فأَخَذتُ المبلغ، وظلَّت هي وأختها يعُدُّون هذا المبلغ الكبير في الحجرِ وأنا أريدهم أن يقوموا بذلك في المنزل، ثم طَمِعت في المبلغ والأرض معًا، وذَهبَت إلى كل الهيئات الحكومية لإبطال العقد: المياه، الكهرباء، رصف الطرق، تنظيف الأرض. ولَمَّا ظلَّت تُماطِل رفعتُ عليها قضية، فكسَبتُها، وجَعَلتُ الدَّور الأرضي (البدروم) كُلَّه لتنظيم مكتبتي في دواليبَ جديدة، وأُضيف إليها قِسمٌ من الدور الأول وبينهما سُلمٌ خشبي داخلي. وفي هذا القِسم العُلوي وَضَعتُ الفكر العربي والإسلامي المعاصر؛ مصر، والوطن العربي والعالم الإسلامي، ثم في الجانب الآخر العلوم الإسلامية؛ أصول الدين، وأصول

الفقه، وعلوم الحكمة. ولم يَبقَ مكان لعلوم التصوُّف فنَزلَت إلى الطابق السفلي، وفيه الفلسفة الحديثة والمعاصِرة ابتداءً من الفلسفة اليونانية ثم العصور الوسطى، المسيحية واليهودية ثم الإصلاح الديني، ثم عصر النهضة؛ القرن السابع عشر، ثم القرن الثامن عشر، ثم القرن التاسع عشر الذي استغرق جناحًا بأكمله، ثم القرن العشرين؛ منهم من قضى نحبه، ومنهم ما زال حيًّا، ومكتبي وسط هذا التاريخ للفلسفة. وفي طُرقةٍ أخرى فلسفة الدين بدايةً بالاستشراق، ثم الفكر الشرقي القديم ثم المسيحية. وفي آخر الطُّرقة العلوم الإنسانية؛ علم النفس، وعلم الاجتماع، وما تبقَّى من العلوم الفلسفية؛ المنطق، وفلسفة العلوم، والفلسفة العامة، وعلم الجمال. وفي الطُّرقة الأخيرة التي يجلس فيها مُساعِدي الأول تُوجد العلوم السياسية والاقتصادية، ومصر والوطن العربي وأمريكا؛ حيث كنت أُزمِع الكتابة عنها «أمريكا، الحقيقة والأسطورة»، ثم فلسطين وإسرائيل، ثم تأتي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وأخيرًا بجوار الحديقة الأدب؛ الرواية، والقصة، والشعر، ثم النقد الأدبي. ومنذ عدة سنواتٍ عندما بدأ العمود الفِقَري يَضعُف وتغيير بعض مفصلات الفَخذِ خصَّصتُ غرفةً بِدَور السكن، الدور الأول، للبقاء بجوار الأُسرة، ولأنني لم أعُد قادرًا على نزول السُّلَّم الخشبي الداخلي أو صعوده. ولَمَّا أَوشكَت أجزاء «التراث والتجديد» على الاكتمال، ولم يَبقَ إلا الجزء الأخير، «الجبهة الثالثة» «النص والواقع»، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم الذي أَكتُبه في الغرفة المأخوذة من شقَّة السكن، وبعد إلقاء الأساس الأَسمَنتي وشَرعتُ في بناء الدَّور الأول رَفَض مهندس الحي إعطائي التصريح لأنني بعد أن رخَّصتُ الأساس كان يجب أن أُرخِّص الأدوار فوقه، «إلا إذا» ولم أفهم. وأنا لم أكن قد بَدأتُ إلا في البدروم حسب نصيحة المقاول، فجاء معي اثنان للموقع للتحقُّق من صحة أنني لم أَبنِ بعدُ الدَّور الأوَّل، فطلب مساعده أن يدخل دورة المياه، فأَشرتُ عليه في المنزل المُقابل، ووقف ينتظرني، يُشير بيدَيه، كما فعل حسن يوسف مع نادية لطفي في فيلم الخطايا؛ لأنه يُريد أن يأخذ منها موعدًا للقاء حبيبها عبد الحليم حافظ نظرًا لاعتراض الأب الذي ربَّاه وليس أنجبه، فلم أفهم ماذا يُريد. فهمتُ بعد ذلك أنه كان يُريد رِشوةً للإمضاء، فلمَّا لم أفعل رَفَض إعطاء الترخيص. ورفَعتُ الأمر إلى القضاء مرةً ثانية. فكسَبتُ القضية وخَسِر. أمَّا موظفة الحي فقد طَلَبَت مني أن أسعى في مِنحةٍ من معهد الخدمة الاجتماعية لابنتها، وكنت على صلةٍ بأساتذتها، فسعيتُ ونجحتُ، ولم تفعل شيئًا، كما أشار مهندس الحي الذي بيده الموافقة من عدمها

إلى مِفتاح عربته وهزَّه؛ مما يعني أنه في حاجةٍ إلى تكاليف الطريق من منزله إلى الحي، فلم أفهم الإشارة، ولم يُرخِّص البناء.

وكان معنا كامل يوسف سلامة من كلية الحقوق. وفي الصيف كنا نجلس على المقهى للعب الطاولة، وبمشروبٍ واحد (حاجة ساقعة). نجلس طُول المساء نتحدث عما سنفعل بعد التخرُّج. كامل كانت له رؤيةٌ واضحة في أن يُصبح وكيل نيابة، وكان هذا اللقَب في جيلنا له هيبةٌ كبيرة. وبيَّنتُ أنا أنني سأُصبِح مُعيدًا لتكملة الدراسات العليا في الداخل أو في الخارج. وطه لم يكن له رؤيةٌ واضحة؛ فالأمر يتوقَّف على مجموع درجاته حتى التخرُّج. وقد سكنتُ الدَّور الأول ومكتبتي في البدروم، وأبنائي فوقي، لكلٍّ دَور. وبعد أن اكتمل بناء البيت العربي وانتقلتُ إليه عام ١٩٩٤م، كتبت على الحائط في البدروم «المكتبة الفلسفية المُتخصِّصة». وفي يوم من الأيام جاءتني مصلحة الضرائب كي تعرف كم مكسبي في اليوم منها، فشرحت لها أنها خدمةٌ عامة، فطلبوا إزاحة العنوان، كما أتى مندوب الضرائب العقارية الآن كي يُبلغني كذبًا، مع أنه بذَقَن واطمأنَنتُ إليه، أنه هناك لجنةٌ أتت وقرَّرَت ضرائب ألفين وخمسمائة جنيه على كل ساكن، وعلى البدروم الذي به مكتبتي اثنَي عشَر ألفًا ونصف جنيه باعتبارها مَخزنًا، فاستغربتُ لأن السكن ليس عليه ضرائبُ عقارية، ومكتبتي أين أضعها بعد أن اتسَعَت على مدى ستين عامًا؟ فأخبرني أن الموضوع في «حاجة إلى فلوس» وفَركَ إصبعَيه، أَدفَع له النصف والباقي بعد الطعن. ثم جاء مرةً ثانية يطلب صراحةً الفلوس فطَردتُه من المنزل صائحًا «لعن الله الراشي والمُرتشِي.» وأَبلغتُه أن الأمر في يدِ المحامي الآن وأَعطيتُه اسمه ورقمَ تليفونه. فخرج مُنكَّس الرأس أن الحيلة لم تنفع بعد أن ظن أنني ميسور الحال وأن مكتباتِ الجامعة ليس بها مثل مكتبتي. ولم يُلقِ اهتمامًا إلى أن مصاريف المُوظَّفِين عندي؛ المُمرِّض، وربَّة المنزل، واثنَين من السكرتارية، والبواب، تبلغ اثنَي عشر ألف جنيه ومعاش أربعة آلاف جنيه، غير تكاليف الأدوية والأطباء والحياة اليومية وأنا عاجزٌ لا أَتحرَّك إلا على كرسيٍّ متحرك.

وفي يوليو ١٩٥٦م سنة التخرُّج، ونحن جالسون في شقَّتنا بباب الشعرية، وكانت غرفة الصبيان تُطِل على السطح الداخلي الذي هو سقف مخازن السحار، وكُنَّا ثلاثة: أنا وأخي سيد وصديق العمر محمد وهبي عبد العزيز، إذ سمعنا خطاب عبد الناصر في تأميم قناة السويس، فقَفَزنا من الفرح، وظل بعضنا يقذف بعضا بالمِخدَّات، ومن يومها أصبحنا ناصريِّين، ونَسِينا الخلاف بين الثورة والإخوان. وبدأت المؤتمرات؛ مؤتمر

لندن وعلي صبري ممثلًا للثورة، ولم تنجح مُفاوضات القناة؛ فلا حلول وسط بين ملكية فرنسا وإنجلترا لها، وملكية مصر وهي على أرضها. وبَدأَت تَلوحُ في الأُفق بوادر الحرب.

كانت المرحلة الجامعية هي مرحلة الانفتاح على العالم، ورؤية عدة طُرق فأيهما أختار، مرحلة الضوء الجلي والمطلوب سلوك أيِّ طريقٍ فيه، وهي مرحلة اختيار أي الإمكانيات أنا مدفوعٌ إليها؟ لم يكن عندي اختيارٌ حُر، بل كنتُ مدفوعًا بمصيرٍ تحدَّد من قبلُ، من البداية إلى النهاية. لم أكن شقيًّا بل كنت سعيدًا لأن الطريق واضحٌ وما عليَّ سِوى السلوك فيه.

الفصل الثالث

السفر إلى فرنسا (١٩٥٦–١٩٦٦م)

عشر سنواتٍ في فرنسا غيَّرتني كُليَّة، وعمَّقَت تجربتي العلمية والحياتية. كان الإصرار على السفر إلى فرنسا دون بعثةٍ أو تكاليفَ خاصة يُحزِن الأسرة كُلها، وبالأخص الوالدة، كيف سأعيش؟ ومتى سأرجع؟ وأنا أُعِدُّ عُدَّة السفَر مَلأتُ حقيبةً كبرى بكتب السُّنة، وفي حقيبةٍ أخرى مُذكِّراتي التي كنتُ قد بَدأتُ كتابتها في الصلة بين الفكر والواقع، وأحلامي التي كُنتُ أُدوِّنها بمجرد الاستيقاظ. كتب السُّنة اشتراها لي أخي سيد حتى قبل أن يُعيَّن مُعيدًا، واكتَفَى بالباحث قبل المُعيد بعشرين جنيهًا؛ فمعاش أبي الخمسة جنيهات كانت لا تكفي حتى لإعاشة الأسرة، وكان هناك جِوالٌ به خبزٌ جافٌّ وعلبةُ جنبةٍ صفراء من المعونة الأمريكية. حاوَلَتِ الأُسرة إقناعي بكل الطرق بعدم السفر، وكان هناك طالبٌ أَعرِف أُسرته بدرب البزازرة بجواري اسمه عبد الحليم، وكان بدينًا مثل أمه، وكان عقله كذلك، وأبوه ضعيفُ الشخصية مُقارنةً بأُمه، وكان يأتيني بين الحين والآخر لِأشرحَ له كل مادةٍ عن طريقِ وَضعِ نَسَقٍ له لِمُذاكرتها، أَوحَوا إلى أُمه لمنعي من السفر، فأَخذتُ الحقيبتَين والجِوال، وأَصرَرتُ على السفر. وطلَب مُجمَّع التحرير أن يأتي الوالد شخصيًّا ويُوقِّع أمام المُوظَّف المسئول على موافقتِه على السفر، فذَهبَ الوالد سعيدًا حتى أعلم أنه ما زالت السلطة بِيدَيه؛ فهو رب الأُسرة مهما عاق الابن الجامعي المتعلم. وذهَب معي إلى مِيناء الإسكندرية أخي سيد والوالد قبل السفر بيوم. وكان لنا قريبٌ للأُسرة ترزي عربي بالمنشية، وهو أخ جدي حسانين تاجر الدقيق ببني سويف؛ فقد كان النزوح دائمًا من الجنوب إلى الشمال، كما يتم النزوح الآن من الشرق إلى السعودية والخليج أو إلى الغرب ليبيا أو إلى الشمال والأردن، وكما ينزح الإخوة السودانيون والأفارقة من الجنوب إلى

الشمال، وكما ينزح كل العرب الآن إلى الشمال، أوروبَّا بَحرًا، وكان له ولد في شِبه سِني أو أصغر، وكان اسمه رشاد، دخل قلبي من أَوَّل لحظة، كان طيِّبًا خجولًا مثلي، وكُنَّا نسير إلى المِيناء وارتبطنا بصداقةٍ نادرة وأنا على وَشكِ المغادرة. ولَّما أخبرني أخي سيد أنه على صلةٍ بهم كما كان على صلةٍ بباقي أقاربنا ببني سويف، أَعطَتني زوجة أخي رقم تليفون وعنوان شركته «أولاد المصري» لمواد البناء عَرفتُ أنني سأستعيد صداقة رشاد والأقارب، فاتصلتُ فرحَّب بي وسألتُ عن أفراد الأسرة فتُوفِّي معظمهم، وسألتُه عن المواد التي تُقاوِم رطوبةً أكبر فقال بخشونة: «معرفش.» ظانًّا أنني سأَستَخدِمه مجَّانًا بعد أن صرَّح لي أنه هو الذي جهَّز شقة أخي على البحر وأنه تغذَّى معه، فحَزِنت.

كانت الأُسرة ترى المركب تُغادِر وأنا أرى الرصيف وعليه الأُسرة. وغادَرَتِ السفينة يوم ١١ / ١٠ / ١٩٥٦م وهي تَبعُد شيئًا فشيئًا، ووَصَلَت مارسيليا. وكانت الوالدة تُريد أن ترمي نفسها في البحر لِحاقًا بابنها، ولكن منعوها. وفي الليل وبعد التوصية كانت تُوضَع لي ملاية على كنب المطعم لأنام، وكُنَّا نَطعَم مما تبقَّى من موائد الأغنياء. وفي الليل أرى النجوم في السماء وهي تَتقلَّب يمينًا ويسارًا طِبقًا لحركة المركب. ولَّما كانت المركب يونانيةً فإنها تبقى أربعًا وعشرين ساعةً في ميناء بيريه في أثينا، يلتقي فيها البَحَّارة مع أُسرِهم، وينزل من يريد، فنزلتُ بعدما رأيتُ شيئًا كسائح، الأكربولوس، وسِجن سقراط، ورأيتُ أثينا الحديثة وميدان الشهيد الذي به البرلمان. وكانت منظمة أيوكا تعمل من أجل استقلال قبرص، وكانت جزءًا من نضال العالم الثالث، وكُنَّا نهتِف باسمها باعتبارنا طلبةً وطنيين.

وفي اليوم الثاني مرَّت السفينة من مضيق مسينا الذي كُنتُ أقرأ عنه في الجغرافيا في الثانوية. وكان همي الوصول من مرسيليا إلى باريس، وتَعرَّفتُ على فرنسيةٍ كبيرة في السن وأقرضَتني مائة فرنك، ما قيمته عشرة جنيهات، ثمن تذكرة القطار من مارسيليا إلى باريس. ولَّما تأخَّرتُ عليها في السداد هدَّدَتني في خطاب بأنها ستشكوني إلى رئيس جامعة باريس. وردَدتُ إليها ما اقتَرضتُه منها في أول دخلٍ لي من تدريس اللغة العربية للإخوة الجزائريِّين.

ولَّما وصل القطار محطة باريس نزلتُ منه وأنا لا أدري أين أذهب. وقابلَني أحد الفرنسيِّين وسألني إن كنت أُريد سكنًا، فوافقتُ، وأخذَني معه إلى منزله، غُرفةٍ صغيرة يُؤجِّرها كي يعيش منها. وأعطاني هذه الليلة طبق شربةٍ ساخن حتى أَستمِر في السكَن

معه ومع زوجته العجوز مثله. وبدأ الهوام يهرشني؛ فالملابس ما زالت في الحقيبة لم أُغيِّرها منذ أن غادرتُ القاهرة. ودفَعتُ له ليلةً وطلَبتُ الانتظار للباقي حتى تستقر أموري في الجامعة. وما زلتُ أَذكُر الحَسَاء الساخن في الليلة الباردة.

وكانت القضية الثانية أين سأقضي الليلة، فذهبتُ إلى بوَّاب السفارة المصرية في الحي السادس عشر؛ فهو لن يرفض أن أسكُن معه عِدَّة ليالي حتى أجِد مسكنًا لي. وأخبرني أنه ممنوعٌ لأن بواب السفارة مُوظَّف في الخارجية، ولا يجوز استضافة أحد عند بوَّاب السفارة. وهناك بيت السفير المُجاوِر المكون من عِدَّة غرف، ولكن سيكون نفس الرد، فاستغربتُ، ألَّا يقبل بواب السفارة طالبًا سيغير العالم بأفكاره، وهو مشروع «التراث والتجديد». فذهبتُ إلى مسجد باريس كي أُقِيم فيه على عادة الطلاب القُدامَى، فأخبرني الإمام أنه ممنوع؛ فهو مُستَخدَمٌ للصلاة فقط، وسَلَّمَني إلى أحد الجزائريِّين كي أنام معه، وكانت غرفة في فندق في الحي العشرين الذي يقطنه العُمَّال الجزائريون، ستة على سريرٍ واحد. وطلَبوا مني أن أُعطيهم دروسًا في اللغة العربية؛ فقد كانت فرنسا تُريد فرنستهم، استعمار اللغة بعد استعمار الأرض. وكنتُ أشربُ فنجانًا من القهوة كل صباحٍ حتى لا يشعر صاحب الفندق أنه لا يستفيد مني شيئًا ببقائي مع الإخوة الجزائريِّين. وكان في وجه أحدهم حَبُّ الشباب يَهرُشها طَوال الوقت، وتواعدنا مرةً في محطة لوكسمبورج، وفجأة رأيتُه قبل الموعد بيوم، وأخبرني أنه ظن أنني قد آتي اليوم؛ أي قبل الموعد بيوم؛ فالزمن ليس له مسار، الأمس واليوم والغد يتساوَوْن.

وكنت قبل المغادرة من مصر، أعطاني أحمد فؤاد الأهواني خطابًا لأحد تلاميذه في باريس يوصيه مخ بي خيرًا، فذهبت إليه وأعطيتُه الرسالة، فكتب هو رسالة إلى مدام رامبارك مديرة مكتب البعثات التعليمية الفرنسية بالسفارة المصرية بباريس. ولَمَّا قَرأَتِ الخطاب وضَعَته على مكتبها مُستغرِبةً أنها لا تملك أيَّ سلطة في ذلك، هي فقط مديرةٌ إداريةٌ تنفيذية لما يأتي إليها من تعليماتٍ من إدارة البعثات في مصر. وأدركتُ ما أسهلَ الكلام الشفهي أو المُدوَّن وما أصعب الأفعال، فأحسَستُ بالحرَج أمامها وهي تقول لي إنها لا تستطيع فعل شيء. وقد كنتُ أضَع أملًا كبيرًا فيها وفي خطاب التوصية الذي كُنتُ أخشى أن يضيع ويضيع معه مستقبلي.

وفي الطريق إلى السفارة أوقفني شرطيٌّ طالبًا أوراقي، فأخرجتُ له جواز السفر فنظر إليَّ مُستغربًا وهو يقول: ولكن وجهك الآن «معضَّم» أو بتعبيرنا الشعبي «مقفَّع»

أو «مفقَّع». فقلتُ له: لأني وصلتُ هذا الأسبوع، ولم أَستقِرَّ بعدُ، فأَرجَع إليَّ جواز السَّفَر مُستغرِبًا، بعد أن اطمأنَّ أنني لَستُ من المهاجرين غير الشرعيِّين كما يحدُث الآن.

وبعد أسبوع في ٢٥ / ١٠ / ١٩٥٦م وأنا ما زِلتُ في مرحلة الاستقرار بدأ العدوان الثلاثي على مصر حيث تَجمَّعَت أساطيل الدول الكبرى في البحر الأبيض المتوسط. وبالاتفاق مع إسرائيل بدأ العدوان في أكتوبر، وهاجمت إسرائيل من الشرق، فاحتلَّت سيناء وذلك لِحصارِ الجيش المصري بين فكَّي الكماشة، إسرائيل في سيناء والقوات البريطانية والفرنسية في قناة السويس بدعوى تأمين حرية الملاحة البحرية، وشَهِد الجيش تدميره. وقد طالب الشيوعيون والإخوان عبد الناصر وهم في السجون بإخراجهم وتسليحهم للدفاع عن بورسعيد التي لم يكن قد تم احتلالها نَظرًا للمقاومة الشعبية في القضاء على جنود المظلات، ففعل عبد الناصر، ثُمَّ طالبوا بإعادتهم إلى السجون من جديدٍ ففعل أيضًا. وكان الشعب معه لا فرق بين إخوان ووفد وماركسيين ومصر الفتاة؛ فالكل واحدٌ لإنقاذ الوطن. وغادر معظم الطلاب الدارسِين في فرنسا، بعد أن اجتمعوا في السفارة المصرية بباريس لمعرفة ماذا عليهم أن يفعلوا؟ البعض قال يعود إلى مصر للدفاع عنها، فيرد السفير عبد النبي مع المستشار الثقافي ثروت عكاشة: هناك من هم أَقدَر منكم على الدفاع. وقال البعض الآخر نغادر هذه الدولة الاستعمارية، ونَدرُس في ألمانيا. وبالفعل حزموا أمتِعتَهم، وغادروا إلى ألمانيا. وفريقٌ ثالثٌ فضَّل استمرار الدراسة في فرنسا؛ فهذا أكبر ردِّ فِعلٍ على الدولة الفرنسية. أمَّا أنا فلم يكن عندي إمكانيات للعودة إلى مصر ولا إلى السفر إلى ألمانيا، ففضَّلتُ البقاء في فرنسا. وذهبتُ إلى اللوفر ورأيتُ آثار مِصرَ ومِسلَّة الكونكورد في الواجهة وسط الميدان المُسمَّى باسمها، وأنا أبكي مصر والعدوان عليها. وكنتُ أسير في الشوارع وأنا أُغنِّي «لكِ يا مصر السلامة». وتذكرتُ تدمير الأسطول المصري غرب الإسكندرية بعد حصاره من القوات البحرية الفرنسية والبريطانية في موقعة نوارين الشهيرة لإسقاط محمد علي بعد أن أصبح قوةً تُهدِّد القوى الغربية، تريد تجديد روح الإمبراطورية العثمانية والغربُ طامعٌ في إرث الرجل المريض؛ فالتاريخ يعيد نفسه. ولم نسترح نفسيًّا إلا بعد أن انسحَبَت جيوش الدول الثلاث من مصر. البعض يقول بفضل التهديد الأمريكي بالتدخُّل أو تهديد بولجانين، أو قرار الأمم المتحدة بإيقاف العدوان، كل طرفٍ يريد أن يأخذ الحق في جانب الانسحاب الذي تم في ديسمبر من نفس العام. والبعض الآخر يقول بفضل الإنذار الروسي. وفي كلتا الحالتَين

يظل رنينُ خُطَب عبد الناصر في الأزهر «سنُقاتل». وطالَب صلاح سالم عبد الناصر بتسليم نفسه لقوات الاحتلال واتهام زملائه له بالخيانة العظمى.

وكان هناك أَحَد الأنظمة الإسكانية للطلاب؛ ففي ١٥ شارع سوفلو Souflant في الحي اللاتيني هناك مَكتبٌ جامعيٌّ يُقدِّم خدمةً سكنية للطلاب يقوم على أساس التبادُل Au Pair سكنٌ مجَّاني في مقابل خِدمةٍ طلابية لأَحَد أطفال الأُسرة، وهي غُرفةٌ فوق السطح كانت مُخصَّصةً للشغَّالات. ولَمَّا لم يعُد نِظام الشغَّالات يتبع كل شقةٍ سكنية قائمًا قدَّمَت الأُسرة غُرفة السطح إلى أَحَد الطلاب أو الطالبات. وكُنتُ أستيقظ في الصباح الباكر وأسير من الحي العشرين حيث كُنتُ أَسكُن مع الجزائريِّين كي أكون أَوَّل من يقرأ قائمة الغُرف المُعطاة للطلاب في مُقابلِ التدريس لأَحَد أطفال الأُسرة أو مقابل أجرٍ زهيدٍ لا يتعدَّى فرنكاتٍ في الشهر للطلاب الفقراء. ونجَحتُ مرةً في الحصول على غُرفة السطح مُقابل تدريس العربية والإنجليزية لِطفل الأسرة. وفي يومٍ وأنا عائدٌ من الجامعة وَجَدتُ غُرفة السطح قد كُسِر بابها، ونُقل عَفشُها وكُتبها إلى غرفةٍ أخرى في فندقٍ مع دفع ليلةٍ واحدة! فاستَغربتُ، وذهبتُ إلى صاحب الشقة، فأخبَرني أنهم في مصر طَرَدُوا أخاه، وكان مُوظَّفًا في شركة قناة السويس، وليس من المعقول أن يبقى مصريٌّ في غرفة تَبعه، وأنا مصري وأَخوه مطرود من مصر، مع أن الطفل فرح بمُدرِّسٍ له مصري. وبعد الفَرح بحل قضية السكن المجاني حَزِنتُ، وسألتُ مكتب الطلاب في الجامعة ما العمل؟ فأخبروني أن هذا عَملٌ غيرُ قانوني، وعليَّ أن أرفع قضيةً على صاحبها في قصر العدالة Palais de Justice في الحي. وبالفعل بالرغم من أنه لم يكن معي إلا أربعون فرنكًا وهو ثمن القضية، كَسَبتُها، وأَخذَني صاحب الشقَّة جانبًا واعتذر، وعليَّ بعد ذلك أن أذهب إلى المحكمة، وهذا يَتَوقَّف على مَهارة المُحامِين، عندي وعنده! وأنا ما زِلتُ أبحث عن الطعام والسكن. وحدث ذلك في إليزيا Alesia بجوار دانفير روشيرو Danfere Rocherot، وأَسَدِها الذي في الميدان الذي نَحتَه نفس المثَّال الذي نَحَت أَسَدَي كوبري قصر النيل في عصر إسماعيل. وأَدركتُ أن الحق فوق القوة أو أن العدل فوق أهواء البشر.

ومرةً أخرى وجدتُ غرفةً رخيصة في محطة رانلاج Ranlagh بجوار غُرفة تَشوين الفحم في البدروم بلا نوافذ، وكُنتُ لا احتاج إلى تدفئة. وكانت جارتي على الشارع موظفةً في المترو الذي آخذ محطَّته كل يوم، وهي تختم لي البطاقة الأسبوعية، ولا أُكلِّمها لأني لم أكن قد تَجرَّأتُ على مخاطبة النساء بعدُ، وأنا الإخواني القديم. وفاجأتني هي بالحديث

مرة: أَلستَ جاري؟ قلت نعم، ولم أستمر في الحديث بالرغم من مُحاولتها مع صديقةٍ في زيارةٍ لها إسماعي صوتها لي ليلًا، ثم فقدْت الأمل مع أن الأمور مُيسَّرة. كانت غرفتها بجواري بها نافذةٌ تُطِل على الشارع، أجمل وأفضل عندما كنتُ أجد الباب مفتوحًا. كانت الأسرة مالكة حجرتي لطيفةً وودودة، تُرحِّب بالطلبة الأجانب، تسألني كل مرة عندما أحضر لدفع الإيجار وهو أربعة جنيهات شهريًّا إذا كنتُ أحتاج شيئًا أو إذا كان هناك شيء ينقصني، فأشكُر ربَّة الأسرة. ورأيتُ المِصعَد الحديدي مثل المصاعد التي في الأبنية التي على ساحل الإسكندرية مثل فندق سوفيتيل أو المعهد السويدي، وكُنتُ أُحِس به تدريجيًّا أنني في فرنسا، بالإضافة إلى المترو المُريح الذي يُغطِّي كل شوارع باريس في أنفاقٍ تحت الأرض بحديده المشغول على فتحات النزول والخروج، والأبوابِ التي تُغلَق آليًّا إذا وصل المترو إلى الرصيف ثم تُفتح بعد ذلك بعد المُغادرة بلا زحام أو خطورة. وأَجِد أحيانًا على كنبات الاستراحة الخشبية مُتشرِّد Clochaet وفي يده زجاجة النبيذ الأبيض والأخرى الرغيف الفرنسي الطويل باجيت Paguette لا يسأل إلحافًا. وأحيانًا أَجِد بين الدهاليز تحت الأرض الموسيقيِّين يعزفون أو بعض الفنَّانِين يرسمون، وقُبَّعته مقلوبة على الأرض بجواره، والناس تقذِفُ فيها الفرنكات المعدنية. وأحيانًا أَجد في هذه الدهاليز بعض الشعارات السياسية لبعض الأحزاب. وفي نفس الغرفة حاوَلَت صديقة أحد المصريِّين إغرائي لَمَّا عَرفَت أنني أيضًا في الكونسرفتوار، ولكني لم أكن بعدُ قد تعلَّمتُ مخاطبة النساء. وقالت لي مرةً وهي في زيارةٍ لي أُريد أن أَقضيَ الليل هنا، ولم أفهم ما تُريد كما أفهم الآن، ورجوتُها الذهاب إلى سكنها الذي كان على التبادُل في حيٍّ آخر باعتبارها طالبةً في الكونسرفاتوار. وبعد عِدة سنوات ذهبتُ إليها في غُرفتها بعد أن تعلَّمتُ كيفية الخروج من ثقافتي الإخوانية الإسلامية الأُولى. وفي هذه المرحلة الرومانسية كنتُ أركب المترو من رانلاج في الحي السادس عشر، وأُغيِّر المترو إلى آخر محطة دانفير روشيرو. وكان الباريسيون يُتقِنون فن التغيير لاختصار الوقت، فإمَّا أن يركبوا القطار من الأمام إذا كانت محطة التغيير بالقرب منه أو من الخلف إذا كانت محطة التغيير بالقرب منه. وأَحسنتُ هذا الفن، وكُنتُ أركبُ عربة المترو الأخيرة لأن التغيير كان من هناك. وكانت هناك فتاةٌ فرنسية بيضاء ذاتُ وجهٍ جميل بالرغم من أنها قصيرة ألتقي بها كل يوم، وفي نفس المعاد، وفي نفس المكان، ينظر كلٌّ منَّا إلى الآخر، كانت تنتظر أن تأتي المبادرة مني كالعادة، ولكني لم أفعل. ولَمَّا أتت الفترة الواقعية عام ١٩٦٠م تركتُ المكان والزمان إلى المدينة الجامعية في الحي الرابع عشر، وأدرس في منزلي وآكل في مطعم

المدينة الجامعية، فحزِنَت لتأخُّري. وكانت تَرِنُّ في أُذني آية ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. فأطمئن إلى ما فَعلتُ. بعد ذلك وُفِّقتُ في السكن في المدينة الجامعية في الحي الرابع عشر في غرفةٍ مُزدوَجة مع أمريكي في منزل الولايات المتحدة الأمريكية، وكان بالقرب من محطة المترو بهذا الاسم، وعلى الشارع بِضَجَّته، وسألتُ زميلي بالغرفة: كيف تنام في هذه الضجة؟ فأجاب: أنا أسكُن في شيكاغو فوق محطة القطار؛ فأنا مُتعوِّد على ذلك. لا يُوجد منزلٌ للمصريِّين، بل هو نُزلُ الطلبة الأرمن عندما كان نوبار باشا الأرمني وزيرًا للتعليم في مصر؛ فبناه على نفقة مصر باسم الطلبة الأرمن. وقانون الإسكان في المدينة النصف من البلد الذي بنى. والنصفُ الآخر من باقي الجنسيات حتى يتحقق الترابُط العالمي، كما لا يسمح قانون الإسكان بأكثرَ من أربعِ سنواتٍ حتى يسكن الجميع. وبعد عامٍ انتقلتُ إلى البيت الألماني لأني أدرس الفلسفة الألمانية؛ ولا بد أن أعيش مع الطلبة الألمان كي أكسب مزيدًا من المهارة في اللغة الألمانية. ومكثتُ في البيت الألماني ثلاث سنوات (١٩٦٠–١٩٦٣م)، وبالفعل زادت مهارتي في الحديث باللغة الألمانية، وانتخبَني الطلاب رئيسًا لاتحاد الطلاب الألمان. وجاءت زيارة الرئيس الألماني لوبكه Lübke ورحَّبتُ به باللغة الألمانية، فاستغرب! مصريٌّ رئيسٌ لاتحاد الطلبة الألمان يُلقي خطابًا بالألمانية ترحيبًا بالرئيس الألماني! ورَدَّ عليه الدكتور شتيفن Steffen مدير المنزل: هذه هي الديمقراطية. وفي المدينة الجامعية حيث يقطُن طلاب العالم كُلِّه تطوَّرَت شخصيَّتي وتفتَّحَت، فانتقَلتُ من المرحلة الرومانسية إلى المرحلة الواقعية بعد عدة صَدَمات؛ ففي غُرفة الدراسة في بيت الولايات المتحدة، كانت هناك طالبةٌ في غاية الجمال تجلس بجواري على المائدة المُجاوِرة وبيننا الباب، ينظر كلٌّ منا إلى الآخر دون حديث، وفي يوم رأيتُها وقد التقَطَها طالبٌ مغربي، وكانت هي من فنلندا، فنَدِمتُ على تأخُّري في التعرُّف عليها. بعد ذلك تَعرَّفتُ على أمريكيةٍ كبيرة في السِّن ضخمةِ الجُثَّة ودعوتُها إلى غُرفتي في بيت ألمانيا، فقَبِلَت بسهولة. ولما دَخَلتِ الغُرفة ورأت حالي المتواضع، لا عربة ولا منحة ولا سكن وبمجرد جلوسي بجوارها على الكنَبة قَذفَت بالملابس، وقرَّرَت المُغادَرة، فاستَغرَبتُ. ومرةً رأيتُها مصادفةً بشارع راسباي Raspail في تقَاطُع بول ميش وهي تسير مُعجَبةً بنفسها لَعلَّها تُرزَق بصديق، فذهبتُ إليها وهي تَعبُر الشارع ودون أن أشعر لَكَمتُها، وأنا الشرقي الذي لا يُطيق الهُجران، فرآني أحد الفرنسيِّين المارِّين الرياضيِّين، هُرِعَ إليَّ وضربني لَكْمةً كادت أن تُخرج فكِّي من وجهي قائلًا: هكذا أنتم يا أهل الشرق تضربون نساءكم، أمَّا هنا في فرنسا فذلك جريمةٌ كبرى، وتحاوَرنا نحن الثلاثة حول

هذا الدرس. ومرةً أخرى رأيتُها مع فيتناميٍّ قصيرٍ رفيع، فسألتُ من هذا؟ فقالت لديه موتوسيكل وسكن ومال وسنجوب فرنسا محافظةً محافظةً سَويًّا، فتمنيت لها التوفيق. وكنتُ مُعجبًا بطالبةٍ ألمانية أخرى ذاتِ أنوثةٍ أخاذة، وانتَظَرتَ هذا المصري الألماني أن يُبادر، فلم أفعل، فالتقَطَها لبنانيٌّ كان أخوه معنا في المنزل، ووعدها بالزواج ثم خَدعَها، وتركها في أثينا حيث أَخَذ الباخرة إلى بيروت، وعادت إلى ألمانيا كَسيرةَ القلب، لديها فكرةٌ سيئة عن العرب الخادِعين، وحزِنت. وفي هذه المرحلة الرومانسية كانت تدعوني بعض العائلات الفرنسية للعشاء عشَمًا في زواج ابنتها، فكنت أَذهبُ وآخُذ الورد مما كان يُكلِّف الكثير، وعلى العشاء في الساعة السادسة تنتهي منه في العاشرة. والابنة ذهابًا وإيابًا إلى المطبخ كما هو الحال في الأفلام المصرية تُحضِر صينية القهوة دون أن ترتبك. واعتَرفَت لي الوالدة مرةً بأزمة الزواج في فرنسا، فإذا وَضَعت المال في كفَّة وابنتها في الكفَّة الأخرى لِشابٍّ لاختار كفة المال، ونظل نرغي في مثل هذه الموضوعات التي تهمُّ الأُسرة ولا تهمُّني هذا الوقت الطويل، وأُصاب بالصُّداع، وتقول والبنتُ وهي تُودِّعني إلى الباب: نرجو أن نَراك مرةً أُخرى، فأقول: إن شاء الله، آمُل كذلك، ولا يَرونَ وجهي بعد ذلك، مع أن العروس تجمع بين المال والجمال. حدَثَ ذلك أكثر من مرة، وأحتار بين قَبول الدعوة إلى العَشاء وما يتعلَّق بها أو الاعتذار، وقُلتُ في نفسي: ليتها عَرفَتني فتأخذ فكرة عن الشهامة العربية. وتَعرَّفتُ على طالبةٍ ألمانية نشِطة، كانت تُريد الزواج، وهو ليس في ذهني، فتَركَتني إلى طالبٍ ألماني فصُدِمت، وبعد خمس سنواتٍ أتت إلى باريس، فدَعَوتُها إلى غرفتي، وانتظرت هي عريس المستقبل فلم تجِد إلا شابًّا شقيًّا، يفعل ما يفعله جميع الطلاب، فخَرجَت ولم أَرَها بعدها؛ فلم تَعْلم أنني قد تغيَّرتُ، وأنني لم أَعُدِ الشاب الرومانسي القديم، ثم كَتبَت لي بعد عودتي إلى القاهرة بعد أن قَرَأَت عني في الصحف الألمانية، فردَدتُ عليها بالذكريات الجميلة التي انتهى عصرها. وكان مَبدئي في ذلك الوقت: صادِق أجنبيةً وتزوَّج مصرية، وإلا فلِمَن تُترَكُ المصريات؟ ثم عَرفتُ ألمانيةً أخرى من البيت الألماني كان يحُوم حولها الكثيرون، وظلَّت معي لمدة عام، لم تكن ذكية، عادت بعدها إلى موطنها الأصلي في ساربروكن Saarbrücken ثم عادت إلى باريس بعد عامٍ لتعرف موقفي، وبعد أن بيَّنتُ لها أَنْ لا موقف لي إلا العلم، قالت: يا عبيط! وعادت إلى ألمانيا، ولم أَرَها بعد ذلك. والألمانية الأخيرة التي عرفتُها وأنا في باريس ظلَّت معي حتى عُدتُ إلى مصر، وجاءت بعدها إلى مصر لزيارتي، وطلبت من والدتي أن أتقدم لها ووافقَت والدتي، فأجابتها: ولكنه لا يريد، وذَهبَت بمفردها إلى الأقصر وأسوان، ثم رأيتُها

في إحدى زياراتي إلى باريس، وتصوَّرَت أنها ما زالت صديقتي، فاستَغربتُ؛ فإن الزمن قد وَلَّى، ثم تلقَّيتُ منها رسالةً أخيرة بعد أن قَرأَت عن فكري في إحدى الصحف الألمانية، ذاكرةً إيَّاي بالاسم بأنني أصبحتُ من كبار مُفكِّري الوطن العربي من خلال مشروع «التراث والتجديد». ردَدتُ عليها وشكرتُها، ولا أظن في العمر بقيةً حتى نَتذكَّر ما مضى. وقد ازدادت معرفتي باللغة الألمانية منها على مدى أربع سنوات، وزُرتُها في هيلدسهايم Hildesheim، وتعرَّفتُ على أخيها المزارع ومُربي الخنازير. زُرتُ معها أرجاء فرنسا في الصيف وألمانيا وإسبانيا، تَسُوق عربتها، ثم نقتسم باقي المصاريف مُناصفة. وفي ليلةٍ استيقظتُ على ضَجَّة في المزرعة، فأيقظتُها وسألتُ: ما هذه الضَّجَّة؟ فقالت: مجرمون لُصوصُ الخنازير. فقلتُ: ولماذا لا يطاردهم أخوك؟ قالت: لأنهم مُسلَّحون قتَلَة، والأفضل أن نَفقِد خنزيرًا أو اثنَين على أن نفقد أخي، فتساءَلتُ في نفسي: أين الشجاعة الألمانية؟

وبعد أربع سنواتٍ إقامة بالمدينة الجامعية أقمتُ سنتَين بِغرفةٍ مزدوجة مع مبعوثٍ مصري في القانون الدستوري، وكان لديه صديقةٌ روسية يقضي لدَيها عُطلة نهاية الأسبوع، وأخرى فرنسية التي كان يراها وسَط الأُسبوع والتي زارته في مصر رغبةً في الزواج منه، وكانت جميلةً شقراء. وكانت لها صديقةٌ فرنسية حاولتُ مُصادقتَها فلم أفلح بالرغم من جمال تسريحتها الأسبوعية؛ فلم أكن أستطيع التعرُّف عليها ولو حتى الصداقة. وكانت له صديقةٌ طياري ثالثة جاءته مرة لزيارته. ولم يكن موجودًا، فقالت وماذا أفعل الآن؟ فأجبتُ أنا موجود، فأجابت أيكما يقضي الأمر، ويقوم بالواجب. وأَدركتُ حاجة المرأة للجنس بصرف النظر عمَّن يقوم به. وكانت الصديقة الروسية تَوَد الزواج به بعد أن كان يقضي عُطلة الأسبوع في منزل والدَيها، وتُقدِّمه لهما على أنه صديقها، ولَّما لم يحدث ذلك قاطَعَته، فحَزِن حزنًا شديدًا، ولم يُفرغْ حُزنَه وهمَّه إلا صديقتُه الفرنسية. وبعد أن استنفدت جميع حقوقي كطالب في المدن الجامعية، سكنتُ من جديدٍ في دانفير روشيرو آخر عامٍ في غُرفة السطح، وما زال اسمي على لوحة أسماء السكان للبريد؛ فالصداقة لها حقوقها مثل الزواج في بلادنا؛ فلا تجوز خيانتها. وفي السنة الأخيرة تَعرَّفتُ بالمصادفة على فتاةٍ فنزويلية قصيرة سمراءَ ولكنها مملوءة بالحيوية، تعلو فوق وَجهِها ابتسامةٌ شرقية. ولَّما كُنتُ من أنصار لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية دَخلَت قلبي في التَّوِّ واللحظة. دعوتُها إلى غُرفتي فاستَجابَت، وكانت على علاقةٍ بفرنسيٍّ يبدو أنه وعدها بالزواج. عَلَّمَتني الحياة. كَوَّنَت شخصيتي التجارب. ولا أدري إذا كنتُ قد أَحسنتُ.

وبالرغم من أنني تَزوَّجتُ عن حب وكُنتُ مُوفَّقًا في زواجي، وكانت زوجتي مَوضِع ثقةٍ وتملأ عليَّ حياتي إلا أنني كُنتُ أشعر بين الحين والآخر ببعض الضعف تجاه الجنس الآخر، فأتذكر قول الرسول «إن قلب المؤمن بين إصبعَين من أصابع الرحمن يُقلِّبه كيف يشاء.» عندما شَعَر بشيءٍ تجاه امرأةِ زيدٍ ابنه المُتبنَّى، فأَسرَعَ بالخروج. حدث ذلك لي عِدَّة مراتٍ عندما بَهرَتني مُخرجةٌ مسرحية بشخصيتها وفنها بل وعقليتها في المسافر خانة، فكُنتُ أذهب للعرض المسرحي كل يوم، وأَنفعِل كفنَّانٍ بالغناء المسرحي وأنا الموسيقيُّ القديم، ثم اكتشفتُ استغلالها مُقدَّمًا. أتاها ضيوفٌ أجانب فدَعَتني، وأخذنا العَشاء على النيل، وطبعًا دفعتُ التكاليف، كانت تَستغِلُّني، فأخبرتُ زوجتي التي كانت تُضحِّي بنفسها من أجلي. ومرةً أُخرى دَعَتني جامعة الإمارات على العَشاء في قَبوِ فندق يسيل الماء من أعلاه، وكانت بجواري فلسطينيةٌ ذاتُ رداءٍ بلا أكمام، أرى ذراعها الأبيض وصَمْتها كالمَلاك، وفي نفس الليلة كان تلميذي قد دَعاني إلى العَشاء بمنزله على خروفٍ مشويٍّ واقف، وفاجأني بالدعوة ليلتها طبقًا للتقاليد، وكان ذراع الفلسطينية الأبيض الغَض يَجذِبني أكثر من الخروف الذي لا أراه. وهنا أدركتُ أهمية الإدراك الحسي كما لاحظ ميرلوبونتي في «ظاهريات الإدراك الحسي»، فغَضِب مني الطالب، ولم تَشعُر بي الفتاة الفلسطينية. ومرةً ثالثةً جذبتني امرأةٌ بيضاءُ ضاحكة بالرغم من قِصَرها تعمل في الإعلام، حاوَلتُ أن أراها عِدَّة مرات، ولكن لم يعُد لدَيَّ ولا لدَيها وقتٌ لذلك، فأخذ الزمان ما أَحضَر؛ فكلما رأيتُ امرأةً حتى لو كانت شغَّالةً أو امرأةَ بوَّابٍ أكون لطيفًا معها، أُمازِحها بلا أي هدف مما كان يُغضِب زوجتي أحيانًا، فأقول لها هذا هو الطابع الفرنسي، اللطيف مع النساء ومغازلة المرأة من حيث هي امرأةٌ دون أي قصدٍ أو هدف. وعلى النقيض من ذلك كُنتُ عندما أزورُ باريس أذهبُ إلى شارع القدِّيس دينيس Saint Denis وأرى النساء واقفاتٍ على الصفَّين. شجَّعَني أحد تلاميذي مرةً فتَعرَّفتُ على واحدة، وكانت عربية؛ فالدم يحن، ومرةً أخرى فرنسية، أدَّت دورها بحرفيةٍ دون عواطفَ أو انفعالات. وكنتُ أستمع إلى اللغة العامية الفرنسية الشعبية فأَتعلَّم مُصطلحاتِها وشتائمها إذا ضايقَني أحد، مُجرَّد فُرجةٍ بلا شِراء. وقد يكون الغَزَل بالكلام تعويضًا عن العَجز بالفعل.

حزِنتُ لِوضعِ الطالبات المصريات وحِصارِهنَّ بين التقاليد القديمة ومُتطلَّبات الحياة العصرية؛ فلا هن يستطعن أن يُقلِّدن الطالبات الغربيات وسَط زميلاتهن الغربيات،

ولا هن يستطعن أن يُقلِّدن زميلاتهن الغربيات وسط زميلاتهن المِصريَّات. ومن حاولت ذلك — الصمود بين القديم والجديد معًا — أُصِيبت بمرضٍ عقلي؛ فمع مَن ستقضي نهاية الأسبوع؟ لم يَبقَ لها إلا حُجرتها ذات الأربع حيطان تُحادِث نفسها؛ فلو خَرجَت بمفردها وسارت في الطريق أو جَلسَت في مقهى يَتقرَّب إليها الشباب، إن حادثت يطلبون المزيد، وإن صَمتَت يهجرونها إلى غيرها. وقد حدَث نفس الشيء للشباب أيضًا الذين لا يريدون التوافق مع ضرورات العصر، كما حدَث لِشابٍّ عندما رأى ابنة أستاذه مرةً وهو يزوره، فتَصوَّر أنه يُحبها وأنها وَقعَت هي الأخرى في حُبه، وانتهى من الرسالة وناقَشَها وعاش أَعزَبَ، فإذا سُئل: لماذا لم تتزوج؟ قال: إنه ينتظرها. هل تحادثتَ معها أو راسلتَها أو تعلم بوجودك؟! قال: لا؛ فالحبيبان يشعر كُلٌّ منهما بالآخر. وقد تزوَّجَت وأَنجَبَت، وهو ما زال أَعزَبَ، في الانتظار.

كنتُ آكل بمطاعم المدينة الجامعية، ويقتضي ذلك كارنيه مع صورة، وكان يقتضي شهادة نجاحٍ، مدته ثلاث سنوات يُجدَّد مرةً أخرى. ولَمَّا كُنتُ أُعِد رسالة فكان ريكير يكتب شهادةً بخط يده أنني أُعِد معه رسالة، ولم تنتهِ بعدُ، فأحصل على الكارنيه. وكانت تذكرة الطعام بسبعة قروش ونصف، فإن كنت طالبًا فقيرًا أعطَوني تخفيضًا لِتُصبح التذكرة بأربعة قروش ونصف، وإن كُنتُ فقيرًا جدًّا أعطَوني تخفيضًا ثانيًا وتُصبِح التذكرة بثلاثة قروش ونصف. وكنتُ آكُل مرةً واحدة في اليوم، هي وجبة الغذاء، وأَذهَب في نهاية الفترة التي تبدأ في الحادية عشرة والنصف وتنتهي في الواحدة والنصف عندما يُترك ما تبقَّى من طعام، يأخُذ منه الطالب ما يشاء. وكنتُ أَبيعُ التذكرة التي كان ثمنها ثلاثة قروش ونصف على باب المطعم بسبعة قروش ونصف، وهو السعر العادي، وأَكسَب كل يومٍ أربعة قروش. ومرةً أَحرجَني طالب فرنسي قائلًا: أنت تاجرٌ جيد، وهو لا يعلم أنني أفعلُ ذلك بدافع الفقر. ومرةً رأيتُ طالبًا يَبيعُ تَذاكِر المطعم بنصف الثَّمَن، وأنا تذاكري بنصف الثمن عن طريق المشرفة الاجتماعية التي كانت تَرى مَلابسي، فتُوافِق على الفَور. سَألتُه: كيف؟ فقال إن الموظف الذي يأخُذ التذاكِر قبل أن آخُذ صينية الطعام يضعها خرقًا في عامودٍ معدني طويل كي يرميها بعد ذلك، وكان لا يرميها، بل يضع قليلًا من الماء مكان الخُرم، ثم يكويها، فتعود صالحةً للاستخدام مرةً ثانية، وكأنها جديدة، فعَرفتُ أن الفساد عند الأوروبيِّين أيضًا، وليس كما نَتصوَّرهم أُمناءَ شُرفاء، ولم أشأ أن أقول للطالب الذي يبيع التذاكِر المُستعمَلة كما قِيل لي: «أنت تاجرٌ ماهر.»

وكانت المطاعم نوعان: الأَوَّل مطاعمُ عاديةٌ للأَصِحَّاء. والثاني مطاعمُ خاصةٌ للمرضى الذين يحتاجون رعايةً خاصةً زائدة Diedetique. وكانت الأَخِصَّائية الاجتماعية هي التي تُقرِّر لأي نوعٍ تُستحَق؟ وما إن تراني بِوَجهي المُعظَّم حتى تُوافِق على إعطائي بِطاقةَ المرضى. وكانت نوعان من البوفيه المفتوح: آكُل كُلَّ ما أشاء من لحوم أو أسماك، وأشرب اللبن وليس الماء كما أشاء. وكان مُعظَم الرُّوَّاد من الأفارقة المتمارِضِين. وكان المَطعَم يُقدِّم لحمًا آخَر غيرَ لحمِ الخنزير إذا قلتَ للتي تغرف إنكَ من المُسلِمِين. وكانت تتعرَّف عليهم بِسَمارِهم أو سَوادِهم؛ فلم يكن يُوجد مسلمون بِيضٌ في هذه الأيام. فإذا قال طالبٌ أبيضُ إنه من المسلمين لأنه لا يحب لحم الخنزير نظرت إلى عينَيه وابتَسمَت؛ أي إنها تعرف أنه من غير المُسلِمِين ولكن «معلهش»، فأعطته ما يريد إذا كانت «بنت حلال». أمَّا إذا كانت قاسية القلب فإنها ترفُض، وتطلب منه أن يَتقدَّم بسرعة ولا يُجادِل لأن الطابور وراءه طويل. وكان ذلك بداية ظهور «كَرشِي» الذي لم أستطع التخلُّص منه إلا وأنا في حالة مرضي الحالية حتى نقَص الهيموجلوبين، وأُحاوِل رَفْعه من جديد. وكان مطعم المرضى في محطة لوكسمبرج للمترو قبل أن يتم تجديدها بالتذاكر المُغنَطة وليس بعاملةٍ تَخرِقها. كانت مطاعم الجامعة تُقدِّم الغَداء والعَشاء دون الإفطار، فكُنتُ لا أُفطر، وأكتفِي بكوبٍ من الشاي واللبن في أنبوبةٍ كالدواء. وكانت الكوب مُستعمَلةً لا أغسلها إلا إذا حضر أحد الضيوف. وكنت أترك درَّاجتي مربوطةً على باب المبنى في عامود. وفي مرة في الصباح وَجَدتُ أن العجلة الأمامية قد سُرقت كما يحدث في مصر دون جِسمِ الدراجة المربوط. وأَفهَمَني الزُّملاء كيفية ربط العَجلة من الأمام أو العجلة الأمامية مع جسم الدراجة في العامود؛ فالسرقة تَتعدَّى حدود الأوطان. والوطن يبقى في القلب وإن هاجَر الجسد.

وفي نفس الوقت الذي أُدبِّر فيه حياتي الشخصية كنت أَكتُب مشروع الدكتوراه، الرسالة الكبيرة أو الأُولى «المنهاج الإسلامي العام» La Méthode Islamique Générale. وقَدَّمتُه إلى هنري لاوست الذي كان أستاذًا بالكوليج دي فرانس Collège de France والتي كانت تُعطي العِلم دون الدرجات العلمية، والتي كانت نشأتها منافسةً للسربون وراعيةً للفِكر الحر في مُقابل الفِكر التقليدي. كان فيها برجسون وميرلوبونتي وريتان وماسنيون. فقرأه وأُعجِب به، ولاحَظَ نقص المُصلِحِين؛ فهو مُؤرِّخ، يهتم بالتاريخ، وليس فيلسوفًا تجذبه الأفكار. وكُنتُ قد كَتبتُ مُقدِّمةً تاريخيةً طويلة عن مُفكِّري الإصلاح الديني؛ فقد كُنتُ أعتبر نَفسي امتدادًا لهم مع مَزيدٍ من الجرأة والشجاعة، فعَرضتُه على

ماسنيون، وكان أيضًا أستاذًا بالكوليج دي فرانس فأُعجِب بالأفكار وسألني: ألم تقرأ أصول الفقه الذي أَوصَى عندكم مصطفى عبد الرازق بقراءته؟ ودَعاني إلى منزله كُلَّ يومٍ في مكتبته للاطلاع على علم أصول الفقه؛ فبحثي «المنهاج الإسلامي العام» أَقربُ إلى مُحاولةٍ في عِلم أصول الفقه. وكان يقوم على تَصوُّرَينِ، ثابت Statique ومُتحرِّك Dynamique. والثابت يتكون من عُنصرَين، التصوُّر Concept والنظام Ordre. والنظام يتكون من شيئَين، الطاقة Énergie والحركة Movement. وأدركتُ فيما بعدُ أنَّ التصوُّر هو علم أصول الدين، والنظام هو علم أصول الفقه. أمَّا الطاقة والحركة فيقَعان في التصوف. وكانت قراءتي الشاطبي في «المُوافَقات» فتحًا جديدًا، ثم «المستصفى» للغزالي الذي تغيَّرت صورته في ذِهني من الصوفي إلى المنطِقي الأصولي. وكُنتُ قد سَمِعتُ عن العلم ولكني لم أقرأه، وسَمِعتُ عن رسالة علي سامي النشار في «مناهج البحث عند المسلمين»، رسالته للماجستير بتوجيهٍ من أستاذه مصطفى عند الرازق، ولكني لم أقرأها. وذَهبتُ إلى كوربان Corbin الذي كان يجمع بين الفلسفة والدراسات الإسلامية والتصوُّف الشيعي. ولاحظ أن الموضوع هو «التأويل». وكان هو المُستشرِق الذي يَتخصَّص في التشيُّع والفيلسوف الذي كان أَوَّل من تَرجَمَ أَجزاءً من «الوجود والزمان» لهيدجر إلى الفرنسية، ثم حَذَّرني ماسنيون من كوربان قائلًا: حَذارِ من التأويل الشيعي الباطني الذي قد تتُوه فيه، ونَصحَني أن أظل في عِلم أصول الفقه؛ فهو عِلمٌ عقليٌّ مضبوط. واتفَقنا على أن يكون الموضوع «مناهج التأويل: دراسة في علم أصول الفقه» Les Méthodes d'Exégèse, Essai sur la Science des fondements de la compréhension, Ilm Usul Al Fiqh، ثم طلَب من برنشفيج مدير مركز الدراسات الإسلامية أن يُسجِّل الموضوع تحت إشرافه لأنه جزءٌ من السربون. وقرأ الفلاسفة الخطَّة، فقال جان فال: إني أُحب الإسلامَ ولكني لستُ مُتخصِّصًا فيه. وقرأ جان جيتون الخطة فقال هذا برجسون، الطاقة والحركة، ولكنه ليس مُتخصِّصًا في الإسلام، لا يستطيع أن يُشرِف عليَّ، وحَوَّلني إلى رينان الذي جمع بين الاستشراق والفلسفة الهيجيلية. ولَّما رأى ماسنيون هيئتي المُتواضِعة سأل: كيف أعيش؟ فقلت له: بلا شيء. وكانت العلاقات بين مصر وفرنسا مقطوعةً بسبب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، ومع ذلك كتَب إلى أندريه ميكيل بالعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية أن لدَيه طالبًا ممتازًا يُحِب أن يَحصُل على منحةٍ دراسية. ولما كان ذلك ممنوعًا رسميًّا أُعطِيَت لي نِصفُ مِنحة عشرون جنيها، بدلًا من أربعين عام ١٩٥٩م، ثم تَحوَّلَت إلى منحةٍ رسمية بعد أن أُعيدت العلاقات مع مصر عام ١٩٦٠م حتى عام ١٩٦٤م. وفي

نفس الوقت عُيِّنتُ مُدرِّسًا لِلَّهجةِ المصرية في مدرسة اللغات الشرقية الحية مع كساب، سوري الجنسية، لتدريس اللهجة الشامية، مع لوسيرف Le Serf. وكُنتُ أَذهَب إليها كل يومٍ لِعِدةِ ساعاتٍ في الأسبوع، بالإضافة إلى ما كُنتُ أُترجِمه من وثائقَ صغيرةٍ من العربية إلى الفرنسية، التي كان يَتركُها حاجب المحكمة الفرنسية كوثائقَ مُقدَّمة إلى القاضي، ثم يدفع إليَّ ثمنها في المرة التالية، دون أن ينتظر بوَّابُ المبنى أي «بقشيش». وكُنتُ أُخصِّصها لِشراءِ النُّصوص الفلسفية. وكان تعليم اللهجات يتم عن طريق سَماعِ الطلاب مقتطفاتٍ لعبد الحليم حافظ أو أم كلثوم أو لمشاهير المُغنِّين الشعبيِّين المصريِّين أو السوريِّين. وكانت هذه أَوَّل مرةٍ أُحِب فيها الغناء الشعبي بينما كنت مُتعوِّدًا على الموسيقى «الكلاسيكية» الغربية مثل بيتهوفن وشرقية مثل سيد درويش. ولَمَّا أتى المشير إلى باريس ١٩٦٥م، وشَكَونا إليه قَطع المِنَح أعطت مصر العشرين جنيها حتى عُدتُ عام ١٩٦٦م. وكُنتُ أَعبُر نهر السين من مدرسة اللغات الشرقية حتى المكتبة الوطنية Bibliothèque National مارًّا بمسرح الكوميدي فرانسيز Française Comédie إلى المكتبة الوطنية حيث كُنتُ أقرأ مخطوطاتِ علم أصول الفقه، وأتغدَّى في مَطعَم الجامعة المجاور، وأركن رأسي على ذراعي على المنضدة مُستلقِيًا بعض الشيء، أقوم بعدها للوضوء والصلاة في دورة المياه النظيفة، وأستمر بها حتى السادسةِ مساءً، وهي أغنى بكثيرٍ من مكتبة السربون؛ أي كلية الآداب. وكان الطلبة يذهبون إلى المقهى المُجاوِر أمام المكتبة لِشُرب القهوة بعد الغداء وأنا لا أستطيع دَفْع ثَمنِها. وعَرفتُ مصطلح القهوة السوداء Café Noire. أما Cappuccino فلم أَجرؤ الاقتراب منه أو طلبه لأنه أغلى ثَمنًا. وكان المقهى مكانًا لِلتعارُف بين الدارسِين لِلصَّداقات الوقتية أو الدائمة مثل مطاعم الجامعة.

وبالنسبة للرسالة الثانية كَتَبتُ خطَّة تُقارِن بين الدين العقلي والدين الوجودي عند كانط وكيركجارد، ثم أتينا مع بول ريكير فيما بعد أنَّ فِكري أَشبَهُ بظاهريات التأويل وتأويل الظاهريات، فسجَّلتُ الرسالة الثانية بعنوان «من تأويل الظاهريات إلى ظاهريات التأويل». ولَمَّا قرأ دي جانديك De Gandillac الخُطتَين قال إنه مُتخصِّصٌ في فلسفة العصر الوسيط، ورفض أن يكون الإسلام جزءًا منه لأن له مساره التاريخي الخاص. وتَكوَّنَت لجنة المناقشة من مُستشرِقَين؛ لاوست الإصلاحي، وبرونشفيج الفقيه، وفيلسوفَين غربيَّين؛ بول ريكر الظاهرياتي، وجان جيتون البرجسوني، ورئيس اللجنة دي جانديك الذي يجمع بين الفلسفة والاستِشراق. وهَدَّدهم جيتون إن لم يُناقشوني كفيلسوف ويُحاورونني كمُفكِّر وليس كمُؤرِّخ فسيُغادر اللجنة، فاقتنَعوا ولم يجرؤ أَحَدٌ

على أن يقول لي هذا ناقص أو ذاك زائد. واستَمرَّت المُناقَشة من الواحدة حتى السابعة مساءً مع نصف ساعةٍ استراحة بين الرسالة الأولى والرسالة الثانية. وأقام مركز ريشيليو Centre Richelieu في ميدان السوربون، وهو مركزٌ ثقافي كاثوليكي، حفل استقبال للأساتذة المناقِشِين الخمسة والطلاب. وحضر إتين جيلسون مُؤرِّخ فلسفة العصر الوسيط الشهير، وكان تقليديًّا محافظًا مثل أستاذنا جان جيتون؛ فالحقيقة لديه في العصر الوسيط. كل ما قاله العصر الحديث بالنسبة للمسيحية انحرافٌ عن توما الأكويني، وهو الحق ودونه الباطل. وأنا على العكس، ما قاله العصر الوسيط عن المسيحية اجتهاداتٌ للقضاء على اغتراب المسيحية في العصر الوسيط. لم يبتسم ولم يجلس حتى النهاية؛ فالجو ليس جوه، والعالم ليس عالمه. بَدأَت مناقشة الرسالة الأولى «مناهج التأويل في علم أصول الفقه»؛ بدأها لاوست بإبراز معلوماته عن الحركة الإصلاحية ثم برنشفيج المُشرِف بإبراز معلوماته في الفقه، ثُم عُقِدَت الاستراحة والحضور يصيحون عجبًا، ولا تُقدَّم مشروباتٌ أو مُرطِّبات لِلحُضور أو للمنصَّة أو تُوضع الورود كما هو الحال في مصر، ثم بدأت مناقشة الرسالة الثانية «من تأويل الظاهريات إلى ظاهريات التأويل» ناقشها ريكير بهدوئه وعِلمه ودِقَّته في اختيار المُصطلَحات، ودي جانداياك رئيس اللجنة بين الحين والآخر يُعلِّق على ما يسمع، ثم انسحبَت اللجنة كالعادة وعادت لِتُعلِن حصولي على دكتوراه الدولة Tres Honorable Doctorat d’Etat وهي أعلى تقدير. وقالت إن هذه رسالة بمعنى الكلمة؛ أي تحمل قضيةً مثل رسالة الأنبياء.

كنت أُريد تسجيل المناقشة منذ البداية وأَحضرتُ جهاز التسجيل للقسم في ذلك الوقت، فمنع رئيسُ اللجنة التسجيل لِأَن هذا ضد قواعد المناقشة، فرَجَوتُه أن يتركه للذِّكرى ففَعل. وتَوقَّف التسجيل في منتصف المناقشة فأغلقه الصديق رشدي راشد، فأَعدتُ تشغيله، راجيًا رئيس اللجنة أن يتركه لِلذكرى، وما زال عندي في مكتبتي الضخمة، يجده من يبحث عنه من الجيل الجديد. وتم الاحتفال بالدرجة العلمية، وأُفرِغَت الزجاجات. وكانت السوربون قرَّرَت لأَوَّل مرة أن تُطبع رسائل دكتوراه الدولة (الرسالة الأولى) قبل مناقشتها، والدولة الفرنسية تُساعد الطالب الفرنسي على طباعتها، أَمَّا الأجانب فتُعاوِنه فرنسا في إحدى دور النشر؛ المطابع الجامعية الفرنسية. وكَتبتُ إلى المجلس الأعلى لِلثقافة في ذلك الوقت برئاسة يوسف السباعي، فوافق على طباعة الرسالة الأولى في المطابع الفرنسية الأميرية، وأَرسَل لي زوج أختي الكبرى سيد حامد مائة نسخة بحرًا كما طلبتِ السوربون قبل المناقشة، وقد كان القائم بأعمال الأسرة كُلِّها. وكتَبَ لها

برونشفيج مُقدِّمةً يُقارِنُني بالفاروقي، وكانت هذه أَوَّلَ مرةٍ أسمع عنه قبل أن أُقابله في مصر أولًا مَدعُوًّا إلى قسم اللغات الشرقية عام ١٩٧٠م، ثم بالولايات المتحدة حيث عِشتُ أربعَ سنواتٍ معه. ثم طبعتُ أنا الرسالة الثانية بالفرنسية في مصر بعد العودة في الأنجلو المصرية «من تأويل الظاهريات إلى ظاهريات التأويل» في جزأين، ومهداة إلى بول ريكير مثال الأستاذ العقلاني المُتأمِّل الهادئ،[١] ثم تَرجمتُها بنفسي إلى العربية. وقد انتشرت الرسالتان في الغرب لِكل من يريد معرفتي، وبسرعةٍ جعلوني أنتسب إلى المنهج الظاهرياتي عند هوسرل. وعندما قَرءُوا كتابي بالإنجليزية «الإسلام في العصر الحديث» (جزءان) والحضارات في صراعٍ أم في حوار، انتشرت أفكاري، ونسبوني إلى لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية وآسيا، طِبقًا لمنهج الأثَر والتأثُّر، من المركز للأطراف.

وقد كتبتُ رسالتي الأُولى مرتَين: الأُولى كانت مُركَّزةً للغاية، وتصل درجة التركيز إلى درجة الألغاز؛ فلا يفهم العبارة إلا من كان يفهم الموضوع من قبلُ، فلمَّا قرأها المشرف برنشفيج قال: غامضة، وضِّح وفصِّل أكثر، فكتبتُها مرةً ثانية، فجاءت ردَّ فعلٍ على الصياغة الأولى، مُفصَّلةً للغاية بحيث أَفَضتُ في الفِكرة التي أُريد تَوصيلَها وسَطَ الرُّكام الهائل من التنسيق، وهو ما أُعاني منه حتى الآن. وتم حَلُّ هذا الصراع الطويل بين المستوى العلمي في التحليل المُسهِب الطويل والمستوى الثقافي المباشر الذي يدخل في الفكرة مباشرةً دون جُذورها وتطوُّرها وغايتها. وقد استغرب السيد يس من هذا الطالب الذي يكتب رسالتَيه مرتَين، وهو لا يستطيع كتابتها ولو لمرةٍ واحدة. وكتبتُ هذه الرسالة الثانية بهذه الطريقة العلمية المُوثَّقة، فخَرجَت في جزأين «تأويل الظاهريات» و«ظاهريات التأويل». الأَوَّل شَرحٌ للمنهج الظاهرياتي عند هوسرل وتلاميذه، وبيان كيفية تطبيقه في ظاهرة الدين انتهاءً بالتأويل. والثاني «ظاهريات التأويل، محاولة لتأويلٍ وجوديٍّ ابتداءً من العهد الجديد».

وإذا كان ماسنيون هو الذي أَرشَدني إلى علم أصول الفقه، وكوربان الذي اقترح موضوع «التأويل» وريكير هو الذي وضَع يدي على الظاهريات، فإن جيتون هو الذي

---

[١] L'Exégèse de la Phénoménologique, L'État actuel de la Mtéhode Phénoménologique et son aplication au Phénomene religieux, (Thése Dactylographiée) Paris, 1966.

La Phénoménologique de l'Exégése, Essai d'une Herméneutique Existentielle a Partir du Nouveau Testament (Thése DactylograPhiée) Paris, 1966.

علَّمني الفلسفة وتاريخها. هو مثل عثمان أمين في قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، يدخل كلامه إلى القلوب، الفلسفة لديه تجاربُ حيةٌ يعيشها الأستاذ وينقلها إلى الطالب. وهو من تلاميذ برجسون، كان يعطي ثلاث محاضراتٍ أسبوعيًّا: الأُولى لطلاب الفلسفة وتاريخ الفلسفة، ولم أفقِد واحدةً منها. كان أوغسطينيًّا، فكانت رسالته للدكتوراه «الزمان والخلود عند أوغسطين وأفلوطين»؛ فالزمان موجودٌ لا يتجزأ. منه تعلَّمتُ تاريخ الفلسفة، وكان يوم الإثنين صباحًا. والثانية حلقة بحث للدراسات العليا، يتكلم فيها الطلاب، ويعترض الأستاذ، كان ذلك يوم الإثنين من العاشرة حتى الثانية والثالثة. ومحاضرةٌ عامة يوم الأربعاء مساءً لمحبي الفلسفة، وكان يعرض ما يأتيه من رسائلَ من المُستمعِين؛ فالفلسفة رسالة وليست مهنة. طلَب مِنِّي مرةً أن أَعرِض موضوعا لطلاب الليسانس وهو بجانبي، عن إسبينوزا، كما فعلتُ مع تلميذي علي مبروك فيما بعدُ، فعَرضتُه داخل إطار الفلسفة الغربية، والفلسفة الغربية داخل إطار الفلسفة العامة ومنها الفلسفة الإسلامية، والفلسفة داخل مسار الحضارات، والحضارات مُتغيِّرة، تنهض وتسقط مثل الحضارات الشرقية الصينية والهندية والفارسية ثم اليونانية والرومانية ثم الإسلامية ثم الغربية، وسطى وحديثة، وهو ما أصبح فيما بعدُ «مقدمة في علم الاستغراب». أُعجِب الأستاذ بِسَعة أُفق الطالب، واتخذني صديقًا له، وليس فقط طالبًا. وكان لوي ألتوسير مُؤسِّس البنيوية أحد تلاميذه وموجودًا في مستشفى الأمراض العصبية، فأخذني معه لزيارته، وكانت معه صديقته، وقارَنتُ بسرعةٍ بين مرضانا ومرضاهم وحقوقنا وحقوقهم. ظنَنتُ أننا سنتكلم في البنيوية ولكنها كانت زيارةً وديةً خالصة، وفضَّل الذهاب مع صديقته عن البقاء معنا، وتطَوَّرَت الصداقة بيننا حتى بعد أن عُدتُ إلى أرض الوطن في يونيو ١٩٦٦م. قدَّمني إلى الدوائر الفلسفية الباريسية خاصة ١٠٤ شارع تورنون وهي جماعةٌ فلسفية أَخرجَت كتابًا عنه. وهو الذي قدَّمني إلى البابا يوحنا بولس أثناء انعقاد الدورة الرابعة للمؤتمر الفاتيكاني الثاني، وقد كان صديقًا له عندما كان الكاردينال مونتيني كاردينال ميلانو، وكان ذلك في عام ١٩٦٤م. وطلَب مني البابا بولس السادس أن أجلس مع الجماعات المُتخصِّصة لكتابة بيان الكنيسة عن الديانات غير المسيحية، ولِأَوَّل مرة أجلس مع الكرادلة بأروابهم الحمراء في بدروم الفاتيكان، ونحن نتناقش في الموضوع. ورأيتُ انفتاحًا اشتُهر به المؤتمر الثاني والعشرين الذي بدأه يوحنا الثاني قبل أن يُتوفَّى. وسألتُ أحد الكرادلة الأفارقة: كيف تُناقش موضوعًا وأنت غير مُتخصِّص فيه؟ فأجاب: إن الرُّوح القدس تُجيب بدلًا عني! وأنا عندي العلم وليس الرُّوح القدس. ومع ذلك خرج

بيان الديانات غير المسيحية يعترف لأوَّل مرة ربما بالأديان الأخرى، مُوحًى بها أو غير مُوحًى بها. وأُنشِئَت سكرتاريا لِغير المسيحيِّين كان جيتون أوَّل من يرأسها، ويفخر بأن تلميذه يُشاركه فيها. وأُعطيتُ مِنديلًا أبيضَ عليه شعار البابا هديةً من المؤتمر، وأقمتُ في روما عند عائلةٍ إيطالية، وأهديتُها مُجلَّدًا عن مصر الفِرعَونية. وأهداني البابا بولس السادس الأناجيل المتقابلة وكَتبَ عليها: «فليكن الله معك.» Que le Seigneur soit avec Vous وقد دعاني جيتون إلى مَسقَط رأسِه بِوسَط فرنسا لإحدى الاحتفالات بعيد ميلاده في كليرمونفيران Clermont-Ferrand. ولَّما تَوفَّت زوجته ماري تيريز، قامت بالعناية به بعدها شابةٌ بولندية شقراء. وفي كل مرة أكون في باريس أزوره في منزله ١ ش فليريس Fleuris على جانب حديقة لوكسمبورج حيث كان يقطن أيضًا برجسون وبيير دي شاردان، وهما على طَرفَي نقيض. وظلَلنا نتراسل حتى قرأ في الجرائد الفرنسية تأسيس لاهوت التحرير الإسلامي Théologie Islamique de la Libération الذي تعلَّمتُه من جنوب أفريقيا في عصر التحرُّر من النظام العنصري الأبيض، وما كُتب عنه في الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت الكنيسة ضِده، وتتهمه بالماركسية بعد أن انتشر في أمريكا اللاتينية عند الرُّهبان الشُّبَّان مثل كاميليو توريز، والذي عُرِضَت أعماله في مصر، الذي كان يُمثِّل اليسار المسيحي مثل مونييه وريكير. وقد أَسَّسَا مجلة روح Espirt معًا، ثم أقام مونييه الشخصانية التي دَرسَها المُفكِّر المغربي محمد عزيز لحبابي ثم هشام جعيط من تونس فيما بعدُ، وبَدأَت مراسلاتُنا تقِل تدريجيًّا، وكنت أنقُد مشروعه الضخم «الفكر المعاصر والكاثوليكية» (١٢ جزءًا) دون توثيق لأنه كتب وهو في المعتقل في ألمانيا بعد أن أسره الألمان واحتلالهم باريس. كان من أنصار المارشال بيتان Pétain الذي تقهقر حتى وسط فرنسا في مُقابِل تَركِ باريس مدينةً مفتوحة، في مُقابل ديجول الذي انتقل إلى لندن وأَسَّس المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني، أخذ إلى فريبورج وحيث كان يعيش الفيلسوف الألماني هيدجر المتهم بالنازية. كان يرى أن يترك باريس مدينةً مفتوحة للألمان في مُقابِل عدم تحريرها والإفراج عن نصف المُعتقلِين من المُقاوَمة شفاعةً لهم بدلًا من إعدامهم كُلِّهم. وبعد نقدي له ونقده لي كانت آخر رسالةٍ منه صورةً له وفي ظهرها تَبريرٌ لموقفه. وما زالت ترن في أُذني آخر عبارة له: «كان يجب الرهان» Il faut parier. وما زالت هي الذكرى الأُولى من أساتذة باريس التي ما زالت في القلب، وإن بقي غيرهم في العقل مثل بول ريكير.

وفي إحدى زياراتي إلى ألمانيا على درَّاجة في هيدلبرج صَعِدتُ إلى أعلى «طريق الفلاسفة» حيث كان يسكن جادامر، فتَناقَشنا سويًّا في الهرمونطيقا. كان مُبتسمًا مُرحِّبًا، يُريد الإطالة في الحديث، وصَّلني إلى الباب، وأخذتُ درَّاجتي نزولًا في المدينة. رأيتُ البساطة والوضوح والتواضُع والكرم. صحيحٌ أنه لم يُقدِّم لي شيئًا أشربه كما كنتُ أتوقَّع، ولكن كان يكفي استقبالي وأنا لست شيئًا، وهو كل شيء. ورَجَعتُ إلى بيت الشباب، وكتبتُ ذِكرى اللقاء.

وكُنتُ في ألمانيا أبحث عن بيوت الشعراء والأدباء والفلاسفة والموسيقيِّين فأجدها جميعًا قد تَحوَّلَت إلى متاحفَ في ذكراهم أو انهَدمَت تمامًا مثل الكلية الحربية في فرانكفورت التي تخرَّج منها الشاعر شيللر. ورأيتُ منزل بيتهوفن في بون وفيينا، ونُزُل موزار في سالزبورج بالنمسا، أصبح مصنعًا للشيكولاتة؛ حيث وُضِعَت صورته على غِلاف القِطَع والعُلبة الخارجية. وذهبتُ إلى فرايبورج حيث عاش هوسرل وهيدجر. ومالبورج مكان المدرسة الفلسفية الشهيرة. ورأيتُ نورنبرج حيث تمَّت المحاكمات الشهيرة. من المدن من حافظ على طابعها التاريخي مثل المدن المذكورة، ومنها ما تم تجديده تمامًا مثل فرانكفورت وبرلين. استهواني الجنوبُ أكثر من الشمال، وبافاريا أكثر من همبورج.

وكُنتُ أَستمِع إلى فلاسفة فرنسا في ذلك الوقت، وكان الحضور عامًّا أو خاصًّا؛ إذ أعطى جان بول سارتر محاضرةً عامَّة استَغرقَت ثلاث ساعاتٍ بأكملها، وهو يتكلَّم ويتأمَّل في قاعة موبيرميتيواليتيه Maubert Mutualite، وسُمِّيَت محطة المترو المُجاوِرة على اسمها. كانت نظريةً مجردةً للغاية، وصعُب على الحضور فَهمُه. وبعد المحاضرة ذهبتُ إليه على المنصَّة، وأعطيتُ ما معي من كتابٍ كنتُ أقرأ فيه وهي بعض أعمال مارتن لوثر، فلمَّا نظر إلى الكتاب قبل أن يُوقِّع عليه قال لي باستعجاب وباستهجانٍ لا أدري: لوثر! وحَضرتُ محاضرات ميرلوبونتي في الكوليج دي فرانس بجوار السوربون والتي أنشِئَت لِمُنافستها. العلم للعلم وليس للدرجات العلمية، وحرية الفكر وليس للفكر التقليدي، والاتجاهات الجديدة وليس لتاريخ الفلسفة. وكان يُدخِّن ويستبطن نفسه وكأنه في مكتبه، بلا جمهور، فلا يُثير شَوقَ أَحَد. وحضرتُ في منزل جابريل مارسل كل يومِ جمعةٍ لقاءه بجوار مسرح الأوديون، وكان يمينيًّا خالصًا يدافع عن احتلال فرنسا للجزائر، ولم أَرَ فيه شيئًا يثير الانتباه، ولا تدخُّلاتي أثارت انتباهه. وحَضرتُ سيمينار بول ريكير المشرف على الرسالة الثانية، وكان يغلِب عليه الصمت والأدبُ الجَمُّ والصوت المنخفض إذا تكلم. يحضر حلقةً بحثية في السربون ما يزيد عن الثلاثين، وكانوا هم

الذين يتكلمون، ويَعرِضون شُروحهم وآراءهم في النصوص التي يقرءونها باليونانية واللاتينية والألمانية والإنجليزية والفرنسية بطبيعة الحال؛ فمن تنقصه لغةٌ يدرسها عِدة أشهر، ثم يعود كي يكون على نفس المستوى. يُعلِّق ريكير على منهج الطالب وتأويله للنصوص في جُملٍ قصيرة دون تَعالُمٍ أو استعلاء. زرته آخر مرة في شاتناي ما لابري Châtenay-Malabry، وأنا أَعرِض عليه الرسالة الثانية والثالثة لأنها من جزأَين، فاستمع إليَّ بكل انتباه دون تعليقٍ؛ أي إنه موافق على منهجها ونتائجها، تأويلي للظاهريات وتطبيقها في فلسفة الدين عند هيرنج Hering البروتستانتي، وديميري Dumery الذي كان راهبًا ثم خرج من الكنيسة. أوَّلتُها من خلال علم أصول الفقه، وقرأتُ عِلم أصول الفقه من خلالها، وهما ما كوَّنا شعوري الفلسفي حتى الآن. واستَمعتُ إلى ماكسيم شول في الفلسفة اليونانية، كان أبيضَ أشقرَ مُبتسمًا فيلسوفًا، يقرأ الفلسفة اليونانية من خلال الفلسفة. واستمعتُ إلى جانكلفيتش أستاذ الأخلاق، وكان من أوروبا الشرقية مُحمَرَّ الوجه، يتكلم بإتقان، يُوقِظ النائِمين والسارِحِين من الطلاب. واستَمعتُ إلى جان فال أستاذ تاريخ الفلسفة والميتافيزيقا، كان فيلسوفًا مهنيًّا أمامه أوراقٌ كثيرة، يبتسم وهو ينظر إليها، يُحبه الطلاب المِهنيُّون مثل كلكل Kelkel مترجم «بحوث منطقية» لِهوسرل، وشاتل Chattel المنطقي الميتافزيقي، الفيلسوف ذو الشَّعَر المنكوش الواقف والذي كان يُخيف. وجاك دريدا الذي كان أقرب إلى الصمت، ربما كان يستمع كي يعرف كيف يُفكِّك ما يسمع، وهو مُترجِم «أصل الهندسة» لِهوسرل، وقد ظل عشر سنواتٍ يَدرُس كيفية إعادة بناء العلوم الإنسانية، وهو موضوع رسالته للدكتوراه، فكَتَبَت له السربون رسالةً رقيقة دون تهديدٍ بشطب رسالته من سِجِل الدراسات العليا كما يحدث عندنا بعد خمس سنواتٍ وسنةٍ إضافية، أنه تجاوز الوقت المُحدَّد، وسيُعطى عشر سنواتٍ أخرى، فلمَّا انقَضَت كَتبَت له السربون أن العشر الثانية قد انتهَت ولا بُد أن يُقدِّم الرسالة، فكتبَها في شهرَين، وحصل على الدكتوراه بدرجة Tres Honorable. وكان الأستاذان الأقلَّ إغراءً هما كانجييم أستاذ فلسفة العلوم والذي عَمِل معه رشدي راشد، وأوصَى به كي يكون باحثًا بالمركز الوطني للبحث العلمي Centre National de Recherche Scientifique (CNRS). ودي جانداياك وهو أيضًا أستاذ فلسفة العصور الوسطى، وكان مجرَّد عارِضٍ لتاريخها كما فعل يوسف كرم عندنا في «تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط». وكان يتكلَّم وكأنه يحمل حِملًا ثقيلًا على كتفه، مُطأطَأ الرأس، مُقوَّس الكتفَين، مُكفهِرَّ الوجه، خاصةً وأنه كان قصيرًا لا يُرى من وراء المنصَّة لو جلس، لم يَستمرَّ معه كثيرٌ

من الطلاب. وأمَّا المستشرقون فلم يكونوا يُثيرون فيَّ شيئًا، مثل هنري لاوست في الكوليج دي فرانس الذي كَتبَ أُطروحَته للدكتوراه عن ابن تيمية، والذي اعتَبرني مثلَه مُؤرِّخًا للفكر الإصلاحي ليس مُطوِّرًا له أو مُبدعًا فيه. وروبير برنشفيج الذي كان مُتخصِّصًا في الفقه الحنفي. أمَّا بلاشير Blachere فكان أقرب إلى الأدب العربي، يُدرِّس معه بعض الأساتذة من شمال أفريقيا، وهو الذي تَرجَم القرآن إلى اللغة الفرنسية، وطَبعَه طِبقًا لأوقات النزول، وهي الدعوة التي نادى بها خلف الله أحمد خلف الله من مدرسة أمين الخولي مثل سيد قطب الثاني، الناقد الأدبي (الأول هو الشاعر والقصَّاص، والثالث هو المُفكِّر الإسلامي الاجتماعي، والرابع هو صاحب «معالم في الطريق») اعتقادًا أن ترتيب القرآن من توقيف عثمان لإبراز الجانب الإنساني في التدوين. وكان هناك رودنسون صاحب «الإسلام والرأسمالية» زُرتُه بين رُفوفِ مكتبته، واعتذر أنه لن يُطيل معي لأن صديقته ستأتي، وأنه لا بُد أن تكون له صديقةٌ تُخفِّف عنه عَناء الكتابة.

وإذا كان وعيي قد ازدهر مع جان جيتون، فإن وعيي السياسي قد تَكَوَّن في مظاهرات الحي اللاتيني مع الطلبة المُسلِمين من شمال أفريقيا Mena ومقره ١١٥ شارع سان ميشيل 115 Mich B4 ضِد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ثم ضِد انقلاب بو مدين على الرئيس بن بِلَّا بعد الاستقلال، ومظاهراتٍ أخرى ضد قَذفِ أمريكا فيتنام بالقنابل بعد أن خَرجَت فرنسا، وكانوا بؤرةً لِتجمُّع طلاب العالم الثالث بالاشتراك مع طلبة أمريكا اللاتينية والطلبة العرب. وكان المطعم الإسلامي مكانًا للتجمُّع خاصةً يوم الجمعة، يوم «السكسك» Socsoc وبتعبير المصريِّين «الكسكوسي» باللحم والخضار. ومكانٌ آخر للتجمُّع هو مسجد باريس، وكان أقرب إلى التجمُّع اليميني وجماعة البشير الإبراهيمي؛ فالوطن قد جمَّع الجميع بالرغم من الشِّقاق بين المجموعتَين، قبل الشِّقاق بين حماس وفتح الآن في المقاومة الفلسطينية؛ فالوطن لا شقاق أو فرقة فيه. وفي المظاهرات تعَرَّفتُ على علي شريعتي الذي كان ينادي بالثورة الإيرانية ضد الشاه، وكان أستاذه جاك بيرك يشكو منه ومن ضَياعِ وقته، ولا يُنجِز رسالته الجامعية Doctorat d’université دون التطلُّع إلى دكتوراه الدولة. وعند الأستاذ برونشفيج مُشرفِ رسالتي الأُولى تَعرَّفتُ على محمد أركون الذي كان يُعِد رسالته لدكتوراه الدولة Doctorat d’etat عن الأخلاق عند مسكويه، كما تعَرَّفتُ على ناصف نصار في المطعم الجامعي، وكان قد أوشك على الانتهاء من رسالته لدكتوراه الدولة ويُعِدُّها للطباعة في المطابع الجامعية الفرنسية Press Universitaire De Francais (PUF). وتعَرَّفتُ على كمال يوسف الحاج اللبناني الذي قُتل أثناء الحرب الأهلية،

وكان مُفكِّرًا بالإضافة إلى كونه باحثًا، وانتقل إلى بيروت. وقد تَكوَّنَت الآن جماعةٌ في بيروت للاحتفال بعيد مِيلاده المئوي ولِلحفاظِ على تُراثه. وتَعرَّفتُ على حميد الله، العالم الهندي الذي كان مطلوبًا في حيدر آباد بعد رَفضِها التنازُلَ عن استقلالها لصالح الهند، وكان يسكُن مع امرأةٍ فرنسيةٍ عجوز، وكان يُعِدُّ مخطوط «المعتمد في أصول الفقه» لأبي الحسين البصري. ولَّما علم برنشفيج ذلك الذي كان يُعِد نفس المخطوط للطباعة مع طالبَين له، أنا ومحمد بكير من تونس، تنازل لحميد الله عن العمل. واحترمتُ أخلاق المُستشرِق الذي تنازَلَ عن عملٍ يقوم به زميلٌ له في نفس الوقت. وكانت البحوث العلمية غيرَ مُسيَّسة. وطُبِع في جُزأَين في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في دمشق عام ١٩٦٤م، ثم صَوَّرَته دار التراث في بيروت في طبعةٍ جديدة دون أن تأخذ إذنًا من أحد. وقد تُوفِّي حميد الله الذي كان يعمل باحثًا في المركز الوطني للبحث العلمي Centre National de Recherche Scientifiques (CNRS). وبكير أستاذ الأدب العربي في جامعة تونس، وتُوفِّي ولم يَبقَ إلا أنا.

وكان نظام حياتي اليومي هو الاستيقاظ مُبكِّرًا، وبعد كوب الشاي مع اللبن المُسكَّر في الأنبوبة أبدأ في القراءة والتعليق على ما أقرأ على هامش الكتاب؛ لذلك كنتُ لا أقرأ إلا الكتب التي اشتريتُها. وظُهرًا مُتأخرًا أذهب للغَداء لسببَين: الأول أني أستلقي بعد الغداء قليلًا. والثاني أن مطعم الجامعة في آخر الوقت، حوالي الواحدة والنصف، يترك الصواني لمن يُريد أن يستزيد، وأنا منهم طبعًا لأني كنتُ لا أتناول العشاء مع أنه موجود في مطاعم الجامعة. وأعمل حتى التاسعة مساءً برغم محبتي للنوم. وعجبتُ كيف يُروى عني في القاهرة أنني في باريس كنت أقضي النهار في اللعِب من الصباح إلى المساء إلا بدافع الغَيرة بعد أن عمَّت الجميع. وقد كان يُضرب بي المثل في العمل من الصباح إلى المساء، وكنت لا أُرى في المقاهي أو الشوارع، وأنا المجتهد الذي لا يسمح بِضَياعِ وقته على المقاهي، مع أن المقهى في باريس جُزءٌ من الحياة الثقافية؛ ففيه يتم التعرُّف على المُثقَّفين، ولقاءُ من يُريد غير الثقافة. أمَّا بعد التاسعة مساءً فأفعل أي شيء. وما زال هذا النظام اليومي سائدًا حتى الآن.

وفي عام ١٩٥٩م عندما كانت العلاقات بيننا وبين فرنسا ما زالت مقطوعةً منذ العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦م. كان أخي وزوجه في طريقه إلى كولومبيا بأمريكا اللاتينية بحرًا مُتوقِّفًا في مارسيليا، فذهبت مع صديقتي الألمانية كي أراهما؛ فليس من المعقول أن يكون كِلانا على الأراضي الفرنسية ولا يرى بعضُنا بعضًا. وكان في عُرف قبطان السفينة أن يهبط إلى أرض فرنسا من يريد، ولكن لا يجوز لِمصريٍّ على أرض

فرنسا أن يُغادِرها ويصعَد السفينة، فقُلتُ له هذا حق، لكن من حق أي راكبٍ أن يُغادِر السفينة لمدة ساعة ثم يستكمل الرحلة فيما بعدُ، وأَرَيتُه بطاقتَي السفر إلى كولومبيا فاقتَنَع، فغادرنا إلى باريس، وزُرنا سويًّا أشهر معالم باريس؛ بُرج إيفل، كنيسة نوتردام، قَوس النصر، مسلَّة الكونكورد، مُتحف اللوفر، قصر فرساي، حي منمارتر، مقبرة نابليون، السربون، البانثيون. وأخذ أخي معه تسجيل أم كلثوم «أنت عمري»، وكانت أَوَّل أُغنيةٍ يُلحِّنها لها عبد الوهاب، وكانت فيها كلمة «اللي شوفته»، وكانت صديقتي الألمانية عندما أَسألُها ماذا تُحبِّين أن تسمعي من الموسيقى العربية تقول «اللي شوفته»، ثم أوصلناهما إلى السفينة بمارسيليا لِيُكمِلا الرحلة إلى أمريكا اللاتينية. وجاء إلى زيارتي بعض الأصدقاء مثل الطاهر مكي من مدريد وإبراهيم راشد من القاهرة. وزارني علي إسماعيل، فأخذتُ تصريحًا من المستشفى بالخروج ولو لِسِت ساعات، فأخذته لشراء بعض الهدايا المشهورة من باريس مثل رابطة العنق «أرجانس» بجوار الأوبرا. وكُنتُ في المستشفى في الصيف آكل وأشرب وأستريح بعد اشتباهٍ في مرض السُّل في الرئتَين في مراحله الأُولى، وهو التهاب الرئتَين. ورفض مدير المستشفى إخراجي، ولو لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة. ولَمَّا شَرَحتُ له السَّبَب، وصول أخي وزوجه إلى مرسيليا وافق، وعُدتُ إلى المستشفى كما وَعَدت.

وفي صيف ١٩٥٩مكنتُ قد شَعَرتُ بإرهاقٍ شديد وأنا أصعَد أيَّ سُلَّم. فلمَّا ذهَبتُ إلى عيادة المدينة الجامعية وكشفوا عليَّ بالأَشعَّة وجدوا التهابًا في الرئتَين، وهو مقدمة لمرض السل، فحجزوني في العيادة لمدة أربعة أَشهُر بعد مقاومةٍ طويلة. شَرحتُ للطبيب كيف أعيش: آكل مرةً واحدة في اليوم ظهرًا، وأُجهِد نفسي في العلم والفن؛ فأنا طالبٌ في السربون أدرس الفلسفة، وطالبٌ في الكونسرفتوار أدرس الموسيقى، في الصباح في الجامعة، وبعد الظهر في معهد الموسيقى، وفي المساء أقرأ في أَوَّله، وأَعزِف مع كاتم الصوت على الكمان في آخره، فاستَعجَب أنني أحيا حتى الآن، وطلب مِنِّي أن أبقى في العيادة أربعة أشهر، آكُل أربعَ مراتٍ في اليوم، وأشرب العصائر، وآكُل الفاكهة بين الوَجبَات، وأُغذَّى بالمحاليل في الشرايين لأنه عندي مرض BBC، وهي المرحلة السابقة على السل، فسأَلتُ: وماذا عن حُجرتي في بيت ألمانيا؟ فقِيل: تُخلِيها وتستعيدها عندما تَخرُج. قلتُ: وماذا عن كُتبي التي أشتريها كل شهر، النصوص الفلسفية؟ قال: نشتريها لك وتقرؤها في العيادة. ولَمَّا حان وقت الخروج وزاد وزني، قال: عليك أن تكتب تعهُّدًا بالاستقالة، إمَّا من الجامعة وتتَخصَّص في الموسيقى أو باستقالتك من معهد الموسيقى

وتتَخصَّص في الجامعة؛ أي الفلسفة. وإن لم تفعل فسنُرسلك إلى جبال الألب حيث تعيش في قِمَّتها حيث الهواء النقي. وإن لم تفعل هذا ولا ذاك فستنتحر وتقضي على حياتك بنفسك. وكانت لحظة اختيارٍ قاسية. وكيف أترك إحدى معشوقاتي؟ الموسيقى بلا فكرٍ لحنٌ خالص، والفكر بلا موسيقى تجريدٌ خالص. وأخيرًا اخترتُ الجامعة؛ فلِلفلسفة أَتَيت، وكتبتُ التنازُل عن المعهد المطلوب وقلبي ينفطر حزنًا. وأنا حتى الآن عندما أسمع موسيقى شرقية أو غربية أَحِن إليها، وأتساءل: هل أحسنتُ الاختيار؟ وبعد انقضاءِ العُمر وجدتُ نفسي قد وقَعتُ في الفلسفة الرومانسية، هيجل، فشته، شلنج، برجسون. وقد تكون الظاهريات؛ أي الفينومينولوجيا، التي يُقال إنني وقَعتُ فيها هو جَمعٌ بين الفلسفة والفن، بين العقل والذوق كما يفعل الصوفية المتأخرون حتى محمد إقبال. وما زالت آثارُ هذا المرض موجودةً على الرئتَين كلما قُمتُ بكشفِ إشاعةٍ على الصدر.

وكانت هناك مُشكلة كارت الإقامة الذي يجعل وجودي في فرنسا شرعيًّا في حال قام شرطيٌّ بطلب أوراقي. وأخبرني المخضرمون في باريس بأن هذا أَمرٌ سهل، عليَّ أن أفتح حسابًا في أحد البنوك، وأضع فيه أي مبلغ، وآخذ دفتر شيكات، فإذا سُئلتُ في المحافظة عن مصادر المعيشة قلت لهم عندي دفتر شيكات، ولا يسألون كم رصيده. وبالفعل فتحتُ حسابًا في Société Générale ووضَعتُ فيه فرنكًا واحدًا، وأَخذتُ كارت الإقامة الذي يتَجدَّد كل عامٍ بنفس الطريقة.

وبعد أربع سنواتٍ عُدتُ إلى مصر لحضور حفل زواج شقيقتي المتوسِّطة فاطمة؛ إذ إن الشقيقة التي كانت بعدي، سعاد — أطال الله في عمرها — لم تكن قد تَزوَّجَت بعدُ. أمَّا الشقيقة التي بعدي فقد كانت ما زالت تُعِد الدكتوراه. أمَّا الصغرى فكانت ما زالت طالبةً في مدرسة التجارة المتوسِّطة وليس المُعلِّمات التي تَخرَّجَت منها جميع الإخوة البنات. فقرَّرتُ أن أعود إلى القاهرة في صيف ١٩٦٠م، وتركتُ غرفتي بالبيت الألماني للإيجار حتى أُعفَى من إيجارها الصيفي. وكان عليَّ أن أشتري هدية لأُختي العَروس وباقي الأَخَوات وأخي والوالدَين. وجاءت سامية أسعد من قسم اللغة الفرنسية التي كانت تسكن ببيت الطالبات بشارع بول ميش، يولفار سان ميشيل، وذهبنا إلى السوبر ماركت لافاييت عند سيفر بابليون، واشترينا أقمشةَ فساتين للبنات. وكان أحد الطلبة الألمان، كبير السن، قد قرَّر أن يذهب إلى مارسيليا بالسيارة، فذهبتُ معه كي آخذ السفينة من هناك إلى الإسكندرية، وكان يقود ليلًا وبسرعة، فأرى الأشجار يمينًا ويسارًا

تتوالى في ضَوء كشَّافات العربة. أمَّا أنا فكنتُ أنام بين الحين والآخر، فيُوقِظني غاضبًا حتى لا ينتابه النوم هو أيضًا. ووصلنا في الصباح، وذَهبتُ إلى ميناء مارسيليا، وأَخذتُ السفينة إلى الإسكندرية. وكان أخي بانتظاري والوالد والوالدة وزوج شقيقتي الكبرى سيد. ووصلنا إلى القاهرة، وكانوا قد غيَّروا السكن من باب الشعرية إلى العباسية، من شارع البنهاوي درب الشرفا إلى شارع أحمد سعيد في فيلَّا ذات دَورٍ واحد بحديقةٍ مكثتُ فيها شهرَين، وحَضرتُ العرس. وأردتُ توزيع الهدايا على إخوتي فردًا فردًا، فأخذتها أختي العروس كُلَّها بحجة أنها هي التي تحتاج إلى الأقمشة، ولم يحزن أَحَد. وفي ليلة العرس لبِسَت شقيقتي الأكبر من العروس فستانًا عاريَ الصدر، فرفض والدي وأخي، وأقنعتُهما أن هذا طبيعي؛ فالأصغر منها تتزوج وهي الأكبر لم تتزوج؛ فلَعلَّ في هذا العرس يأتيها من يطلب يدها، وأنا قادمٌ من باريس ولا حرج. وفي طريق العودة حيث كانت السفينة تتوقف ليلةً في أثينا حيث يرى البحَّارة ذَوِيهم، رأيت عبد المعطي شعراوي الذي كان يَدرُس فيها، وقضيتُ الليلة معه حتى عُدتُ في الصباح إلى السفينة لاستئناف الرحلة إلى مرسيليا، ومن هناك أخذت القطار السريع إلى باريس، ولا يتوقَّف إلا في ليون بعد اختراع القطارات فائقة السرعة، أربع ساعات بدلًا من ثمان.

وبعد العودة إلى فرنسا عام ١٩٦٠م، والرجوع من مصر بعد رؤية العائلة، وحضور حفل زِفاف شقيقتي فاطمة أَحسَستُ بِتغيُّرٍ في نفسي في طريقة رؤيتي للعالم وسلوكي في الحياة؛ فبدلًا من أن أبدأ بالفكر بدأت بالواقع، وهو ما سمَّيتُه بعد ذلك «من النص إلى الواقع». وبعد أن كنتُ مثل باقي الإخوة المسلمين أتطلَّع إلى أعلى أصبحت أتطلع إلى الأمام. وهو ما سمَّيته فيما بعد «من الفَناء إلى البَقاء». وبَدلًا من حرصي على الشعائرِ كمظاهرَ أبقيتُ على مضمونها الاجتماعي وهو ما سمَّيته فيما بعدُ «من أحكام الشريعة إلى أحكام الوجود». وبدلًا من أن أَهَاب وأخشى المرأة بدأتُ بالمغامرة معها والتعلُّم من التجارب معها. وبدلًا من قراءة النصوص بدأتُ أعيش الحياة، التجربة الحية. وبدلًا من حرصي على الصلاة اليومية أو الأسبوعية أصبحتُ حريصًا على زيارة الأوبرا باعتباري طالب كونسرفتوار مجانًا؛ فكان لِطلَبة الموسيقى بنوار خاصٌّ لخمسة أفراد. كنتُ أرى الطالب يأخذ صديقته الطالبة، تخلع حذاءها وهو يَهرُش لها قدمَيها، وأنا أبكي على حالي، وأحزن لثقافتي. ورأيتُ جميع الأوبرات، وشاهدتُ جميع المسرحيات، واستمعتُ إلى مقطوعات الموسيقى السيمفونية مجانًا باعتباري طالبًا في المعهد. ومرةً وأنا أسمع حفلةً

موسيقيةً وضَعتُ ما معي من كتب اشتريتُها على الأرض، وأُزيحها بقدمي تحت جاري، وهو يُرجِعها بقدمه تحتي حتى شَخطَ فيَّ، فأدركتُ قُبحَ ما فَعلتُ.

وعرفت طبيعة الأوروبي دون تعميمٍ على كل أوروبي؛ فقد عرفت جاك فاندنبرج عندما أتى إلى مصر في كتابة رسالته عن الاستشراق، ولَّما عاد إلى هولندا واحتجتُ أعمال هوسرل التي طُبِعَت في هولندا، فأرسلَها لي، وكان لـ «الفلوران» العملة الهولندية سعران، واحدٌ رسمي وآخرُ في السوق السوداء، أَصرَّ على موقفه، السوق السوداء، وأَصرَرتُ على موقفي، السعر الرسمي. ولَّما ذهب إلى مصر حاول أخي إعطاءه المبلغَ بالسعر الرسمي فرفض، فجمع له بعض العملة الهولندية وأعطاها له، ومن بعدها وقد سقَط من عَيني، مع أنه أصبح من كبار المُستشرقِين الآن، ويعمل في سويسرا، وبذَقَنه السوداء الطويلة، وشفتَيه الحمراء تخيَّلتُ أنه دراكولا، مصَّاص الدماء.

وطالبٌ آخر كان جاري في مدينة أنطوني الجامعية التي كنَّا نذهب إليها بالصيف حتى تقوم المدينة بإصلاح ما عاب من منازلها، سمعت أنه مريض، فأخذت بعض الفاكهة لزيارته لأن الحائط في الحائط، فشكرني وقال لي للأسف لا يستطيع أن يُقدِّم لي شيئًا لأن عُلبة السكَّر بها ثلاثون مِلعَقة، واحدةٌ كل يوم، وعلبة الشاي بها ثلاثون مِلعَقة، ولا فائض له كي يعمل كوب شايٍ لي، فاعتذرت أنني لا أشرب الشاي، وتذكَّرتُ المَثَل العربي «اصرِف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب.» فما الضامن أنه سيعيش إلى آخر الشهر وهو مريض؟

كانت ألمانيا وبرلين في ذلك الوقت مُقسَّمةً إلى قسمَين: الغربية والشرقية، وبينهما حائطٌ من الجهة الغربية مكتوبٌ عليها كل ما ينكر حرية الغرب واستبداد الشرق، قبل أن يتحطم حين انهيار الكتلة الشرقية في أوائل التسعينيات. وكان هناك تِرامٌ يربط بينهما من خلال فردرش شتراسه. وبعد أن زرت المتحف الذي به رأس نفرتيتي الشهير داخل صندوقٍ من الزجاج والذي يقف أمامه الألمان طوابيرَ من الصباح، ورأيتُ باقي الآثار المصرية القديمة ذهبتُ إلى برلين الشرقية كي أرى جزيرة المتاحف التي بها كمٌّ كبير من الآثار الفِرعَونية والبابلية والآشورية. ورأيتُ أَهمَّ شارع، وهو طريق ستالين، بِعَرضه وطُوله ومنازله المتشابهة على خطٍّ واحد. وكان المارك الغربي بستة دراهمَ شرقيةٍ تقريبًا، مع صعوبة نقل أعمال ماركس وإنجلز، فاشتريتُهما مع صورته، ونقلت ذلك على الدراجة عائدا إلى باريس. ولَّما توجَّهتُ وأردتُ العودة إلى باريس أَخَذتُ القِطارَ من ستراسبورج عائدًا إلى باريس، وهي المدينة التي عليها خلافٌ بين الألمان والفرنسيِّين.

ولَّما كنتُ مُغرمًا بالألمان فقد لَفَفتُها بالدراجة ثلاثَ مرات، من الغرب إلى الجنوب حتى منشن والتي يُسمُّونها ميونخ، ومن الغرب إلى الوسط حتى فرانكفورت ونورنبرج، ومن الغرب حتى الشمال حتى همبورج حتى حفِظتُها عن ظهر قلب. وما زالت آثار الحرب والتدمير في ذِهني ومنها تسمية كنيسة الذكرى Gedächtnis Kirche.

وكنت أُريد أن أذهب إلى برلين بالدرَّاجة، فأَوقفَتني شرطة ألمانيا الشرقية عند الحدود في هلمشتت وسألوني: إلى أين؟ قلت: إلى برلين. قالوا: ممنوع تمر عبر ألمانيا الشرقية إلى برلين كمدينةٍ مفتوحة. قلتُ: وما المانع؟ قالوا: لا يمُر إلا من كانت سرعته مائة كيلومتر. كم سرعة درَّاجتكَ؟ قلتُ: عشرين! قالوا: إذن ممنوع. ولا تمُر إلا من ثلاثة طرقٍ دولية، من الجنوب ومن الغرب ومن الشمال. فتركتُ الدرَّاجة في المدينة الحدودية، وأوقفتُ عربةً ذاهبةً إلى برلينَ وركِبتُها أتوستوب Autostop، والرجل لا يتكلم فهو في أرض العدو، وقد عبَّر لي عن ضيقه بهذا الكَبت للحُريَّات. وبعد شهر في برلين عُدتُ إلى المدينة الحدودية بنفس الطريقة، وأخذت الدرَّاجةَ راكبًا القطار من ستراسبوج الفرنسية عائدًا إلى باريس. وقد ساعدَني على اكتشاف الحياة الصداقاتُ التي أخذتُها من الحب الرومانسي، وسكني ببيت ألمانيا، وصديقتي الألمانية والإغراء بها. وكانت العادة القيام بحفلة رقصٍ كلَّ يوم جمعةٍ مساءً، وإظهار المهارات في هذا الفن الذي يعتبره البعض غير رفيع، تُظهر كل فتاةٍ ممارستها، ويُظهر كل فتى براعَته، فكنتُ أعمَل مِثلَهم خاصة أنني كنتُ رائد اتحاد الطلبة في المنزل الألماني. وكانت هناك ثلَّاجةٌ بها جميع المشروبات خاصةً البيرة، لا يُوجد أمامها بائع ولكن مُجرَّد صندوق، يكتب كل شاربٍ ما يشرب في بطاقةٍ باسمه، ويدفع آخر الشهر من نفسه. ولَّما كنتُ مِصريًّا متعودًا على وجود بائعٍ أدفع له مباشرة، فإنني كنت أشربُ ما أريد دون تسجيل بطاقة، وكان من يجمع الحساب آخر الشهر من كبار الشاربِين يجد المجموع أقلَّ من المُستهلَك، وأولهم هو، ليس لأنه لصٌّ ولكن لأنه سِكِّيرٌ لا يدري ما يفعل، وكان المنزل يدفع ما نقَص من ميزانية البار المفتوح «اخدم نفسك بنفسك» Self-Service. وكنتُ أُشارِك في حفلات رأس السنة بتزيين المنزل وزُجاجه بالألوان. وكانت الموسيقى بالبدروم، فكنت آخذ كماني ليس فقط لأعزف ولكن أيضًا للتعرُّف على باقي العازفات، وكانت إحداهن تعزف تشيللو، ومرةً توقفَت، وقالت: زَهِقتُ، قلتُ لها: وأنا أيضًا، فتركنا الآلات وقمنا نعزف شيئًا آخر. وكان معنا في المنزل طالب تمثيل «بانتوميم» جاء لِيَدرُس مع جان لوي بارو أشهر ممثل للبانتوميم في العالم، وكان يدخُل خشبة المسرح في المنزل، ويقوم بالتمرين، ولكنه

كان يُريد من ينظر إليه، فكان يُناديني باعتباري فيلسوفًا فنانًا: يا حسن تعالَ انظُر، فأَحسَستُ بضرورة وجود إدراك الذات حتى يتحقَّق الموضوع.

وكنت أفتعل مُناسبةً للتعرف على الجنس الآخر بالمطاعم الجامعية والمقاهي والأندية الرياضية؛ ففي المطاعم أفضل وسيلةٍ لِلتعرُّف على جارتي الطالبة هو سؤالها: هل تريدين أن أصُبَّ لك الماء؟ هل تُريدين قطعة خبز؟ فدورق المياه وسلة الخبز مشتركان على المائدة. ولَّما طلَبتُ من جارتي: هل تُريدين كوب ماء؟ وهي تعلم قصدي، قالت: أنا لا أُعاشر، واللفظ الفرنسي أكثر وضوحًا je ne pense pas. ومرةً أخرى بعد الغداء ذهبتُ إلى المقهى أسفل المطعم بعد أن سألتُها ونحن في المصعد: أتشربين القهوة معي؟ قالت: إلى اللقاء، وهي تنظر إليَّ بحبٍّ أنها شَرِبَت قهوةً على حسابي دون أن تُعطيني شيئًا. مرةً ثالثة تقابلنا وأعطتني موعدًا على ناصية شارع بول ويش وشارع المدارس، وأتيتُ في الموعد تمامًا، وانتظرتُ ولكنها لم تأتِ وبتعبير المصريِّين «فرقعَتني» أو «ادتني زومبة» أو «ادتني بومبة». وكان حمَّام السباحة في الدور الرابع تحت الأرض في بيت الرياضيِّين الذي سكَنتُ فيه في غرفةٍ مزدوجة، وكانت حارسة الحمَّام سيدةً جميلة، ذات صدرٍ بارز، والسباحون ذوو عضلاتٍ بارزة؛ فأين أنا من هذه المنافسة غير العادلة، فعُدتُ إلى الرومانسية من جديد مثل نجيب الريحاني مع ليلى مراد في «غزل البنات».

وفي برلين الغربية زُرتُ جامعة فون همبولت وبحيرة البط، وسكنتُ ببيوت الشباب، وكنَّا في الإفطار أنا والشباب نجمع من الموائد المُتبقِّية الخبز والبيض ونُفطر به. وما تَبقَّى يكون طعامًا لليوم. وعلى الخروج من محطَّة مُتحف دالم كانت عربة واقفة تبيع السجق والمسطردة مثل عربات الفول عندنا على نواصي الشوارع والطرقات. وكان أحد الأصدقاء الألمان في باريس قد قَدَّمني لأحد أصدقائه في برلين، فدعاني الصديق في برلين إلى العَشاء واستقبلَني هو وزوجته احتفاءً بالضيف الباريسي. ولَّما نَفِدَت النقود ولا أعرف أحدًا، ذهبتُ إليه أطلُب قرضًا، فنظر إليَّ كيف تحوَّلتُ من ضيفٍ إلى سائل! وأعطاني ما طلَبْت. وأخبرني أحد الطلبة ببيوت الشباب أنه يمكنني العمل بالمعارض، وما أَكثرَها في ألمانيا! أَفرِدُ السجاجيد أو أُنظِّم الكراسي، واليومية عشرون ماركًا، فعمِلتُ وأَرجَعتُ ما اقترَضْت. ولَّما كان العمل ممكنًا نهارًا وليلًا، فقد كُنتُ أزور برلين صباحًا وأعمل ليلًا، وأنام في أحد حوائط المَعرض كما يفعل الآخَرون، ورأيتُ الألماني وصديقته يفعلان ذلك، ولا أحد ينتبه إليهما؛ فقد جمَعَهما الحب والفقر.

أمَّا فرنسا فقد زُرتُها مقاطعةً مقاطعة مع صديقتي الألمانية بالعربة؛ غربًا وشرقًا، وجنوبًا وشمالًا. ورأيت نيس وكان، وهما ما كُنتُ أسمع عنهما في المهرجانات الدولية للسينما. وأذهب إلى الأحياء القديمة التي لم تطُلها يد التدمير في الحرب. وفي طولون تَذكَّرتُ المدينة التي خَرجَت منها الأساطيل الفرنسية والبريطانية لهزيمة محمد علي غرب الإسكندرية. ومرةً ذهبتُ إلى سافوا العُليا Lu Haute Savoie الشهيرة بجبال الألب، ومكان للاستشفاء، ورأيتُ الثلج في قمَّتها صيفًا وشتاءً. وذهبنا إلى لوزان وجنيف لرؤية بُحيرة لوزان الشهيرة والقُصور على ضِفافها، وفيها قَصْرا الرئيسِ المخلوع ونَجلِه في زيارتي لجنيف.

وقد زُرتُ إنجلترا بدعوةٍ من جامعة أكسفورد، ووَصَلتُ إليها عن طريق النفَق البحري تحت الماء الذي يربط فرنسا بإنجلترا، وكُنتُ أخشى في البداية، ولكني لم أخشَ في النهاية، وتذكَّرتُ نفس النفق في إستانبول الذي يربط بين الجانبَين الأوروبي والآسيوي. وأخيرًا زُرتُ الكوبري المُعلَّق الذي يربط بين الجانبَين، وعَرفتُ أن التكنولوجيا ليست وَقفًا على الغرب، وكانت تركيا حليف الألمان في الحرب العالمية الأولى، وفيها امتَد قِطار الشرق السريع من برلين إلى بغداد.

كنت أَجِد نفسي نائمًا في محاضراتِ الطلاب المسلِمين بشمال أفريقيا؛ فكانت عِلميةً سياسية، في حين عند حميد الله علميةً خالصة. وكنتُ أَشعُر أنني طليق اللسان عندما أتحدَّث عن الاستعمار والاستقلال والحرية للشعوب، ومع زميلي رشدي راشد. وفي صيف ١٩٦٥م أتى المشير عبد الحكيم عامر إلى باريس للإعداد لزيارة الرئيس جمال عبد الناصر إلى باريس للقاء ديجول، وأعدَّت له السفارة المصرية في باريس استقبالًا، وكُتبت اليافطات، ورُفعت الأعلام، ونظَّم السفير عبد المنعم النجار استقبالًا، وكان من الضباط الأحرار، وجاء الطلاب من كافَّة أرجاء الدول الأوروبية للمشاركة في هذا الاستقبال. وذهبتُ وجلستُ في الصف الأول أمام المنصة. وكان عليها المشير، ود. محمود فوزي رئيس الوزراء، ولطفي الخولي الصحفي بالأهرام، ورئيس تحرير مجلة الطليعة الماركسي المعروف. وبمجرد ما انتهى المتحدث الأول من إلقاء كلمته بعد أن راجع السفير كل الكلمات خَشيةَ أن يكون في إحداها ما يُغضِب النظام، أَحسَستُ بشيءٍ يدفعني، فأَخذتُ الميكروفون وقلت: سيادة المشير، كل هذه الزفَّة واليافطات والكلمات مُزيَّفة؛ فقد راجعَها السفير، ولا تُعبِّر عما يجيش في نفوس الطلاب، ما يدور في نُفوسِنا جميعًا هو منعُ تجديد جوازاتِ السفر للبعض مِنَّا، وعدم تجديد المِنَح الدراسية لأننا مُصنَّفون بأننا

ضد النظام. وسرعان ما اختطف الميكروفون المتحدِّث الثالث من ورائي وأكَّد ما قُلتُ، ووقف الطلاب طابورًا للحديث في نفس التيار، وأَنزلوا اليُفَط التي تُرحِّب، وعلَتِ الأصوات بالمنع من السفر، والحرمان من حضور جنازة الوالد، فأُخِذ المُشير على غِرَّةٍ، ولم يعرف كيف يَرُد، وطلَب من لطفي أن يَرُدَّ على هؤلاء الطلبة العاقِّين الذين لا يعرفون أحوال بلادهم، فَرَدَّ لطفي أنه اعتُقل وعُذِّب، وما زالت آثار التعذيب والكرابيج على ظهره، وكان د. محمود فوزي يبتسم ليعلن عن سُروره العميق بخطابِ الطلَّاب وأنه ما زال في مصر رجال.

وعاد المشير إلى القاهرة لِيُخبِر ناصر بما رآه وسمِعه في باريس، فطلب منه دعوة ممثلي الطلاب الدارسين في أوروبا ليناقشهم بنفسه في القاهرة في الصيف القادم، وهو ما سُمِّي «مؤتمر المبعوثين». واستدعاني السفير في باريس كي يستفسر مني عما فَعلْتُ، فأخبرته أني قُلتُ كلمة صدق، وبدأ في تكوين جماعةٍ طلابية تجتمع في السفارة أسبوعيًّا لندرس فيها أحوال البلاد استعدادًا للقاء عبد الناصر في الصيف القادم في القاهرة. واستعدادًا لذلك كُنَّا نجتمع في السفارة «مجموعة باريس»، وأسَّسنا نادي الطلبة الاشتراكيِّين من: حسن حنفي، رشدي راشد، حسام عيسى،[٢] السيد يس، محمد عمران، فكُنَّا نُمثِّل الطلبة الدارسِين في فرنسا، اثنَي عشر طالبًا، ثمانيةٌ اشتراكيون وأربعةٌ لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة مثل الإعفاء من جمارك العربات، توفير سكنٍ مناسب أو سرعة التعيين. وقد اختِير هذا الوفد بناءً على انتخاباتٍ عامة من جميع الطلاب الدارسِين في فرنسا، وحدَث نفس الشيء في ألمانيا وإنجلترا، وكان التجمُّع الرئيسي في فرنسا، ومنها الطائرة التي نَقلَت الطلبة من باريس إلى القاهرة في يونيو ١٩٦٦م وأعادتهم إليها، ينتقلون بعدها بالقطار إلى مَقارِّ دراساتهم في فرنسا أو خارجها؛ فما أَسهلَ المواصلات الأرضية داخل أوروبا!

وفي هذا العام قُمنا بنشاطٍ سياسي في الموضوعات التي تَحدَّثنا فيها مع المشير مثل الطبقة الجديدة في مصر، طبقة كبار الضباط والمُديرِين ورجال القطاع العام، واتساع الهُوَّة بين الأغنياء والفقراء، والخوف من هذه الطبقة أو تضخُّمها. وكان تجمُّعًا لِلطلبة التقدُّميِّين، نستعد فيه للقاء جمال عبد الناصر، وكان كلٌّ منا يكتب بحثًا في تخصُّصه

[٢] وهو الذي أصبح وزيرًا للتعليم العالي ونائبًا لرئيس الوزراء في حكومة حازم الببلاوي.

في أحوالِ مصر الاقتصادية والسياسية والثقافية؛ فكتب حسام عيسى عن أحوال مصر السياسية، ومحمود عبد الفضيل عن أحوالها الاقتصادية، والسيد يس عن أوضاعها الاجتماعية،[٣] ورشدي راشد عن أحوالها الثقافية، وحسن عبد الحميد وأبو زيد رضوان ومحمد عمران عن أوضاعها القانونية، وأنا عن استقلال الجامعات، وكان البعض الآخر يُجهِّز نفسه لخطابٍ شفاهي دون أن يكتب. وكان سيد يس في إحدى الجامعات الإقليمية مثل ديجون، وكان يأتي إلى باريس فأترك له غُرفتي ليقضي الليلة فيها في البيت الألماني، وكنتُ أذهب لآخر الليل في مكانٍ آخر، يقول هو مع صديقتي. والجوهري كان مُدرِّس الطبيعة النووية. وأعددنا مِلفًّا كاملًا عن أحوال مصر لإعطائه إلى الرئيس عبد الناصر في الصيف عندما نُقابله، ونُحذِّره فيه من أي مواجهةٍ مع إسرائيل لن تكون في صالح مصر. وكنا نغني: «لكِ يا مصر السلامة، وسلامًا يا بلادي، إن رمَى الدهرُ سِهامه، أتقيها بفؤادي، واسلمي في كل حين.» وكان اللقاء في أغسطس ١٩٦٦م في أكبر مُدرَّج بجامعة الإسكندرية، وهو في قصر الطاهرة، واستَمرَّ لمدة أسبوع، انتهى بتصويرنا معه صورةً تَذكارية أمام قصر الطاهرة. وكان من أبرز التساؤلات: هل ما يحدث في مصر اشتراكيةٌ غربية أم تطبيق عربي للاشتراكية؟ فالاشتراكية واحدة نظريًّا، وإن كانت متعددة عمليًّا. وهو نفس السؤال الذي سأله سيد قطب في مرحلته الأخيرة: هل هم المسلمون أم جماعةٌ من المُسلِمين؟ وسلَّمناه مِلفَّ الدراسات عن أحوال مصر، فأتانا اليوم التالي يُعبِّر عن إعجابه بها، ولكنه يخشى من التطرُّف من الاشتراكيِّين كما يُقال الآن عن تطرُّف الإخوان. وطلبنا منه أن يُعاد كتابة الميثاق حتى لا يسمح بالفارق الطبقي أكثر من ١:١٠ والذي هو الآن واحد إلى عدة ملايين بل مليارات. وفي نهاية المؤتمر نشأ بيني وبين رشدي راشد حوار؛ أنا أستعد للعودة إلى مصر، وهو مُصمِّم على البقاء في فرنسا حتى أصبح عالمًا كبيرًا في تاريخ الرياضيات، وحصل على الدكتوراه لأبحاثه Sur Travaux. وحاول إنشاء معهدٍ لتاريخ العلوم بمكتبة الإسكندرية، ولكن لم تنجح الفكرة لغياب صاحبها. وحاولتُ إقناعه بتأسيس شيءٍ في جامعة القاهرة من الجوائز التي يحصل عليها الطلاب

[٣] ولم يستطع الحصول على الدكتوراه، فعاد إلى مصر، وكان أول من كتب في علم الاجتماع الأدبي، ثُمَّ عُيِّن باحثًا في المركز القومي للبحوث الاجتماعية، ثم المُحرِّر الرئيسي للتقرير الاستراتيجي العربي، ثم صحفيًّا وكاتبَ مقالٍ أسبوعي في الأهرام.

ولكنه لم يَستسِغِ الفِكرة على خلاف مجدي يعقوب وأحمد زويل، بالرغم من توفر المال لديه من الجوائز التي نالها خاصة جائزة فيصل الإسلامية، بينما تقدَّم ناشر «من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه» لِنَيلها فحُجِبَت الجائزة هذا العام. ودعوتُه أستاذًا زائرًا بقسم الفلسفة بجامعة القاهرة، فكان بينه وبين الطلبة فرقٌ شاسع في المستوى. ودعوته إلى إلقاء محاضرةٍ عامَّة في المجلس الأعلى للثقافة باسم لجنة الفلسفة، فحضر القليل، وغادر أمين لجنة الفلسفة احتجاجًا على هذه المحاضرة التي يعلو مستواها على مستوى الحاضِرين. وتَذكَّرت كلمة جان جيتون التي كتبها في آخر صورةٍ بعثها إليَّ: «يجب الرهان» Il Faut Parier؛ فقد راهنتُ على مصر والجامعات العربية والإسلامية، ونِلتُ أعلى الجوائز في مصر، جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٧م ثم جاءت جائزة النيل ٢٠١٦م والجائزة البولندية من رئيس جمهورية بولندا، وجائزة الشيرازي من الرئيس خاتمي في إيران. وهو راهن على فرنسا، ونال أعلى الجوائز من السعودية، فيصل، وأصبح من أشهر عُلماء تاريخ الرياضيات في الغرب — أطال الله في عُمرَينا لمزيدٍ من العطاء. لا نتراسل كثيرًا ولكني أراه كلما أتى في اجتماع مجلس إدارة مركز المخطوطات العربية بمكتبة الإسكندرية؛ فكِلانا عضو في الإدارة السابقة. وكان قد أتاني مرة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية يعرض عليَّ إذا كان يحجز لي من دَخلِه الشهري الذي كان يُحوَّل إليه جزءًا، وأخرج من يده ورقة فرنكاتٍ وقعَت على الأرض، فاعتذرتُ، وشَكرتُه.

وكان الطلب الوحيد الشخصي من وزير التعليم حسين كامل بهاء الدين هو نَقلَ مكتبتي من باريس إلى القاهرة بعد أن كنتُ سلَّمتُ مِفتاح غُرفة السطح التي كنت أسكن فيها إلى السفير؛ لأنني سأغادر بالطائرة، فطلَب مني الوزير أن يُوافق عبد الناصر، فانتظرتُه وهو خارجٌ من المُدرَّج وشَرحتُ له الأمر، فوافق ومضى على الطلب على الفور، وانتظرتُ حوالي ستة أشهر، من يونيو حتى ديسمبر. وعاد الزملاء في مؤتمر المبعوثين إلى باريس في سبتمبر ١٩٦٦م، وتخلَّفتُ أنا في مصر بعد أن كنتُ قد ناقشتُ رسالة دكتوراه الدولة في السربون في يونيو من نفس العام. ولأوَّل مَرة بعد المناقشة أسير في شارع بول ميش خاوي الوِفاض من هُموم العلم وكأني سائح، كان همي فقط شراء النصوص الفلسفية التي تنقُصني من مكتبات النصوص الفلسفية خاصة عند فران Vrin وأوبيي Aubier والمطابع الجامعية الفرنسية Press Universitaire de France (PUF). وغيرها، وكنتُ آخذ قوائمها وأُعلِّم عليها باليد وأَجمَعها وأُعطيها لمكتبةٍ في

شارع فورجيرار Vaugerar تعطي تخفيضًا ٢٠٪، جاء صاحبها مصر ليزورني، وهو الذي دعاني إلى الغداء. وتم شحن الكُتب في ثلاثة صناديقَ خشبيةٍ ضخمة ووَصلَت للإسكندرية، وذهبتُ مع والدي وأخي لاستلامها، وفي الجمرك انتَظَر الموظف «بقشيشًا»، ولَّما فتحَها ووجدَها كتبًا قال: كتب! حزن. واكتفى بصندوقٍ واحد ووقَّع بالموافقة على كتاب أورتيجا إي جاسيه «ثورة الجماهير». وبعد شحنها إلى القاهرة ساعدَني زوج أختي الكبرى سيد حامد في شراء ألواح الأخشاب ونِجارتها من قريبٍ لي تُوفِّي أخيرًا هو علي النجار لِعَمل مكتبةٍ لتصنيف الكُتب عليها في غُرفةٍ من شقة الأسرة في شارع الجنزوري بالعباسية التي ما زال يقطن فيها ابن شقيقتي بعد أن تُوفِّي الوالدان والخالة. وفي هذه الأشهر الستة كتبتُ «التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم»، وهو مُجرَّد مقدِّمة لرسالتي الأولى «مناهج التفسير في علم أصول الفقه» التي كُتِبَت عام ١٩٦٥م قبل «نحن والتراث» لمحمد عابد الجابري الذي ظهر عام ١٩٨٠م والذي يُسمِّيه تلميذي أنور مغيث «مانيفستو حسن حنفي». وقد ظهر عام ١٩٨٠م في دار نشر محمود الشنيطي رئيس الهيئة العامة للكتاب السابق والمؤسِّس لها، بعد أن جَمَعنا من شلَّةٍ من المُثقَّفِين حوالي ستين ألف جنيه لِبناء مُلحَق في فِلَّته بمدينة نصر وإحضار آلات الطباعة، والبداية بتصوير النصوص القديمة مثل مُذكِّرات أحمد عرابي، وأَمدَّه أخوه فتحي بآلات الطباعة التي كان يُريد الاعتماد عليها في إنشاء مطبعته الخاصة في بدروم فِلَّته. وبعد مدةٍ توقف المشروع، وضاع رأس المال، وأَخَذ فتحي آلاته، ورَدَّ لي محمود خمسائة جنيه من خمسة آلاف تعويضًا عن خسارة المشروع، وقال لي إن ذلك من ماله الخاص.

الفصل الرابع

الأستاذ الجامعي (١٩٦٦–١٩٧١م)

ولا يعني الأستاذ الجامعي هنا درجة أستاذ، بل تعني بداية التدريس بالجامعة كمدرس ١٩٦٧م ثم أستاذًا مساعدًا ١٩٧٣م ثم أستاذًا ١٩٨٠م. ولا يعني نهايته عام ١٩٩٥م بل التعيين كأستاذ متفرغ حتى عام ١٩٨٠م، يُجدَّد التعيين مرةً كل سنتَين بطلب القسم حتى الثمانِين وكفَى. أُلغي الفرق بين المُتفرِّغ وغير المُتفرِّغ، ويستطيع الأستاذ أن يستمر أستاذًا سواءٌ درَّس أم مَنعَته صحته عن التدريس على ما أَذكُر. وقد يكون القانون قد تغيَّر.

تعرَّفتُ على سامي النشار بالإسكندرية وسعاد عبد الرازق ابنة علي عبد الرازق صاحب «الإسلام وأصول الحكم»، وكان من أشهر أساتذة الفلسفة بآداب الإسكندرية، وطَلَبَ مني أن أُزامِله في قسم الفلسفة بالإسكندرية، فاعتذرتُ لأن الشوق كان لجامعة القاهرة بعد حرمانٍ طويل، عشر سنوات، وظلَلنا نتعاون علميًّا في فلسفة العصر الوسيط، وساعدني في تقديمي لدار الكتب الجامعية، ونَشرِ أَوَّل كتابٍ لي «نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط»، يحتوي على ترجمات «المعلم لأوغسطين»، «أومن كي أعقل لأنسليم»، «الوجود والماهية لتوما الأكويني». وقد كُلِّفتُ بتدريس الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى بجامعة القاهرة، بعد أن تركها فتحي الشنيطي لأنه لم يكن راغبًا فيها. وعندما عُدتُ من الإسكندرية واقتربتُ من قسم الفلسفة بآداب القاهرة كان رئيس القسم أحمد فؤاد الأهواني الذي كُنتُ قريبًا منه وأنا طالب، واصطَحَبني معه إلى مكتبة عيسى البابي الحلبي في الأزهر الذي كان نسيبًا له، وكان يُعِد لأن ينشر مخطوطًا كلَّفني بنقله أولًا بخط اليد، ولم يكن هناك كومبيوتر في ذلك الوقت، وحَزِنتُ عليه عندما غادر إلى الجزائر ولم يَلقَ معاملةً طيبة، ثم تُوفِّي بعد نَشرِ رسائل ابن سينا في النفس،

وكتب كتابًا مُقرَّرًا عن الفلسفة الإسلامية، وكان أوَّلًا في وزارة التربية والتعليم، فسُرَّ بعد لقائي بعشر سنوات، وأراد أن يُعيِّنني بالقسم بلا إعلان، ولكن الإدارة رفَضَت؛ فلا بد من إعلان، والإعلان عن درجة، والدرجة لا تُوجد، ولا بد من نقلها من قسمٍ آخر مما يستدعي موافقةَ القسم صاحب الدرجة، وطلَبَ القسم الذي يُريد الدرجة، وعميد الكلية، ورئيس الجامعة، ووزير المالية! وهذا يحتاج عامًا للحصول على كل هذه المُوافَقات دون أن يعترض أحد. وقابلتُ عبد الرحمن بدوي وكان في طريقه إلى إيران، ويُريد مَن يحل محلَّه، وأُعلن عن درجةٍ علميةٍ شاملة في تاريخ الفلسفة حتى ينطبق عليَّ الإعلان، فوافقتُ وأنا ليس لي عمل. وتَقدَّم اثنان؛ عزمي إسلام في المنطق تلميذ زكي نجيب محمود وأنا، وبالطبع فضَّلني بدوي. ولما طلب مني القيام بإجراءات التعيين اللازمة لم أكن أشعر بأي شيءٍ تجاه المبنى، مبنى كلية الآداب، جامعة عين شمس بالطوب الأحمر والمعمار الهندسي الصوري الشكلي، فذهبتُ إلى بدوي وأخبرته بأن الحيطان لا تُكلِّمني، فسَخِر مني قائلًا: وهل الحيطان بتتكلم يا أستاذ؟ واعتذرتُ له، فأخذ عزمي إسلام. وذَهبتُ إلى سهير القلماوي التي كانت رئيسة قسم اللغة العربية لأرجوها مُساندَتي في مجلس الكلية في نقل درجة من قسمٍ إلى قسم الفلسفة، فقالت بجفاء وهي تنظُر إلى الكتاب المفتوح بين يدَيها: «عندما أُعيِّن طالبي أولًا.» وتقصد عبد المنعم تليمة. رَدَدتُ عليها في سِرِّي: ولكن طالبها لن يرفض؛ فأنا وهو واحد. وهي زوجة يحيى الخشاب الذي أحالني إلى التحقيق وأنا في السنة الرابعة لأني رفضتُ أن أدعو العميد، السيد العميد لأنه لا سيد إلا الله، وقول الرسول: «لا تُسيِّدوني.» وكانت فِيلَّتها في ميدان الجيش حيث أسكن في الشارع بجواره، شارع الجنزوري.

وطلَب مني رئيس القسم أن أقوم بتدريس الفلسفة في العصور الوسطى مُنتدَبًا، وكان فتحي الشنيطي يقوم بها وهو لا يُحبها، ففَرِح لأن أحدًا غيره سيقوم بذلك، ولم تعرف الحسابات كيف تدفع لي أجرًا؛ فأنا لستُ مُنتدَبًا من جهة حتى تُعاملني بالمِثل. وفي هذا العام زادت معرفتي بمصطفى حلمي، وكنتُ أَذهَب إليه كي أَصحَبه إلى الجامعة، كما كان يفعل أحمد مرسي مع عبد الحميد يونس، وعَرَّفني بابنته ربما لغايةٍ في نفسه، وما زلتُ أذكُر معركتي معه عندما كان يُعطيني بحث قسم الامتياز وأنا في السنة الرابعة، طلَب مِنِّي أن أكتب بحثًا عن نظرية المعرفة والسعادة عن الغزالي، وهو موضوعٌ تقليدي، ولم أكن أُحِبُّ الغزالي ولا التصوُّف، وفي الخاتمة بعد عرض البحث كَتبتُ رأيي عن «السقوط والانعراج»، وعَنَيتُ به السقوط السياسي والاجتماعي في عَصر

الفِتنة الكُبرى ثم ردَّ الفعل عليه بالتصوُّف بالصعود إلى أعلى، وهو ما شَرَحتُه بعد ذلك في «من الفَناء إلى البَقاء، محاولة لإعادة بناء علوم التصوُّف»، فلمَّا قرأه قال لي اقطع هذه الخاتمة لأنها خارج الموضوع، فاعترضتُ بأن هذا هو رأيي الخاص، فرفض، وأعطاني المِقَص، وقصَصتُ الخاتمة وكأنني أقطع قلبي. رزَعتُ الباب بقوة، لا أدري إراديًّا أم لا إراديًّا، شعوريًّا أم لا شعوريًّا، وخَرَجتُ وكنتُ أخشى أن ينكسر الزجاج من وراء الحاجز الحديدي. لم ينتقم مني كما يفعل آخرون، وأعطاني امتياز، ثم حَدثَت هزيمة يونيو ١٩٦٧م وكنتُ خَجولًا للسعي في مصلحةٍ شخصية، والوطنُ كُلُّه في نكسة، ومع ذلك تمت إجراءات تمويل درجة مدرس، وتم الإعلان، وتقدَّمتُ، ولم يكن هناك منافسٌ غيري، وعُيِّنتُ رسميًّا مدرسًا بقسم الفلسفة بآداب القاهرة بثلاثين جنيهًا شهريًّا، وكنت أدفع نصفها للأسرة تكلفةَ إقامتي معها، والنصف الآخر قسط موبيليات أختي الصغرى حتى الزواج؛ لذلك كنت أكتب في «الفكر المعاصر» بعشرة جنيهات و«المجلة» بثمانية جنيهات و«تراث الإنسانية» بعشرين جنيهًا، و«الكاتب» بستة جنيهات، وكان المجموع مُواصَلاتي وثَمَن كتبي بالعربية، وحصيلة ذلك نُشِر بعد ذلك في «قضايا معاصرة» (جزءان): الأول «في فكرنا المعاصر». والثاني «في الفكر الغربي المعاصر»، أسلوبٌ ثقافي سياسي عام ١٩٦٨م، ١٩٧٠م. وحذَّرني رئيس القسم: إياكَ أن تصبح مثل أنيس منصور؛ أي تترك الفلسفة إلى الصحافة، و«التراث والتجديد» لم يكن قد ظَهر بعدُ إلا في الرسالتين بالفرنسية، فكان التحذير ليس في مكانه. وكان الموضوع الغالب فلسفة الدين، وفلسفة السياسة، والواقع العربي المعاصر، وهي الأضلاع الثلاثة في مشروع «التراث والتجديد». ووصلتني دعوة من المعهد الفرنسي في روما برياسة كاستيلِّي لحضور مؤتمر عن التأويل والهرمونطيقا في يناير ١٩٦٨م، ورفضت السلطات الأمنية بالمجمع سَفَري، فأرسلتُ برقية إلى عبد الناصر أُخبره بالأمر، فتم الرَّدُّ مع راكب موتوسيكل بعد أربعٍ وعشرين ساعة بالمُوافَقة على سفَري، وقدَّرتُ الرئيس، وأدركتُ خطورة أجهزة الأمن الموازية لسلطة الرئيس.

ودرَّستُ مُعظَم الموادِّ تقريبًا: الفلسفة العامة للسنة الأولى، وفلسفة العصر الوسيط وعلم الكلام في السنة الثانية، والفلسفة الحديثة في الثالثة، وفلسفة التاريخ، والفكر العربي المعاصر في السنة الرابعة؛ فقد كنت شابًّا مُتحمِّسًا يشعر بالخجل من الهزيمة ١٩٦٧م، ويقرأ تاريخ الفلسفة من خلال المُقاوَمة ابتداءً من الدوناتيِّين ضِد أوغسطين، ضِد سلطة دِفاعًا عن الإمبراطورية الرومانية حتى فشته ونداءاته للأمَّة الألمانية ضد

احتلال نابليون لألمانيا، وكان يَحضُر محاضراتي جميع الطلاب من جميع الكليات ورجال الأمن.

وكانت قُبة جامعة القاهرة تبدو لي من شارع الجامعة وأنا داخل إليها مثل معبد البانثيون وقبة السربون. وكنتُ أَشعُر بالفرح داخلي أنني في حضرة العِلم والعُلماء في الصباح، وأَحزَن وأنا أُغادِرها في المساء، ولِسانُ حالي يقول: هذه هي الجامعة التي تعلَّمتُ فيها منذُ عشر سنوات والآن أنا أُدرِّس فيها «عَود على بَدء»، أعود إليها منتصرًا بعد أن غادرتُها مهزومًا ومتهمًا بِقلَّة الأدب في مخاطبة العُمداء، أُعطي مثلًا جديدًا للطلاب بدلًا من تقليد الجيل القديم، يكفي الارتجال دون كتابٍ مُقرَّر وإعطاء الأسئلة من أول العام مكتوبةً بالطباشير الأبيض على السبورة السوداء، وجامعًا بين الفكر والواقع، ومُعطيًا خطابًا من القلب إلى القلب يجمع بين العقل والوجدان. ومن هنا بدأ مشروع «التراث والتجديد»، كُنتُ أشعر بانتمائي المُطلَق له؛ لذلك جَعلتُ وديعةً باسم كلية الآداب للصرف من عائدها على البحث العلمي والمؤتمرات التي تربط بين الأقسام مثل اللغة، «النص والتأويل»، وتشجيع الأقسام على عَقدِ مؤتمراتها السنوية للخروج من العلم إلى الثقافة، وأنا سعيد بذلك، وما زِلتُ حتى الآن أَتوحَّد معها، ولا أدري إذا كانت هي تتوحَّد معي أم لا.

وكانت هزيمة ١٩٦٧م طعنةً في قلب كل مواطن. وتحولتُ من باحثٍ فلسفي إلى مُفكِّرٍ وطني كما حدث لفشته بعد احتلال نابليون لألمانيا؛ إذ تَحوَّلَت مُحاضراتُه كلها إلى فلسفة للمقاومة، الأنا في مقابل اللاأنا من أجل الوصول إلى الأنا المطلق، وهو الجدل الهيجلي.[١] وقد كتب هيجل ضِمن مؤلَّفات الشباب مقارنةً بين فشته وشلنج. وكان طلاب الكليات الأخرى مثل كلية الحقوق يأتون إلى الآداب لسماعي، ومنهم جابر نصار رئيس جامعة القاهرة السابق.[٢] ومَلَأتُ المجلاتِ الثقافية ضجيجًا فلسفيًّا عن المقاومة لتقوية الروح المعنوية للشباب. وشاركتُ في مظاهرات مارس ١٩٦٨م ضِدَّ ما يُسمَّى بأحكام الطيران التي كانت مُخفَّفةً مُقارَنةً بحجم الهزيمة، وقُبِض على كثيرٍ من المُتظاهِرين. وكُنتُ أدعو للتحقيق في أسباب الهزيمة، والمُشاركة في حرب الاستنزاف (١٩٦٨-١٩٦٩م)

[١] حسن حنفي: فشته، فلسفة المقاومة.

[٢] ومن المُرشَّحِين للرئاسة السابق حمدين صباحي، ومن الإعلاميِّين عمرو أديب وكثيرون غيرهم من العرب والمسلمين والآسيويين والأفارقة.

حتى تُوفِّي عبد الناصر عام ١٩٧٠م، وشاركتُ في عزائه. وحَزِنتُ على تصفية الناصريِّين في ١٥ مايو ١٩٧١م، ثم استدعاني رئيس الجامعة محمد مرسي أحمد معترفًا بأن مُحاضَراتي عن المُقاوَمة مُسجَّلةٌ في قسم الدقي، وهناك تحذيراتٌ لي عن طريق رئاسة الجامعة بأنني موضوع تحت المراقبة، والأفضل أن أَصمتَ أو أن أَخفِض الصوت أو أن أقبل الدعوة التي أتتني من إسماعيل الفاروقي لِأُزامله في التدريس في الولايات المتحدة، فقبِلتُ الرحيل.

وكان الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم ظاهرةً تَنتقِد الأوضاع السياسية، وتدعو إلى المقاومة لِمَا بعد الهزيمة. استمعتُ إليه لأوَّل مرة في كلية الحقوق خاصة «جيفارا مات» التي كان يُنهي بها الغِناء. وكانوا ثلاثةً بعد أن انضم إليهم محمد علي الطبال، كانوا فقراء لأنه لا وظيفة لهم، وكانوا يسكنون في حوش آدم بشارع المعز لدين الله حيث نشأ نجيب محفوظ بالجمالية، وحيث نَشَأتُ أنا بباب الشعرية بجوار باب الفتوح. كان يُحيِّي الطلبة والعمال مثل لجنة الطلبة والعمال التي تكونت في عام ١٩٤٦م ضد الإنجليز والقصر، والمناداة بالاستقلال التام أو الموت الزؤام. وكان أمن الجامعة يود القبض على هذا الثلاثي الثائر وعلى حشد الطلاب، ولكن لم يكن قادرًا؛ إذ كان يختبئ في عَربَة دخول الجامعة وفي الخروج منها، فكتَبتُ لأول مرة عن هذه الظاهرة مقالًا في «الكواكب»، المجلة الأسبوعية التي كان يرأسها رجاء النقاش، وكان المقال بعنوان «الشيخ إمام إمام المُثقَّفين»، ولكن رئيس التحرير غَيَّر العنوان إلى «الشيخ إمام والمُثقَّفون»، وكأنه قد استكثر عليه أن يكون إمامًا، وكان أَوَّل مقالٍ أكتبه، وكان مثل الشيخ سيد درويش في ثورة ١٩١٩م. وكلاهما له لقب الشيخ، وكانت أَلحانه يُغنِّيها الطلاب معه أو بدونه مثل «يا بهية»، وانضَمَّ إليه زين العابدِين فؤاد بأشعاره الثورية مثل:

اتجمَّعوا العشَّاق في الزنزانة — اتجمَّعوا العشَّاق في بابِ الخَلقْ
والشمس من الزنازين طالعة — والغنوة طالعة من الحلق
اتجمعوا العشَّاق في زنزانة — مهما يطول القهر مهما يطول الفقر
مهما يطول القهر بالسجانة — مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر؟

وكنت أشارك في تهريبه وإحضاره إلى كلية الآداب في إحدى المدرَّجَين الكبيرَين ٧٤ أو ٧٨. وكان العميد لا يستطيع أن يفعل شيئًا أمام حَشدِ الطلاب وشُعورهم بالهزيمة والقهر والفقر.

وكان هناك نظام الأُسَر الطلابية ومنها أُسْرة مصر التي كان يغلب عليها الطابع الشيوعي. وكان لا بد لكل أسرة من عضو هيئة تدريس يكون مسئولا عن نشاطها، وكان رضوان الكاشف هو رئيس أسرة مصر، ولا تجد رائدًا لها حتى تُصبح شرعية، فتطَوَّعتُ لذلك. وكان نشاطها يتعلق بتحرير مصر واستقلالها كما كانت الحركة الوطنية في الأربعينيات. وكان رضوان الكاشف قد اختار عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية موضوعًا للماجستير وأنا المُشرف عليه. وكانت الخطَّة في صياغتها وأُسلوبها مثل خُطَب النديم، فطلَبتُ منه أن يحول الخَطابة إلى برهان، ويبدو أن الطلب كان صعبًا، فتَوجَّه إلى معهد السينما، وتخرَّج منه، وأَصبَح مُخرجًا ناجحًا، له عدة أعمال يُشار إليها بالبنان مثل «عرق البلح». وأَنوِي الكتابة عنه إذا أمَدَّ الله في العُمر، كما فعلتُ مع المُخرج توفيق صالح إعجابًا وتقديرًا لأفلامه الجادة مثل «درب المهابيل».

واستدعاني صوفي أبو طالب رئيس الجامعة وسألني: هل أنت شيوعي مثل هؤلاء الذين تجلبهم للجامعة؟ فأجبتُ لا، ولكني مثل جمال الدين الأفغاني، فرَدَّ قائلًا: الشيوعي! وهو نفس السؤال الذي سَأَلَني إياه الرئيس السابق محمد مرسي عندما استَدعَى بعض المُثقَّفين إلى قصر الاتحادية لمناقشتهم، وسأل: أين د. حسن؟ فقمت، فقال: يقولون عنك شيوعي! وكان يظن أني من الإخوان، وقد سافرنا سويًّا في مجموعة حِوارٍ في ألمانيا قبل أن يصبح رئيسًا، فأَجبتُ: لا، بل أبو ذر الغفاري. فأجاب أحد الحاضرين: شيوعي! فقد كانت صورتي في الإخوان أني شيوعي، وصورتي عند الشيوعيين أني إخواني، وصورتي في أجهزة الأمن أني إخواني شيوعي. ولم يكن «اليسار الإسلامي» قد انتَشَر بعدُ لِيحُلَّ التناقض بين الإسلام والشيوعية أو الاشتراكية أو الأيديولوجيات العلمانية كالليبرالية والقومية. وما زالت أغاني الشيخ إمام تَرِنُّ في أذني كلَّما اكتأبتُ أو شعَرتُ بالإحباط.

ولَمَّا كنتُ ما زلت أَعزَب، وقَرُبتِ التزاماتي الأسرية على الانتهاء حتى أُفكِّر في نفسي، ومنذ أن عُدتُ من فرنسا وعُيِّنتُ بقسم الفلسفة بآداب القاهرة التقيت بمجموعةٍ من الشباب مثلي وعلى رأسهم عبد المنعم تليمة، ومنهم عبد الغفار مكاوي، وعبد المعطي شعراوي، والنعمان القاضي. كان مَن ينظم الشعر، ومَن يكتُب القِصص، ومَن يُترجِم عن الآداب الأجنبية، ومنا من يُنظِّر للثورة وهو عبد المنعم تليمة الذي استفدتُ منه كثيرًا في استعمال المُصطلَحات الثورية ومناهج التحليل الثوري. وكُنَّا نقضي ليلةً أسبوعيًّا في منزل أَحدِنا، نُحاول التعرف على أسباب الهزيمة ومُقوِّمات النصر. وفي نفس الوقت

كُنَّا نحتاج إلى الحب، ومن أَقربُ إلى الحب من مُعيداتِ الكلية اللاتي ربما يعشن نفس القضية؟ وكن ثلاثَ مُعيداتٍ تَخرَّجنَ من قسم الإعلام عندما كان ما زال جزءًا من كلية الآداب. كانت أَكثرُهنَّ جمالًا ونشاطًا وحيوية ورياضةً وسباحةً في حمَّام نادي التوفيقية مُتزوجةً من ضابطٍ شاب، وتريد الانفصال عنه، وكان أكثرُ المُرتبطِين بها زميلًا من قسم الفلسفة، وكان يُعِد رسالة ماجستير في عِلم الجمال عند كانط في «نقد مَلَكة الحكم»، كان يسكن في غرفةٍ في شبرا، وليلة لا تُنسَى قضيناها، وهي تَرقُص لنا، وأنا أقول في نفسي ما أحلى الحب والزواج! ولكنَّ هاتفًا داخليًّا كان يقول لي دائمًا احذَر من المُطلَّقات وانتَظِرِ العَذراء، ومن جرَّب الطلاق أَوَّلَ مرة لا يُستبعَد أن يمر به مرة ثانية. وكان الارتباط بالعذراء من بقَايا الرومانسية القديمة، وقد تَزوَّج الرسول مُطلَّقةً، خديجة، وأَحَب عائشة العذراء؛ فلا تعارُض بين الاثنَين. ومن منَّا قادرٌ على أن يكون مثل الرسول؟

وقد بدَأتُ التفكير في الزواج بعد أن بَدأتُ في تَسديدِ آخرِ قِسطٍ في جهاز شقيقتي الصغرى نادية، خمسة عشر جنيهًا شهريًّا، ولم يَبقَ إلا خمسة عشر جنيهًا؛ فقد كان مُرتَّبي ثلاثين جنيهًا كُنتُ أُساعِد بها الوالد والوالدة لأن معاش والدي، خمسة جنيهات، لا يكفي. وكان أخي سيد قد تكفَّل بزواج باقي أخواتي، سعاد وفاطمة وعلية، بعد أن تزوَّجَت أختي الكبرى نبيهة على اسم والدتي قبل أن يَتوظَّف أخي. وكنتُ أعيش من دخلي من المجلَّات الثقافية، «الفكر المعاصر» و«الكاتب»، و«تراث الإنسانية»، و«المجلة»، وبعض الأحاديث التلفزيونية أعيش من دخلها وأعولُ أُسرَتي منها وما تَبقَّى لشراء الكتب، نصوص الفكر الإسلامي؛ فقد كان لديَّ من الفكر الغربي الأوروبي ما يكفي. وكان البيت مرةً خاويًا من أي نقود، ورجَعتُ من التلفزيون بأربعة جنيهات، ومَرَرتُ على والدتي ووالدي، فقالت الوالدة: «عاوزين نبيض الشقَّة يا أبو علي.» فأعطيتُها ما معي، وعُدتُ إلى المنزل خاوي الوِفاض كما نَزلتُ، وكانت زوجتي تفعل نفس الشيء مع أسرتها، ولكن كُنَّا سُعداء، ونعيش بأربعة جنيهات في الأسبوع بما فيها المواصلات، وكانت الأشياء رخيصةً وليس كما هو الآن. كنت سعيدا بشبابي وبشبابها، وكان الحُب بيننا هو المانع من أي شِقاقٍ نَسمَع عنه في الأُسَر الحديثة التكوين وكما تُصوِّر الأفلام المصرية.

وأخيرًا قَدَّمني عبد المنعم تليمة إلى طالبةِ دراساتٍ عليا، تدرُسُ المسرح المصري عند يعقوب صنوع بإشراف شكري عياد، وفي نفس الوقت طَلَبَت من أستاذها من يُترجِم لها بعض العبارات بالفرنسية التي وَردَت في أعمال يعقوب صنوع، فنصَحَها بالذهاب

إلى شابٍّ أتى حديثًا من فرنسا، ويستطيع مساعدتها. وتقابلنا في مكتبة الجامعة، وكنتُ أقوم بما تطلب وأنا بجانبها أنظر إليها فأرى العينَين مع Eye Liner الأزرق، وأَشعُر بالرقة والاحترام. وعرفتُ أنها تعمل أيضًا في مكتبة الجامعة الأمريكية، فتواعدنا مرةً في حديقة الجامعة الأمريكية بجوار النافورة، ورأيتُ جَمال القَوام وطريقة الحوار المُتحضِّر والرشاقة، وكان ذلك في يوم ٧ أغسطس ١٩٦٩م، وما زلنا نتَذكَّره كل عام، ونحتفل به. وفي نفس الوقت كان لقاءٌ مع محمد حسن خليفة قبل سفره إلى جامعة تمبل لاستكمال الدراسة، وهي الجامعة التي كان فيها إسماعيل الفاروقي الذي دعاني إلى مصاحبته في التدريس بالجامعة بعد أن تَعرَّفتُ عليه في جامعة القاهرة أستاذًا مَدعُوًّا من يحيى الخشاب، بقسم اللغات الشرقية، وكان مُتخصِّصًا في فلسفة الدين أو تاريخ الأديان. ثم تَواعَدنا على الغَداء في نادي التوفيقية الذي كان يَحِق لأساتذة جامعة القاهرة الاشتراك فيه بخمسة جنيهات، وكانت وجبة الغداء بسبعة عشر قرشًا ونصف، وأنا أَسبَح لأعرض قُدُراتي الرياضية، حدث ذلك عدة مرات. ومرةً وأنا خارجٌ ظُهرًا لاحَظَت والدتي أنني لا أتغدَّى في المنزل، وهي تطبخ لي، وقالت لي: «حاسب ولاد الناس يا أبو علي.» فطَمأنتُها بأن الموضوع جاد. وسألتُها مرةً: أتُريدين أن تعيشي معي دائمًا؟ فأجابت: «يا ريت.» فاطمَأنَنتُ إلى صدق العواطف المُتبادَلة. وسألتُ مرةً أخرى: ولكني إنسانٌ صاحب رسالة، أُعِدُّ مشروعًا قد يُنقِذ الأمة من كبوتها، وذلك يقتضي الجلوس على المكتب طيلة العمر، لا زيارات لأقارب أو أصدقاء؛ فوقتي كُلُّه للعلم ولأداء الرسالة، فوافَقَت. ستعيشين مع ضُرَّة، وهو العلم، فوَافقَت، فاستَغرَبتُ! وفرحتُ أن فتاةً مصرية لها هذا الوعي العلمي. ولم تطلب هي شيئًا، لا خطوبةً ولا مهرًا ولا سكنًا! ولَمَّا كانت دفعة جابر عصفور وقد أصبح صديقي طلَبتُ منه أن يذهب معي إلى أسرتها لِلتعارُف فوافَق، واتفقنا على الالتقاء في ميدان التحرير، وذهبتُ قَبلَها إلى شارع معروف واشتريتُ بطَّة، وطلَبتُ من «الفرارجي» لَفَّ رَقبتِها بشريطٍ أحمر وفي آخره «فيونكا»، فطَلَبَ من صبيِّه أن يفعل ذلك، فتردَّد، وصَفَعه الفرارجي على وجهه، وقال له: «وأنت مالك.» البيه عاوزها كده، ووضَعَتها زوجته ثريا وهي من نفس الدفعة في كيسٍ تحت القدمَين وهي جالسة. ووَصَلنا إلى المنزل ووضعته ثريا على الأرض وهي «تقاقي»، فخاف الجميع أولًا ثم ضحكوا، ودعتني والدة العروس لأن أذوقَ منها بعد أن طبَخَتها فاستَجَبت.

وسافرتُ إلى مرسى مطروح في رحلةٍ مع بيوت الشباب، وراسلتُها شوقًا إليها، وجاءتني بهديةٍ صغيرة لِلذكرى أشبه ما يكون بالإناء العربي، أَرضِيَّته خضراء وعليه

زينةٌ ذهبية صفراء، ثم دَخلَت مستشفى هليوبوليس لعمليةٍ جراحية، وذهبتُ لزيارتها مع أخي سيد، وقمنا بما يقوم به المُحبون في الواقع أو في السينما. واتفقنا على موعدٍ رسمي لِلقاء الأسرتَين، كان والدها مُتوَفى ولها شقيقةٌ مطلقة ولديها ابنٌ وبنتان والكُل يسكن في شقةٍ واحدة بالقرب من ميدان الحجاز بمصر الجديدة، وكنتُ أنا من مواليد باب الشعرية قبل أن ننتقل إلى العباسية، وكانت هي من مواليد ميدان الجامع قبل الانتقال إلى ميدان الحجاز، فكُنَّا متقاربَين من حيث أصولنا الاجتماعية. كانت المشكلة هو الرصيد المالي، لم يكن لديَّ إلا مرتَّبي، وهي أيضًا مُرتَّبها الذي كان يبلغ ضعف مرتَّبي، هي تعول أسرتها، وأنا أعول مع أخي سيد أسرتي، فأين لي بالشبكة والمهر والسكن؟ وأين لي بتكاليف الخطوبة وكتب الكتاب والزفاف؟ أخبرها أحد أصدقائها الذي يعمل في الإعلام والسياسة بوجود شَبْكةٍ للخطوبة بثلاثة جنيهاتٍ مثل الماس تمامًا، وذهبنا إلى الصاغة، واشترينا دِبَل الخطوبة، وكنا بها فرحَين. وعدنا إلى مقهى أعلى سينما ريفولي للاحتفال بها، والنادل ذهابًا وإيابًا ينظر إلينا وهو يحمل الطلبات، ثم أقمنا ليلة الخطوبة في منزلها، وكان معظم المدعوين من كلية الآداب وفي المقدمة أحمد مرسي وهو يرقص الرقص الشعبي. وجاء أحد أقربائها، قريب عمر مكرم، وكان هو رجل العائلة الحاضر شاهدًا على كتب الكتاب، وقد تم في نفس الليلة الخطوبة. وأُحيط الدَّور الأرضي بساترٍ من محلَّات الفراشة، وكانت ليلة، الكل فيها سعيد، الوالدان وأخي وزوجته والأخوات المتزوجات وأزواجهن وأولادهن، وشقيقتها وأولادها وأم العروس التي طالما انتظَرَت زواجَ ابنتها، وطبعًا أنا والعروس. كان الحفل بسيطًا، ولم يُقدَّم إلا المشروبات والجاتوه. وقبل انتهاء الحفل رأيتُ ربما من الأفضل أن آخذ عروسي للسهر في مكانٍ ما. ولَّما كان جيبي خاويا طلبتُ من زوج أختي علية د. محسن الطبيب إذا كان معه نقود، فأجاب: خمسة جنيهات، أخذتها سَلفًا، وذهبتُ والعروس إلى شارع الهرم في باريزيانا، ورقَصنا ثم عاد كلٌّ منا إلى منزله.

وكان عليَّ أن أُدبِّر بعض المال للمهر ثم لتأسيس شقة السكن دون أن أَفقِد الوقت. وكنتُ قد قرأتُ «رسالة في اللاهوت والسياسة» لإسبينوزا وأنا في باريس. وكنت أقبل نفس أفكارها خاصةً عن العنوان الفرعي «في أن حرية الفكر ليست خطرًا على التقوى، ولا على سلامة الدولة، بل القضاء على حرية الفكر فيه قضاءٌ على التقوى، وسلامة الدولة.» وكنتُ آتي بهذا العنوان الفرعي كسؤال آخر العام في مادة الفلسفة الحديثة، للسنة الثالثة أطلب فيها شَرحَ العبارة. وقُمتُ بترجمتها، وكانت ترجمةً جيدة بفضل

الصديق فؤاد ذكريا الذي راجع وصحَّح الترجمة، فكانت من أفضل الترجمات. وله عَشَرات الطبعات التي لا أعلم عنها شيئًا، ومُقرَّر على معظم الجامعات في درس الفلسفة الحديثة. وكانت المكافأة أربعمائة جنيه لم تُصرَف إلا بعد الزواج والإنجاب بمناسبة حرب أكتوبر ١٩٧٣م. وكانت الخطوبة عام ١٩٦٩م، والزفاف في ٣٠ أبريل ١٩٧٠م في نادي التوفيقية حول موائدَ وأطباقٍ في كلٍّ منها إصبعُ مَوز وبجواره زجاجة كوكاكولا، وفي الطبق قطعةٌ من الحلوى، وتورته دورين أحضرها أخي سيد. وأنجبنا حازم الطفل الأول عام ١٩٧١م، وهو الآن وزيرٌ مُفوَّضٌ وقنصلُ مصر في بورتسودان بالخارجية. وقد غنَّى فيه العزبي الذي كان زميلًا لنا في الثانوية، خليل أغا، مع أبو زهرة، وغنَّت مها صبري بدون «نقطة» لأن أخي سيد كان أستاذًا لِشقيقتها، وطَلَبَت فقط أربعين جنيها للعازِفِين دفعها أخي سيد. وصاحَبَنا مُصوِّرٌ إلى منزل الزوجية في عدة أوضاعٍ منها العريس يحمل العروس. ولولا أخي سيد ما كان الفرح قد تم. كان معظم الحضور من الأقرباء وزملائي في كلية الآداب وزملاء العروس في الجامعة الأمريكية، وأُقارِنه الآن بالأفراح في الفنادق خمسة نجوم والتي تُنفَق فيها عشرات الآلاف.

وكانت الشقة السكنية على ناصية شارع الحجاز وميدان الحجاز كبيرة، أربع غرف وصالة، قفَلنا البلكونة فأصبحَت خامسة منها حجرة مكتبي، كانت مشغولةً قبلي، وأعطاني صاحب المنزل أُسبوعَين مجَّانًا لو شئت لبياض الشقة لَمَّا علم أننا عروسان، كان الإيجار أحد عشر جنيها طِبقًا للجان تقدير الإيجارات منذ أيام عبد الناصر، وكان يملك مصنعًا بشبرا الخيمة، وجاءني مرةً وهو حزين لأن أخاه قد قُتل، والعائلة تُطالِبه بالثأر من القاتل وعائلته، وهو في حيرة، هل يفعل أم لا يفعل، وطلب نصيحتي باعتباري أُستاذَ فلسفة، فنصحتُه بألا يفعل لأن الثأر حلقةٌ لا تنقطع، وأن هناك قانونًا يأخذ له حق القتيل من القاتل، فاستَمَع الرجل إلى النصيحة، ولكن صورته أمام أهله لم تكن كريمة، فاغتَمَّ ومات. وتركتُها بعد خمسة وعشرين عامًا، وفيها وُلِد الأولاد الثلاثة، حازم ١٩٧١م، حاتم ١٩٧٦م، حنين ١٩٧٩م، وفيها ظهرت «قضايا معاصرة» (جزءان)، الأول «في الفكر العربي المعاصر»، والثاني «في الفكر الغربي المعاصر»، كما ظَهرَت «من العقيدة إلى الثورة» (خمسة أجزاء)، «من النقل إلى الإبداع» (ثمانية أجزاء)، و«الدين والثورة في مصر» (ثمانية أجزاء)، وما زلتُ أحن إليها كلَّما مَررتُ بها، وقد أصبَحَت مرةً محل كاوتشوك ومرةً كوافير. ونِدِمتُ على تغيُّر رسالة المكان، وقد ملأتُ طرقاتها بالرفوف لوضع كُتبي حتى تراكمت على الأرض، وأَحسَست بضرورة توسيع المكان،

وتركتُ الشقة لأصحابها دون أن أتقاضي مليمًا واحدًا (خلو رجل) لأنه لم يطلب مني شيئًا عندما سكنتُ فيها، واحدةٌ بواحدة، رجاني فقط أن أُسلِّم الشقة لوالدته لأنها ستكون كبيرةَ السن، ولا تستطيع صعود السلَّم في منزلٍ ليس به مِصعَد.

وكان أقرب الأقسام إليَّ قسم اللغة العربية حيث كان يُدرِّس أخي سيد وأصدقائي الأوائل مثل عبد المنعم تليمة ونعمان القاضي، ونَبتَت أفكاري الثورية معهم عندما صُفِّيَت المُعارَضة من الجامعة عام ١٩٨١م، كان ستةٌ منها من قسم اللغة العربية حيث كانت تَدرُس زوجة الرئيس، وأنا من قِسم الفلسفة وأمينة رشيد من قِسم اللغة الفرنسية وزوجة رشدي راشد السابقة، ثم قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، والشباب فيه مثل عبد المعطي شعراوي وأحلامنا في عمل سلاسلَ للأعمال الأدبية اليونانية واللاتينية المترجمة، ثم كلية دار العلوم حين كانت عمادته في يد محمود قاسم عندما كانت الكُلية في المنيرة، وتعرَّفتُ على شباب الأساتذة هناك، قلبي مع دار العلوم، وعقلي مع الآداب، ولكن كلا الطريقَين يُؤدِّيان إلى نفس الغاية، وبلغة العصر الوسيط المسيحي «أُومن كي أَعقل»، منهج دار العلوم، «وأَعقل كي أُومن»، منهج كلية الآداب. يعرفون الحقيقة ويبرهنون عليها، وأنا أبحث عن الحقيقة كي أبرهن عليها. يدافعون عن الله وأنا أدافع عن الناس. لا خلاف بين الإثنين؛ فالله هو رب الناس، ملك الناس، إله الناس. ومن دار العلوم تَخرَّج إبراهيم بيومي مدكور، وسيد قطب، ومحمد غنيمي هلال. وقد تبَرَّعتُ بجائزة الدولة التقديرية، ربعها لقسم اللغة العربية باسم أخي سيد، والربع الثاني لقسم الدراسات اليونانية واللاتينية، والربع الثالث للجمعية الفلسفية المصرية، والربع الأخير وزَّعتُه على الأقارب الذين كانوا يَستحقُّون العون.

وكنت أَعجَب من الأساتذة الذين يُدرِّسون من كتابٍ لهم مُقرَّرٍ على الطلاب، والطلبة لا حيلة لهم إلا حفظ الكتاب واستذكاره، فإذا جاء السؤال خارج المُقرَّر اعترضوا؛ فكانوا يذاكرون الفلسفة على أنها واجبٌ للحفظ. أمَّا أنا فكنتُ أتساءل مع الطلاب عن إشكالات الفلسفة والتي لا إجابة لها عندي أو عند أحد؛ فعندما كنت أُدرِّس أوغسطين في الفلسفة المسيحية كُنتُ أتساءل: هل العلم يأتي من الخارج أم من الداخل؟ (محاورة المُعلِّم). هل المسيحية ديانةٌ وطنية أم ديانةٌ عالمية؟ (دوناتوس). هل أومن كي أعقل أم أعقل كي أومن؟ (أنسليم). هل الوجود له ماهية أم الماهية لها وجود؟ (توما الأكويني). وكنت أُعطي الأسئلة أَوَّل العام حتى يفكر فيها الطالب. وعندما كنتُ أُدرِّس الفلسفة الحديثة للسنة الثالثة: هل حرية الفكر خطر على الإيمان وعلى سلامة الدولة أم إن القضاء على

حرية الفكر فيه قضاءٌ على الإيمان وسلامة الدولة؟ (إسبينوزا). هل الشكُّ له استثناءاتٌ أم شكٌّ في كل شيء؟ (ديكارت). اشرح معنى العبارة الآتية: «كان لِزامًا عليَّ هدم المعرفة لإفساح المجال للإيمان» (كانط). وفي السنة الرابعة في فلسفة التاريخ: كيف ظهرت فلسفة التاريخ في الغرب؟ لماذا غابت فلسفة التاريخ في تراثنا القديم؟ في أي مرحلةٍ من التاريخ نحن نعيش؟ ولم تكن هناك إلا نصوصٌ يقرءونها كديكارت، وإسبينوزا، وكانط، ولسنج، وابن خلدون. والآن في الجامعة المفتوحة أصبَحتِ الجامعة وسيطًا بين الأستاذ والطالب في الكتاب المُقرَّر، تشتري الكتاب من الأستاذ وتطبعه وتعطيه للطالب، وتأخُذ المكسب المُقرَّر للناشر، ويظل الطلاب في هذه الدائرة، وكُنتُ أحسبهم مثلي.

وأثناء حياتي الجامعية لم أرفض أي انتدابٍ ابتداءً من قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة عين شمس، عندما كان فؤاد زكريا رئيسًا للقسم، وكنا ما زلنا أصدقاء، ثم قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية عندما كان فتح الله خليف رئيسًا للقسم قبل أن يغادر إلى قطر، وانتدبني على الرغم من مَنعِ صوفي أبو طالب رئيس جامعة القاهرة له، وكان العميد أحمد أبو زيد رئيس القسم. وانتُدِبتُ للتدريس في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة بني سويف والتي كانت حينئذٍ فرعًا من جامعة القاهرة، وكان أخي عميدًا لها، وانتُدِبتُ للتدريس في فرع الخرطوم قبل أن تستقل الآن وتُسمَّى جامعة النيلَين. وعرفتُ عن قرب الشخصية السودانية، طيبتها وبساطتها وحُبَّها للشعر والأدب. وكانت فرصةً أرى فيها بعض المُفكِّرين السودانيِّين وصوفيَّتهم؛ مثل محمد محمود طه الذي شنقه النميري بتهمة الإلحاد. ورأيتُ بعض الأولياء وهم يُقبِّلون أَيديَهم وأرجلَهم ويأخذون بُصاقَهم ليدهنوا به أجسادهم، ومُؤلَّف أحدهم الرئيسي مُجرَّد تجميعٍ للآيات والأحاديث. ورأيتُ موالدهم لِلذِّكر ليلًا في ضوء القمر. وفي الجامعات الأجنبية درَّستُ أستاذًا زائرًا لمدة فصلٍ دراسيٍّ واحد أو شهر في جامعات بريمن وفرانكفورت وتمبيريه Tempere (فنلندا)، وروما، وميلانو، وصقلية، وشاهدتُ آثارَ المُسلِمين فيها.

الفصل الخامس

السفر إلى أمريكا (١٩٧١–١٩٧٥م)

سمِعتُ نصيحة رئيس الجامعة بأن أقبل دعوة إسماعيل الفاروقي لمُزاملته في التدريس في جامعة تمبل بمدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا؛ لأنه قد لا يستطيع حمايتي، بعد أن انتَقل إسماعيل من جامعة سيراكوز syracuse إلى جامعة تمبل. واستعدَدتُ للرحيل، زوجتي وأنا وطفلي حازم وعمره حوالي ستة أشهر؛ إذ كان السفر أول سبتمبر، وهو موعد بداية الدراسة في الجامعات الأمريكية. أَرسَلَت الجامعة لي تذكرة السفر، واقتَرضتُ من زوج أختي الكبرى سيد حامد ثمن تذكرة زوجتي حوالي ألف دولار، وكان الدولار وقتئذٍ بأربعين قرشًا أو أقل. وكان مُرتَّبي حوالي ألف دولار، وأُرسِلُ إلى أُسرتي جزءًا. وكانت الجامعة قد حَجزَت لي سكنًا بيورك تاون York Town. وهو سَكنٌ لطلاب الدراسات العليا، وكان في البدروم على الشارع رقم ١٣ الذي أعبُر لكي أكون بالجامعة. بعدها بأشهرٍ قليلة انتقلتُ إلى سكنٍ آخر في المُواجَهة للأساتذة في كوني هول Coony Hall بالدَّور الأول، شقةٍ فسيحة بغرفتَين مع حائطٍ زجاجي يُطِل على الحديقة في فِناء المنزل، وركَّب فيه المدير شَوَّايةً لحفل تعارُفٍ كل نهايةِ أسبوع، وكان هو من تَعرَّف على طالبةٍ كندية تذهب معه إلى غُرفته بعد حفل الشِّواء والبيرة. كانت زوجتي فريدة وابني حازم معي، وكنت أَتعرَّف على الشباب والشابات في الحفل. وكان حازم يُمسِك شعر الفتيات المُستلقِيات على الحشيش، وكانت فرصةً للتعارُف أكثر، وكان ينتظرني خلف الزجاج، ويُهلِّل ويخبِط بيدَيه وقدمَيه عندما يراني قادمًا، وأدخل فيشتكي لي أمه، فاستجيب له وأقول: ضَربَتكَ أنا عارف حتى يكُفَّ عن البكاء.

وجامعة تمبل في فيلادلفيا في وسط الحي «الأسود». وكان إسماعيل الفاروقي حريصًا أن يجعل دُروسَه للطلبة المُسلِمين في الجامعة مع لقاءاتٍ لهم حُرة في مركز النشاط الطلابي Student Activity Center الذي كُنا نُؤدِّي فيه صلاة الجمعة. وفي

الغرفة المُجاورة جمعية اللواطيِّين يُغنُّون ويرقصون. ولا تعارض بين المجموعتين في عرف الجامعة طبقًا لحرية الرأي، واستقلال الجامعات، والنشاط الطلابي الحر. وكان حريصًا على إسلام الآسيويِّين والأفارقة والعرب والأمريكيِّين، وهو إسلامٌ تقليدي عقائدي شعائري، على عكس إسلامي أنا الاجتماعي السياسي الثوري، وهو التقابل التقليدي بين اليمين واليسار. كان حريصًا على تقوية إيمانهم، والحرص على شعائرهم، وكُنتُ حريصًا على تقوية عقولهم، وثورتهم على الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وفي مُقدِّمتها الفقر والظلم. نُعيد الصراع بين الأشاعرة والمعتزلة. وكانت هناك محاضراتٌ عامة، نشاطٌ حُر للجامعة أُشارك فيه ويحضره جميع الناس خدمة للمجتمع، وكنتُ أخشى من ضعف إنجليزيَّتي ولكني كنتُ مفهومًا. وكان بيته مفتوحًا للطلبة والزملاء وهو ما لم يتَعوَّدْه الأمريكيون، زوجته أمريكيةٌ مسلمة (بيضاء) مثله في العقيدة والسلوك. وكُنَّا نذهَب إلى مساجد المسلمين في الشارع الثالث عشر لِنَخطبَ فيهم الجمعة ونُصلِّي، ونُعطي درس العربية. كان من الأساتذة من يتعاطفون مع إسرائيل مثل فرانك ليتل Frank Little، يكرهون العرب، لله في الله، وهكذا يُفسِّرون المسيحية. وكان منهم العلماء الذين يفسرون الدين نفسيًّا واجتماعيًّا ولغويًّا وتاريخيًّا. فتعلمتُ منهم ما هي المداخل المختلفة لدراسة الدين، ليس فقط وحيًا من عند الله إلى الرسول بواسطة جبريل، وأن التاريخ عاملٌ حاسم في تكوين التوراة والإنجيل. وهو ما نتَحرَّج منه حتى الآن؛ فكل شيءٍ يأتي من السماء ولا شيء يُصنَع في الأرض.

وبعد أن غادرتُ بعشرة أعوامٍ تقريبًا بعد خصامٍ طويل معه من اتجاه المسلمين نحوي، وأنني طالب مكانةٍ عندهم، وأبحث عن عملٍ دائم في أمريكا، اغتاله هو وزوجته أحدُ المسلِمين السود المُتعصِّبين لأنه لا يعلم الإسلام كما يجب. وروايةٌ أخرى تقول إنه تدبيرٌ صهيوني لخشية إسرائيل من أفكاره ووقوف المسلِمين ضِدَّها. وهو فلسطينيُّ الأصل من حيفا، من مهاجِري ١٩٤٨م، واعتدَوا على ابنه صخر لَمَّا عَلِموا في الجيش أنه من المُسلِمين البِيض، واختفَت البنتان في الدواليب ليلة العدوان، فنجَتا، وإلا كانت الأُسرة كلُّها قد قُضي عليها. وقد عِلمتُ بعدها أن القاتل كان جيمس جون أحد المُسلِمين السود المُتعصِّبين، وحُكم عليه وأُعدم. وقابلتُه آخر مَرة في دولة الإمارات العربية المتحدة في جامعة العين، كنتُ أستاذًا لفصلٍ دراسي، وكان هو مَدعُوًّا من أَحَد أصدقائه كمُحاضرٍ عام، نظَر كلٌّ مِنَّا إلى الآخر دون حديثٍ طويل. حاوَلَ أحد الطلبة السودانيِّين الاعتداء عليَّ، وقذَفَني بالكرسي أثناء الصلاة، يبدو أنه اعتَقدَ أنني من الكافرين، ولا يجوز الصلاة

معه أو خلفه ولا حتى الحديث معه أو الاستماع إليه. لم نسمع عن أحدٍ من طلَبته كان له شأنٌ كبير في العلم، إمَّا وصل إلى الإدارة أو إلى الإعارة الطويلة أو إلى بناء فندقٍ على الساحل ليعيش منه. مَكثتُ أربع سنوات بالجامعة، وأرادوا تجديد عَقدي ثلاث سنواتٍ أخرى، فرفضتُ لأنني لا أستطيع البُعد عن مصر؛ فطلابي أَوْلى بي، ووطني أَحقُّ عليَّ من الغربة. ولَمَّا أرادت زوجتي إكمال دراساتها في الأدب المقارن، ويستحيل ذلك لوجود طفل، قرَّرنا إرساله إلى مصر مع والدتها وخالته. وكانت لحظة فراقٍ وهو يبكي في المطار تاركًا أباه، ووجوده بين يدَي مضيفةٍ غريبة عنه. واستقبلوه في مطار القاهرة وهو يبكي حتى نسي الأصل، وارتبط بالفرع. وكان عُمره يومئذٍ ستة أشهر يكاد يمشي، ويستقبلني بفرحٍ من وراء النافذة وأنا عائدٌ من الجامعة، ويأخذ كتبي ويُفرِّق أوراقها تقليبًا كما أفعل، فنقلناه من السعادة إلى الشقاء، وهو لا ينسى لنا تلك القَسوة، ونحن لا ننسى جُرم ما فعلناه. وبعد عامٍ ذهبنا إلى زيارته في الإجازة الصيفية، لم يتعرَّف علينا، وكان يهرب مِنَّا إلى أولاد خالته الأطفال الكبار. وأخذناه إلى الإسكندرية فلم ينَم طيلة الليل وهو ينادي: «ماما سعاد.» وهي حماتي. ثم تكرَّرَت المأساة عندما تركناه مرةً ثانية وغادرنا، وربما تساءل: من هؤلاء الناس الذين عشتُ معهم أَوَّلًا، وناسٌ آخرون ثانيًا، ثم ظَهر الأولون وغادروا؟ فإلى أي جماعةٍ أنا أنتسب؟ ولَمَّا كُنتُ أدخل الحمام وأُغلِق الباب كان يُدخل يداه تحت عقبِ الباب لَعلي أفتحه أو أرى يده، ونتكلم سويًّا من وراء الجدران حتى يَطمئنَّ إلى وجودي ثم خروجي له.

وكان الحدث الأكبر هو اكتشاف أمريكا، قوتها وضعفها. وكان هناك خدمةٌ تُؤدِّيها الجامعة للطلبة تُسمَّى خدمة النشاط الطلابي Student Activity Service لركوب الجراي هاوند Gray Hound لمدة شهر بـ ٩٩ دولارًا وإعطائهم خطَّة السير، ويُعرِّفونك على أُسرٍ في كل محطةٍ تتعرَّف عليهم، ويتعرَّفون هم عليك كنوعٍ من التعارُف الثقافي والحضاري بين الشعوب، فاستخدمنا هذا النظام، زوجتي وأنا، ثلاث سنواتٍ متتالية عَبَرنا بها أمريكا من الشرق إلى الغرب، من فيلادلفيا إلى سان فرنسيسكو، ومرةً ثانية من الشرق إلى الشمال الغربي هانكوفر عبر كندا وشلَّالات نياجرا، ومرةً ثالثة من الشرق إلى الجنوب عبر أورلاند ثم إلى المكسيك ذهابًا وإيابًا. وتَعرَّفنا على عديدٍ من الأُسر الأمريكية شبابًا وشيوخًا، وتناقشنا في أسلوب الحياة الأمريكية، واكتَشَفنا الشعب الطيب الكريم المُرحِّب بالأجانب غير صورة الحكومة، العدوان والاستعمار للآخرين. وما زلنا نحتفظ

بأجمل الذكريات للأُسرة الأمريكية: زوجة خَرجَت بطفلها قبل أن يكتمل أسبوعًا ونحن لا نخرج قبل أربعين يومًا. وأُسرةٌ كبار السن تبحث عن الزوج، فرَدَّ علينا من فوق شجرةٍ تسلَّقها وهو حوالي السبعين عامًا، ولا أَحَد يخشى عليه من الوقوع فتنكسر رقبته. أدركنا مدى التنوُّع في الجغرافيا الأمريكية بين الساحل والصحراء، الجبل والسهل. عرفنا مدينة القمار رينو لجلب السكان وتعميرها في نيفادا. رأينا ترام سان فرانسيسكو، ورأينا فخامة لوس أنجلس وبناياتها، ورأينا المنخفضات والمرتفعات، كما رأينا مستوطنات الهنود الحمر، السكان الأصليِّين. وقرَّرتُ أن أكتب عن أمريكا، الوجه الآخر الذي لا يعرفه الناس. وجهَّزتُ مكتبتي إلى هذا الغرض للكتابة عن أمريكا، الأسطورة والحقيقة، عن الفقر وليس الغني، العنصرية وليس التسامح. وما زالت النية موجودة لولا التراث والتجديد استغرق كُلَّ حياتي، ولا أدري إذا كان في العمر بقية أو إذا كُنتُ قادرًا على النزول على السُّلم الخشبي الذي يربط بين السكن والمكتب وأَفحَص دولاب المراجع عن أمريكا. وأحيانًا أقول: ربما تغيَّرت أمريكا بعد أربعين عامًا، وقدِمَت مراجعي، وأصبح كتابي المُزمَع تأليفه «أمريكا، الأسطورة والحقيقة» في مهب الريح إذا كان جوهرها أو بنيتها ما زالت مستمرة.

ومرةً رابعة من الشرق إلى الغرب عبر كندا، من تورنتو وشلالات نياجرا إلى أوتاوا العاصمة. قابلنا تحسين بشير سفيرنا في كندا، وحاولت التعرف على قضية كيبك Quebeque والرغبة في الاستقلال عن فرنسا. صحيح أن اللغة الفرنسية رابطٌ بين كيبك وفرنسا الأم، ولكن كان هذا جزءًا من التاريخ الاستعماري الفرنسي لأمريكا الشمالية، مثل الاستعمار البريطاني لأمريكا الوسطى، والاستعمار المكسيكي للجزء الجنوبي من أمريكا الشمالية، والبرتغالي إلى أمريكا الجنوبية. وتَعرَّفنا في فانكوفر على طبيبِ أسنانٍ ونحَّات، وشرح لي أن الأسنان فيها طريقة التعامُل مع عظامٍ مثل التعامُل مع الحجارة في فن النحت، مثل التعامل مع العظام. ومَرَرنا بتورنتو في وسط الصحراء الممتدة من الشرق إلى الغرب. ورأينا المدن التي نسمع عنها في الجغرافيا.

وإذا كنت وأنا في باريس اهتَمَمتُ بالمسيحية والنقد التاريخي للأناجيل الأربعة بسبب جيتون، فإنني في أمريكا أكملتُ دراستي في تاريخ الأديان باليهودية، خاصة التوراة وتاريخها وكل نتائج النقد التاريخي للكتب المقدسة التي نخشى من تطبيقها، كما طبق طه حسين نظرية مارجليوث في الشعر الجاهلي، وجمَعتُ كل المُؤلَّفات في الموضوع. وفي باريس اطَّلَعتُ على معظم المؤلَّفات الفلسفية الفرنسية والمُترجَمة عن الألمانية. وتركتُ

في نفسي وعدًا بأنه سيأتي وقتٌ أحصُل فيه على المُؤلَّفات البريطانية والأمريكية في أصولها الإنجليزية، وأتى هذا الوقت وأنا في أمريكا، واشتريتُ معظم المؤلفات الإنجليزية لرسل ولوك وهوبز وهيوم ومل مثلًا والأمريكية لجيمس وبيري ورويس. وكان النظام أن أطلب ما أُريد عن طريق مكتبة الجامعة والحصول على ٢٠٪ تخفيضًا باعتبارها كتبًا دراسية، فأكملت مكتبتي حتى جاء وقت المغادرة، فطلبت من شركة شحنٍ أن تقوم بذلك، وما أسهل الشحن في أمريكا! فالصناعة تجارة، والتجارة شحنٌ ونقلٌ وضبطُ مواعيدَ وثقةٌ متبادلة بين البائع والشاري، دون فساد، فجاءت بثلاثة صناديقَ كبيرةٍ من الخشب وشَحَنتها إلى مصر قبل مُغادرتي أنا وزوجتي إلى القاهرة. وأحَسَّ حازم ابني بالغربة مرةً ثانية، واستَمرَّ في النوم عند حماتي أمامنا حتى الغداء، وعلم أننا أبواه، وكان عمره أربع سنوات. كانت زوجتي قد حمَلَت قبل المغادرة، ومن إرهاق البحث عن الهدايا قبل السفر أُجهِضَت، وحَزِنَّا لأننا كنا نُريد طفلًا ثانيًا. وذهبنا إلى نيويورك في الحي التجاري الذي تُباع فيه الصناعات الأمريكية للتصدير بكهرباء قوة ٢٢٠ كما هو الحال في بلادنا وليس ١١٠ كما هو الحال في أمريكا.

وتَعرَّفتُ على الفلسفة الشرقية في الصين والهند. وقرأتُ نصوص كونفوشيوس ومنشيوس وبوذا، وتياراتها المعاصرة، كما تَعرَّفتُ على لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا؛ فالفلسفة في أمريكا كانت مفتوحةً على فلسفات العالم كلها، وشاعت ترجمة نصوصها إلى الإنجليزية، وتوافَرت طبعاتها؛ فأمريكا تمتد من ساحلها الشرقي إلى أوروبا عبر الأطلنطي، ومن ساحلها الغربي إلى آسيا عبر الهادي، ومن وسَطِها إلى أفريقيا منذُ أخذ العبيد إلى العالم الجديد، ومن جنوبها إلى المكسيك وأمريكا اللاتينية، مستعمرات إسبانيا والبرتغال القديمة.

وسمِعتُ عن اعتصام الطلبة في ميدان التحرير للمطالبة بتحرير سيناء والأرض العربية المحتلة، وحَزِنَّا لِبُعدنا عن مصر. وبعدها بعامٍ اندَلعَت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وكنا باستمرارٍ أمام التفلزيون نُشاهِد مناظر العبور، ونفرح، والأساتذة والطلبة اليهود حزانَى حتى يوم ١٦ أكتوبر، وقوع الثغرة. نحن نسمع أنها لا شيء، وأن الجيش المصري قادرٌ على محاصرتها. ورأيٌ آخر يقول إن الجيش الثالث مُحاصَر، ويمكن القضاء عليه. وصُعِقنا عندما علمنا أن الهدنة قد وقعَت وما زلنا بعد العبور لم نستمر على الأقل حتى المضايق. وطبقًا لاتفاقية الكيلو ١٠٤ انسَحبَت إسرائيل من الثغرة، وانسحب الجيش المصري غرب القناة. وكان الجمصي والشاذلي يبكيان؛ فقد سُلِب منهما النصر. وقُسِّمَت

سيناء إلى ثلاثة أقسام: أ، ب، ج. الأُولى قبل الممرات، والثانية وسط سيناء، والثالثة الثلث المُحاذي لإسرائيل، وفي كل جزء قواتٌ محدودة. وفُتِحَت قناة السويس بعد أن أُغرِقَت فيها سفينة لمنع الملاحة. في عام ١٩٧٤م بدأ الانفتاح الاقتصادي، وانقلب النظام على الناصرية، واعتمد الاقتصاد الحر؛ فالرأسمالية ليست جريمة. وبدأ التوجُّه نحو الغرب، الولايات المتحدة الأمريكية، وطرد الخبراء الروس.

والمرأة الأمريكية بالرغم من تَحرُّرها في الظاهر إلا أنها مسيحيةٌ عقائدية في الباطن؛ فلا تعارض بين الحرية والإيمان، بين الجنس والتقوى، بين لذة الجسد وصفاء الروح. وليس كالثنائية الشرقية كما غنَّاها عبد الوهاب في فيلم أغنية «عاشق الروح» في آخر فيلم «غزل البنات»: «وعشق الروح ما لوش آخر، لكن عشق الجسد فانٍ.» تَعرَّفتُ على إحداهن كانت تدعو الأساتذة إلى منزلها، تُريد صداقةً كاملة تُؤنِسها في وَحدتها. وأين لي بذلك وزوجتي تقلق عليَّ إذا تأخَّرتُ عن العودة إلى المنزل دقائقَ معدودة؟ والصداقة تُريد وقتًا. ومرةً أخرى تَعرَّفتُ على فتاةٍ تسكن بعيدًا عن حي الجامعة، فتأخَّرتُ في العودة، فقَلِقَت زوجتي، وسألتِ القاصي والداني أين أنا؟ خاصة وحوادث العنف شائعة، والصداقة تحتاج إلى راحة وليس إلى قلقٍ على قلق.

وفي هذه الفترة تَرقَّيتُ من مُدرسٍ إلى أستاذٍ مساعد عام ١٩٧٣م بعد أن قضيت ست سنواتٍ مدرسًا، متأخِّرًا سنةً واحدة؛ رقَّتني اللجنة عن جدارة واستحقاق. ولَمَّا كُنتُ من المُشاغِبين في السياسة فقد رفض مجلس الكلية بالألاعيب الإدارية والدينية لأن إيماني أيضًا به شكوك. وكُنتُ قد تَقدَّمتُ بترجمتي لكتاب إسبينوزا «رسالة في اللاهوت والسياسة» وترجمتي لمحاورة «المعلم» لأوغسطين، و«أومن كي أعقل» لأنسليم، و«الوجود والماهية» لتوما الأكويني في «نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط»، كما تَقدَّمتُ بالجزء الثاني من «قضايا معاصرة» بعنوان «الفكر الغربي المعاصر»، وبعض المقالات في مجلة «تراث الإنسانية». وأعاد مجلس الكلية إلى اللجنة العلمية التقرير، وكان رئيسها الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، فرَدَّ عليه قائلًا عبارةً واحدة، وكان معروفًا بإيجازه «إن ناقل الكفر ليس بكافر.» فاضطُر مجلس الكلية إلى المُوافَقة ثم مجلس الجامعة. وعَرفتُ كيف تُستَغل الاتهامات الدينية لتغطية الاتهامات السياسية، كانت رئيسة القسم معاديةً لي، وباقي الأساتذة خائِفين منها، يتَملَّقونها، فوافَقوا على عدم مُوافقَتها على الترقية؛ فكانت هي القسم. وكان هناك من يقول: إنها ليست اتهاماتٍ دينية ولا سياسية بل هي الغيرة، قاتلها الله. واحتفظ العميد بالتقرير حوالي ستة أشهر وهو يُنكِر وصوله

واستلامه، فذهبتُ إلى البريد وعرفت أنه استلمه مُسجَّلًا بتوقيعه، فنظَر إلى مجموع المُراسَلات ورآه، واعتذَر أنه كان مُختبئًا بينها، وعُرض على مجلس الكلية في آخر الوقت، والأساتذة قد غادروا، وأيَّد قرارَ القسم بأني مشاغب، وأرسل إلى الجامعة، فلم تدرِ ماذا تفعل: قرارٌ بالترقية من اللجنة العلمية، ولها الكلمة الأُولى والأخيرة، وقرارٌ بعدم الترقية لأني مشاغب من مجلس القسم ومجلس الكلية، فأعاد مجلس الجامعة الموضوع إلى القسم لرفع التناقُض بين قرار اللجنة العلمية بالترقية وقرار المجلسَين الإداريَّين بعدم الترقية. وقرَّر مجلس الكلية إرجاع الموضوع إلى اللجنة العلمية من جديدٍ لعلها تُغيِّر رأيها، وتحكم بعدم الترقية؛ وبالتالي يرتفع التناقُض المطلوب بين القرار العلمي والقرار الإداري، فأعادت اللجنة العلمية نفس تقريرها بأن المُتقدِّم يُرقَّى بجدارة، وأنه هو المِحك في الترقية وليس القرارات الإدارية، ووصل إلى الكلية وكان رئيس القسم قد تغير، وأتى آخرُ قاوم الضغوط عليه بالرفض، ثم عُرض على مجلس الكلية، وكان العميد قد تغير، وقاوم المجلس الضغوط عليه بالرفض، ورُفع الأمر إلى مجلس الجامعة، وكان العميد السابق قد أصبح نائبًا لرئيس الجامعة، فأَصَرَّ على الرفض، ومعه عميد العلوم، فطلب رئيس الجامعة إبراهيم بدران بالتصويت، فصَوَّت كل مجلس الجامعة لصالحي باستثناء العميد السابق وعميد العلوم. وكان رئيس الجامعة قد نَصحَني بألا أذيع الأمر إلى الإعلام حتى يمر بهدوء لأن ورائي أساتذةً مثل عواطف عبد الرحمن ستكون في نفس الموقف.

وأتى منزلَنا أحمد فخري عالم المصريات وقصَّ علينا اكتشافاته بواحة سيوة، فقدَّرتُ أكثرَ فأكثرَ عُلماء مصر. وأنا أسكن الآن في شارع لوزاكا المتفرع من أحمد فخري بعد أن سُمي الشارع باسمه، ولوزاكا في العهد الناصري والانفتاح على أفريقيا. كما زارني عالم الرياضيات الشهير رشدي راشد والذي زامَلَني منذُ أيام الدراسة في جامعة القاهرة ثم جامعة باريس، واستقَر هناك. وتَعرَّفتُ على مالك بن نبي الذي زار فيلادلفيا بدعوةٍ من جمعية الطلبة المُسلِمين، وشرح لي أن انفصال باكستان عن الهند عملٌ استعماري طِبقًا لقاعدة «فرِّق تسُد»، وأن هذه القسمة هي التي حَجزَت الإسلام في الهند بعدما كان كالسكَّر في الماء. وقد كُنتُ من أنصار محمد إقبال، ومحمد علي جناح، فأعدتُ التفكير في موقفي، وقد يكون مالك بن نبي على حق. وظل السؤال بالنسبة لي: وماذا عن كشمير؟ فمعظم سكانها مسلمون، ولا تُريد الهند ضمَّها إلى باكستان، وما زالت تحت وصاية الأمم المتحدة، وبعد ذلك قُسِّمَت باكستان إلى جزأَين، الشرقية والغربية، باكستان وبنجلاديش. وما زال مُخطَّط التقسيم جاريًا حتى الآن في الوطن

العربي للدول الوطنية وتفتيتها إلى دويلاتٍ عِرقية وطائفية بحيث تكون إسرائيل هي الدولة القومية الأقوى وسط هذا الركام من التفتيت.

وانتُدِبتُ إلى كلية الإعلام كي أُدرِّس الفكر العربي المعاصر للسنة الرابعة عامي ١٩٧٦م، ١٩٧٧م. وكُنتُ أربط الفكر بالواقع؛ أي بالسياسة. وكان الطلاب في غاية النضج، يُناقشون ويُجادلون. وكنتُ أتخلَّى عن المنصة، وأجلس مع الطلاب، وأُكلِّف بعض الطلاب بالحديث بدلًا عني حتى أُبيِّن لهم أن الفكر ليس له أستاذ. وكان حمدين صباحي، رئيس نادي الفكر الناصري، يجلس في آخر صف ليسمع ويُناقش. سعدتُ بهذا المستوى العالي من الوعي الفكري والسياسي، ثم أُلغي المُقرَّر بعد مظاهرات يناير ١٩٧٧م، ما سمِّيت «انتفاضة الحرامية»، عندما خرج شَعبُ مصر كُلُّه من الإسكندرية إلى أسوان يطالب بخفض الأسعار التي رَفعَتها حكومة ممدوح سالم، فتراجَع على الفور بعد أن استعد الرئيس المغدور إلى الهرب بطائرته من أسوان إلى طهران عند صديقه الشاه، وحليف أمريكا. وذكَّرني كثيرٌ من الإعلاميِّين الآن بهذه السنوات، كما ذكَّرني رئيس الجامعة جابر نصار بالستينيات بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م عندما كنتُ أتحدَّث عن فلسفة المقاومة، وكان طلبة الجامعة من كل الكليات خاصة كلية الحقوق التي أمام الآداب يَحضُرون لسماعي.

وكنتُ أَعجَب من الزملاء الذين يُعارُون للخارج، ويقضون سنوات الإعارة ثم سنوات مرافقة الزوجة، فإذا انتهت يبحثون عن أي عقد عملٍ لاستمرار الإعارة. ولَمَّا كانت القوانين لا تسمح للتفرقة بين الرجل وزوجه فإنهما يستمران في الخارج حتى سن المعاش، ويفقد فرصةً ذهبية في القاهرة لتعليم الطلاب من أجل آلاف الدولارات يبني بها منزلًا حين العودة النهائية؛ فيفقد وجوده في جامعته، وأَثَرَه في طلابه، وتضيع ذِكراه في نفوسهم، ثم يقضون نَحبَهم فلا يتمتَّعون بما أَثْرَوا، ولا تكون لهم ذكرى في قلوبِ أحد.

الفصل السادس

إعادة إشهار الجمعية الفلسفية المصرية ومقاومة الانقلاب على الناصرية (١٩٧٦–١٩٨٢م)

أراد النظام السياسي الذي انقلَب على الناصرية، من القطاع العام إلى القطاع الخاص، ومن التحالُف مع روسيا إلى التحالُف مع أمريكا أن يُبيِّن أنه نظامٌ ديمقراطي في السياسة، كما أنه نظامٌ حُر في الاقتصاد؛ فالليبرالية ليست فقط في الاقتصاد بل هي في السياسة أيضًا، فأسَّس المنابر: الوسط واليمين واليسار. ولَمَّا كنتُ صاحب اليسار الإسلامي فانضممتُ عام ١٩٧٦م إلى منبر اليسار ويُمثِّله حزب «التجمع الوطني التقدمي الوحدوي» برياسة خالد محيي الدين من الضباط الأحرار الماركسي الذي اختلَف مع عبد الناصر فأرسله إلى لندن، ثم عاد، ومنذ أن شَنَق زعماء العمال خميس والبقري الذين طالبوا بحقوقهم أثناء الثورة، وكان يمكن أن يكونوا نصيرًا شعبيًّا له، وكان يتكون من خمس قُوًى سياسية: الماركسيون، القوميون، الليبراليون، الناصريون، والإسلام المستنير. وبطبيعة الحال كنتُ في الإسلام المستنير، ولو أنني أُفضِّل الإسلام الثوري، عودًا من محمد عبده إلى الأفغاني. والفكرة كانت لكمال الدين رفعت من الضباط الأحرار وقائد المقاومة الشعبية في قناة السويس ضد الإنجليز في ١٩٥١م الذي كان إذا ذهب إلى العمل يَلبَس لبس العمال وهو في الوزارة. ذهبتُ إليه مع محمد عودة لعرض بعض أمور التجمُّع عليه، وكُنا قِلَّةً يرأسنا محمد أحمد خلف الله وأنا وزين العابدين السماك ومحمد عمارة الذي ترَكَنا بسرعة. وكان ضعيفَ الأثَر أمام الماركسيِّين الذين يُسيطِرون على قيادة الحزب بما فيهم رئيس الحزب؛ فكان الرأي الواحد هو السائد، وكان الاستبداد هي بنية المجتمع بما في ذلك الأحزاب الليبرالية والشورى الإسلامية. وكنتُ عضوًا بمجلس إدارة

صحيفة «الأهالي» ولي فيها عمودٌ كل أسبوع، وكانت تُصادَر دائمًا من القاضي أبو سحلي. ومرةً زار رئيس البُهرة من الهند مصر وزار السيدة زينب، وحَوَّل مِقبَض المقصورة إلى جوهرة، والمقصورة نفسها طَلاها بالذهب، فكتبتُ «ذهب المقصورة أم جوع الفقراء»، وكانت قلعة الكبش خلف حي السيدة، وهي عشوائيةٌ أَوْلى بهذا الذهب، فأحزن ذلك الحزب التقدمي! وقال رئيس الحزب الذي كان مُسافرًا: لو كنتُ بالقاهرة لمنعتُ هذا المقال؛ فمعظم أعضائنا في الحزب التقدُّمي من قلعة الكبش، وهم يُقدِّسون السيدة! وبالتالي سنخسرهم، فكتبتُ: دور الحزب التقدُّمي في البلاد المُتخلِّفة، وطلبتُ مناقَشَته، وأعطاه إلى يحيى الجمل، فقرأه، ولم يُعلِّق شيئًا، وبعد ذلك خرج يحيى الجمل مثلي من الحزب. وفي نفس الوقت اعتبَر الحزب ثورة مصدق في إيران التي أَمَّم فيها البترول وهرب الشاه إلى إيطاليا، اعتبرها ثورةً شيوعية لأن مصدق كان شيوعيًّا مع أنه قد صرَّح أنه تعلَّم الثورة من عبد الناصر؛ فلم يكن هناك فَرقٌ بين الإخوان والتجمُّع في رفضهم ثورة مصدق واتهامها بالشيوعية، كما اعتَبر ثورة الجماهير بقيادة الخميني ثورةً رجعية «متأسلمة» بتعبير أحد قيادات الحزب الماركسيِّين رفعت السعيد. مع أن عبد الناصر كان يمد «مجاهدي خلق» بالسلاح عن طريق بغداد عندما كان أمين هويدي سفيرًا، وهو عضو بالحزب، وكان «مجاهدو خلق» مثل حماس في منظمة التحرير الفلسطينية، تُمثِّل يسارها، في حين تمثل فتح يمينها، فأوقفتُ نشاطي في الحزب دون أن أخرج رسميًّا منه، وما زال معظمهم أصدقاءَ ورِفاقَ نضال.

وهنا بَدأَت فكرة «اليسار الإسلامي» في الظهور. كيف أحافظ على التراث الإسلامي كثقافةٍ شعبية وفي نفس الوقت أستخدمه للدفاع عن مصالح الجماهير، وحقوق الفقراء، وكل ما يدعو إليه الإخوة التقدميُّون. وهو مشروع «التراث والتجديد» على مستوى الثقافة السياسية الشعبية. وهو ما رأيتُه في جنوب أفريقيا في لاهوت التحرير واللاهوت الأسود. وما رأيتُه في المشاريع النهضوية في ماليزيا وإندونيسيا. وما رأيتُه في جماعة ١٥ / ٢١، الجناح اليساري في حزب النهضة في تونس. وهو ما يحدث في تركيا بعيدًا عن أيديولوجية الجيش بعد ثورة كمال أتاتورك الذي أراد تقليد الغرب والقطيعة مع التراث الإسلامي، ثم التحوُّل إلى الضد، إلى الأيديولوجية الإسلامية مع أربكان، والقطيعة مع مظاهر تقليد الغرب، ثم الآن حزب العدالة والتنمية لأردوجان الذي يجمع بين التراث والتجديد، بين الإسلام والتقدُّم. وهو ما أُحاوِله في مصر إلا أنه لم يَجِد قبولًا لأن الصراع بين التيارَين شديد، ولا أحد يُريد أن يُحاوِر الآخر؛ فالتقدُّم عند الإسلاميِّين علمانية

وتقليد للغرب، مادية وإلحاد. والإسلام عند التقدميِّين غيبيَّاتٌ واغترابٌ عن الواقع، ويمينٌ سياسي. ولا يمكن الجمع بين الاثنين، كما لا يمكن فصل تيار الإسلام المستنير عن حزب التجمُّع كقوةٍ سياسية عن القُوى الخمس المُكوِّنة له كما أراد كمال الدين رفعت صاحب الفكرة. كنتُ إخوانيًّا فخرجتُ بسبب موقفهم السلبي من ثورة مصدق، ثم كُنتُ يساريًّا وخرجتُ بسبب موقفهم من الإسلام التقدُّمي أو الإسلام الثوري. وبَدأتُ في تَصوُّر اليسار الإسلامي على المستوى النظري الخالص دون إمكانياتٍ تنظيمية أو رغبةٍ في السلطة والحكم، كما تريد كل الأحزاب.

وكان الرئيس قد صَفَّى الناصريِّين من الحزب ومن الدولة فيما سمَّاه ثورة ١٥ مايو عام ١٩٧٤م، كما صفَّى الرئيس الحالي بعد ٣٠ يونيو جهاز الدولة من الإخوان. وكان السؤال: هل الناصرية أيديولوجيةٌ فوقية يسهُل تصفيتها؟ أين جماهيرها التي نَزلَت لتوديعه إلى مَقَره الأخير؟ وهل الدولة كانت مستعدةً لهذا الانقلاب من الاشتراكية العربية إلى الرأسمالية الأمريكية؟ وهو الشعار المستمر حتى الآن والتي ولَّدَت الفساد والاستبداد والفقر والإحباط والتشاؤم انتظارًا لِثورة الغَلابة ثم ثورة الجِياع، وثورة «الجرابيع».

وقامت مظاهرات ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧م ضد الانقلاب على الناصرية. ورَفعَتِ الجماهير صور عبد الناصر من الإسكندرية إلى أسوان، واستَولَت على الجمعيات التعاونية، وهي ثورة الفقراء ضد سياسة الانفتاح. واستعد الرئيس بطائرته إلى الهرب من أسوان، ولكن الجيش تَدخَّل، وقمَع المُظاهَرات، وأعاد الرئيس إلى قصر الرياسة. وخطَب الرئيس، وسمَّى المظاهرات «انتفاضة الحرامية»، وقبَض على زعمائها من قادة اليسار. ولَمَّا شعَر بِضعفِ موقِفه في الداخل أراد الاعتماد على الخارج، فزار إسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧م داعيًا للسلام، ثم ذهب إلى كامب ديفيد في الولايات المتحدة الأمريكية للقاء رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجن، رئيس جماعة أرجون الإرهابية في ١٩٧٨م، ثم عقد اتفاقية السلام عام ١٩٧٩م، والأراضي العربية في الضفة الغربية والجولان ما زالت محتلة، وسيناء منزوعة السلاح، فأصبح مغضوبًا عليه من كل القُوى الوطنية، إسلامية ويسارية في مصر والوطن العربي، وقاطَعَته جامعة الدول العربية والتي انتَقلَت من مصر إلى تونس. ولم يتَصوَّر المصريون وجود سفارةٍ إسرائيلية وسفيرٍ إسرائيلي على ضفاف النيل بالقرب من جامعة القاهرة مهد الوطنية والمقاومة ضد الاحتلال. واشتدَّت المقاومة للنظام حتى أصدر الرئيس قرارات سبتمبر ١٩٨١م الشهيرة بإخراج حوالي سبعين أستاذًا معارضًا من الجامعة، وتحويلهم إلى وظائفَ إداريةٍ في المصالح الحكومية

مع خَصم كل الزيادات الجامعية. وحوَّلني إلى وزارة الشئون الاجتماعية، وكنتُ أستاذًا فأصبحَت درجتي وكيل وزارة، واحتاروا في الوزارة أين يضعونني، فطلَبوا مني البقاء في المنزل. وفُصل حوالي سبعين صحفيًّا، وحُوِّلوا إلى وظائفَ إدارية، وقُبض على محمد حسنين هيكل مع غيره من الصحفيِّين، وأُرسل الأنبا شنودة إلى دَيرٍ في الصحراء.

ومرةً أخرى سلَّمَني زوجُ أختي الصغرى كُتيِّبًا مكتوبًا من عدة مشايخ لتكفيري لخروجي من الإسلام، ويُوزَّع في المساجد، وكان هو من رُوَّادها، فقرأتُه، كُلُّه سبٌّ ولعنٌ في الكافر المُلحِد على طريقة المشايخ وليس حوارًا مُوثَّقًا مُطالِبًا اللقاء، ثم كَتبَت مجلة روز اليوسف تقريرًا عن محاولة اغتيالي؛ إذ قَبضَت المخابرات العامة على ثلاثةٍ من أصحاب الذقون، يحُومُون حول منزلي القديم، شارع الحجاز بمصر الجديدة، وكانوا تحت المراقبة؛ فقد كانوا مَطلوبِين في حوادثَ أخرى، فقُبض عليهم واعترَفوا بأنهم أتَوا للاعتداء عليَّ، وحُوكِموا، ولا أدري ماذا كان الحكم. وفوجئتُ يومًا بضابطٍ مدنيٍّ يأتيني كي يتَفقَّد منزلي الجديد بمدينة نصر من الداخل والخارج، ويتَفقَّد الأسوار وكل الأماكن التي يحتمل أن تُخترق للدخول إلى المنزل. وقال إنه كُلف من الداخلية بوضع حراسة دائمة على المنزل يوميًّا، صباحًا ومساءً، ليلًا ونهارًا، أربعة حُراسٍ في اليوم على التعاقُب، كلٌّ منها ست ساعات، مجانًا، فبنَيتُ لهم كُشكًا خشبيًّا بمقعدٍ داخله، داخل المنزل، وراء البوابة الحديدية مباشرة، وكانت الحراسة مُسلَّحة، وطبعًا أعطيتهم مكافأةً شهرية من عندي، فضلًا عن مُرتَّبهم من الداخلية، بالإضافة إلى ما أستطيع من طعام. وظلَّت هذه الحراسة حوالي تسع سنواتٍ كُنتُ أنام فيها أنا والأُسرة مطمئنِّين. وعندما كَتبتُ مقالًا عن «التوريث في القرآن الكريم» رُفعت الحراسة في اليوم التالي. وكان التوريث قد أصبح شائعًا لخلافة الرئيس الذي قامت ثورة يناير ٢٠١١م ضده. وكان الابن قد سيطر على أجهزة الأمن، وهو الذي أعطى أمرًا برفع الحراسة. والآن أستعمل كاميرات المراقبة الخفَّية بدلًا عنهم.

وفي خِضَم الحزن من أجل كامب دافيد ومعاهدة السلام مع العدو الإسرائيلي اندَلعَت الثورة الإسلامية في إيران، وعاد الإمام الخميني من منفاه في باريس زعيمًا لها. وكان هذا حُلمَ حياتي أن تقوم ثورةٌ باسم الإسلام أو أن ينتشر الإسلام كثورةٍ للمُضطهَدِين. وهرب الشاه من جديد، ولم يجد مكانًا يُقِلُّه إلا مصر، ثم يُدفن فيه، ورئيس مصر أمريكي الاتجاه، استقبل الشاه أمريكي الاتجاه مثله. وكنتُ بالكويت مرةً على بُعد خطواتٍ من إيران، وكان فهمي هويدي هناك أيضًا، فطلبتُ منه أن أذهب إلى طهران، فتكلَّم مع المهري زعيم الشيعة في الكويت الذي راسل طهران، فرحَّبوا، وأرسلوا بطاقة سفر،

الكويت–طهران، فذهبتُ وأنا طائرٌ من الفرح. وذهبتُ مباشرةً إلى حارةٍ داخل حارةٍ حيث يقطن الخميني، وكان يصعد فوق السطح ليُحيِّي القادمين جماهير أو بالموسيقى، ويخطب فيهم. ودخلتُ إليه وكان معه الشيخ إشراقي زوج ابنته والإمام تسخيري الذي يَوَد التقارب بين السنة والشيعة، فأنشأ لذلك مجلة «التقريب». كان الخميني يستمع وأنا أتكلم، فخَجِلتُ من نفسي. ألا أستمع إلى هذا الإمام الكبير والقائد العظيم؟ فقال لي مَن حوله: هو هكذا لا تنتظر منه أن يقول كثيرًا. طلبتُ منه أن أنشُر «الحكومة الإسلامية» في مصر فهل لديه شروط. قال: لا، انشُره في كل مكان. وطلَب مِمَّن حوله أن يكون اللقاء مع العلماء في المنزل المُقابل. وكان ورائي قائدٌ من القيادة الليبية يتكلَّم كثيرًا، والإمام الخميني يسأله سؤالًا واحدًا: أين الصدر؟ وهو الزعيم اللبناني الشيعي موسى الصدر الذي أخفاه القذافي سجنًا أم تعذيبًا أم قتلًا، والخميني لا ينظر إلا إلى الأرض. وذهبتُ إلى قم وقابلتُ علماءها، الشيرازي، ورَأيتُهم وهم يُصدِرون الموسوعات. ورأيتُ شابًّا عراقيًّا مهاجرًا من حكم صدام يُصدِر مجلةً إسلامية أعطيتُه فيها حديث: قم تسأل والقاهرة تجيب، مما أحزن العلماء؛ فكيف قم تسأل وهي كعبة العلم والقاهرة تجيب؟ وهل القاهرة أعلى من قم؟

وفي ذكرى فيلسوف الإشراق صدر الدين الشيرازي الذي توفي ١٠٥٠هـ الذي يعتز به الإيرانيون لأنه أتى بعد ابن رشد بأربعةِ قرون، ويعتبرون الإمام الخميني تلميذًا له، دعاني الرئيس خاتمي لزيارة طهران والاشتراك في هذه الذكرى. ولَّما كُنتُ عقلانيًّا رشديًّا فجادلتُ العلماء في الإشراق وفي مسار الشيرازي: من الحق إلى الحق فناءً، ومن الحق إلى الخلق نزولًا، وليس من الخلق إلى الحق صعودًا ومن الخلق إلى الخلق تقدُّمًا، فنَقدتُ من الحق إلى الحق لأن أحدًا لا يعرفه، كما نَقَدتُ من الخلق إلى الحق صعودًا طبقًا لمحاولتي إعادة بناء التصوُّف في «مِن الفَناء إلى البَقاء»، ونقَدتُ من الحق إلى الخلق نزولًا؛ فهذا هو التنزيل، وقد انتهى زمنه بخاتم الرسالات، وأبقيتُ على مِن الخَلق إلى الخَلق، عالم الحياة، والخلاف بين الناس، فأعطاني الرئيس خاتمي جائزة الشيرازي خمسة آلاف دولار، وخصَموا منها ألفَين نتيجة استضافتي أنا وزوجتي. وسَأَل عني عندما أتى إلى القاهرة بدعوةٍ من هيكل ولكني لم أكن موجودًا بها. وظَللتُ أُعتبَر صديقًا للثورة الإسلامية في إيران بالرغم من معرفتي ببني صدر في باريس، ومجاهدِي خَلْق «اليمين واليسار في الثورة». وبَلغَتِ الصداقة القِمَّة في حرب حزب الله ضد إسرائيل، وإطلاق الصواريخ عليها عام ١٩٩٧م، ثم قاطعتُها لَّما انحَرفَت، وتحَوَّلَت من ثورة إلى دولة بفعل الظروف، غزو صدام لها، ثم

خاصَمتُها تأييدًا لشعب العراق وسوريا واليمن حتى الآن. وأَرفُض الذهاب إلى احتفال السفارة الإيرانية عندما أتلقَّى دعوةً للاحتفال بعيد الثورة في فبراير من كل عام. ودعاني رئيس الجامعة مرةً وسألني: ما هذه الثورة التي تدعو إليها؟ فقلت له: مثل جمال الدين الأفغاني. فأجاب: شيوعي! ولم أشأ أن أستمر في هذا الاستجواب على هذا المستوى.

وفي ٦ اكتوبر ١٩٨١م ووسط العرض العسكري بطريق النصر، وأمام المنصَّة، هَبطَت جماعةٌ من عربةٍ مدججة بالسلاح، وأَطلقَت النار على الرئيس فأردَوه قتيلًا، وجَرى مَن بالمنصة ومن هم خلفَه. وحُمل جثةً هامدة بالهليوكوبتر إلى المستشفى العسكري بالمعادي. وكانت جماعة الجهاد، وخالد الإسلامبولي قائد الفريق الذي صوَّب بمهارة نحو رقبة الرئيس؛ فقد كان بطلًا من أبطال الرماية، وتم إعدامه بعد محاكمةٍ عسكرية. ويَومَ الجنازة لم يحضر إلا بعض الرؤساء الأجانب، وكان الموكب عربةَ حنطور، ليس جنازةً عسكرية، وليس بها أحدٌ من أفراد الشعب. ومن يُقارِن جنازة الرئيس عبد الناصر وتابوته على أكتاف الشعب بالملايين وهذه الجنازة يُدرِك معرفة الشعب بالفرق بين الاثنَين.

وكان المفصولون أساتذةً وصحفيِّين قد رفعوا أَمرَ فَصلِهم بقرارٍ جمهوري من الرئيس المغدور بغير وجه حقٍّ إلى القضاء لِيدرُس الأمر. وأصدر الرئيس التالي في يناير ١٩٨٢م قرارًا بإرجاع «من ثبت ولاؤهم» إلى وظائفهم في الجامعة، ورفض هؤلاء العودة إلا مع الجميع وبحكمٍ من القضاء. وبالفعل صدر الحكم بأن الرئيس المغدور قد أخطأ في قرار الفصل، وتجاوَز حدود سلطاته لأن الجامعة بها نظامها الرقابي ولجانها القضائية، والصحافة حرة. وعدنا جميعًا في أبريل ١٩٨٢م، وأُرجِعَت إلينا مُخصَّصاتنا، وخرج المُعتقَلون من السجون إلى القصر الجمهوري لِيُحاوروا الرئيس في الحريات العامة، وكان فرحًا واستبشارًا بقدوم عصر الحريات. وفي هذا العام الذي فُصِلتُ فيه من الجامعة تَفرَّغتُ لكتابة «مقدمة في علم الاستغراب» ونُشر في عام ١٩٨٢م بين ناشرٍ وآخر، وكان يمثل الجبهة الثانية من مشروع التراث والتجديد وهو الموقف من التراث الغربي.

وبعد نشر «التراث والتجديد» و«اليسار الإسلامي» جاءني إعلانٌ من المحكمة بطلب من وزير الأوقاف محمد متولي الشعراوي، بأنني مُطالَب في قضية كُفر، ولم أكن قد دخلتُ المحاكم من قبلُ إلا مرةً واحدة إلى مجلس الدولة في مقاضاة رئيس الجمهورية الذي فصلني وزملائي من الجامعة والصحفيِّين ومحمد حسنين هيكل والبابا شنودة في مذبحة سبتمبر ١٩٨١م. وطلَب مني الشنيطي رئيس الهيئة العامة للكتاب الذي نَشَر «التراث والتجديد» أن آخذ فتحي رضوان محاميًا معي. أمَّا «اليسار الإسلامي»، مجلةٌ

غيرُ دورية، فلم يصدر منها إلا عددٌ واحد، وقد نَشرتُه على نفقتي الخاصة، فرفَضتُ بأني قادرٌ على الدفاع عن نفسي. وذهبتُ باب الخلق، ودَخلتُ على قاضٍ شابٍّ ومدعي الاتهام محامي الحكومة. وشرحتُ «التراث والتجديد»، وأن هذا الكُتيِّب هو المُقدِّمة لهذا المشروع، وأنه محاولةٌ لإعادة قراءة التراث القديم في ضوء ظروف العصر. أمَّا مجلة «اليسار الإسلامي» فهي نفس الأفكار، ولكن على المستوى الشعبي السياسي المباشر، وهو ما حاول المصلحون جميعًا فعله؛ كيف أتقَّدم مُحافظًا على شخصيتي الإسلامية وفي نفس الوقت أُواجِه قضايا الاستقلال والتحرر والحرية والوحدة والهوية والتنمية، فسأل القاضي محامي الحكومة: لماذا تُريد أن تُصادِر هذَين الكتابَين؟ فأجاب: لأن الحكومة طلبت مني ذلك، ولم يقل كلمةً واحدة في الموضوع، فأصدَر القاضي حكمًا قانونيًّا ببراءتي، والإفراج عن كتاب «التراث والتجديد» ومجلة «اليسار الإسلامي». والحكم تاريخيٌّ فيه الإشادة بالمُفكِّرين المصريِّين الشبان، وجُهدِهم الثقافي. وخَرجتُ من المحكمة وأنا في نفسي أُحيِّي القضاة الشبان المصريِّين ولعدم وجود دليلٍ لدى الحكومة ضِدِّي للمُصادَرة. وأعادَت الشرطة ما أخذوه من مطبعة الشنيطي التي كانت في خلفيةِ منزله. وسينشر الحكم مع وثائق أخرى في الجزء الثاني من هذه الذكريات «مقالات ممنوعة».

واقتَرحَت جريدة اليوم السابع أن تُجري حوارًا بيني وبين محمد عابد الجابري في رسائلَ مُتبادَلة تُنشَر في اليوم السابع، وقبِلنا الاقتراح، ونُشر الحوار بعد ذلك في «حوار المشرق والمغرب»، وله الطبعة المغربية الأُولى، ثم توالَتِ الطبعات له نظرًا لشهرته وصعوبة الحصول على نسخةٍ منه. وقد تُرجم إلى عديدٍ من اللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، وذاعت شُهرته لدرجة إجراء عدة رسائلَ علميةٍ عليه؛ فالفكر العربي ليس مُجزَّئًا، ولا ينعزل عن بعضه البعض؛ فهذه من الحوارات النادرة التي تربط الفكر العربي مَشرقًا ومغربًا؛ فقد تمَغرَب المشرق وتمَشرَق المغرب. لقد تعلَّم الجابري في دمشق. ودرَّستُ أنا بالمغرب، وكلاهما جناحَا الوطن العربي، ولبنان الرأس الذي حمل لواء الثقافة والصحافة العربية على مدى قرنَين من الزمان. ثم تَكرَّر الحِوار بيني وبين منصف المرزوقي صاحب «إصلاح العقل» من تونس، ولكن لم تبلُغ شُهرتُه شُهرة «حوار المشرق والمغرب». كان مُفتَعلًا، تقليدًا للحوار الأول، ليس له موضوع. ومع ذلك قامت حولهما رسالةُ دكتوره في الصين من د. فوزية عميدة كلية الآداب في جامعة بيكين، وكانت تلميذتي بالقاهرة بعد أن تُرجم الحوار الأول إلى الفرنسية والألمانية، وأُثيرت حوله عِدَّة دراسات. ومرةً ثالثة أُجرِي بيني وبين صادق جلال العظم من دمشق حول «ما العولمة؟»

وظلَّتِ الحوارات التالية للحوار الأول تقليدًا له. ويبدو أن الفكر العربي لم يتَعوَّد على استمرار مثل هذه الحوارات.

ودُعيتُ مرةً إلى الجمهورية العربية اليمنية لإلقاء محاضراتٍ على طلاب جامعة صنعاء واستدعاني الشيخ الزنداني لقضاء أمسيةٍ مع جماعته، وكان رئيس جماعة الإخوان المُسلِمين اليمنيِّين، فذَهَبت، فوجدتُ جماعةً من ثلاثين فردًا تقريبًا في وسطهم الشيخ الزنداني وبيده «المَداعَة»؛ أي شيشة ذات خرطومٍ طويل ملفوف تدور حول أفواه الجميع، فرحَّبوا بي، وطلَبوا مني أن أُعرِّف بنفسي، فبدأتُ أتحدَّث عن مشروع «التراث والتجديد»، وكيف أنه يحاول إعادة بناء التراث القديم طِبقًا لظروف العصر، وهم يسمعون، فتبدو على وجوههم الموافقة وهز الرأس والترحاب بي، وظلُّوا يسألون وأنا أُجيب على مدى ثلاث ساعاتٍ أتجنَّب الدخول في الغيبيَّات والعقائديَّات وأضعها بين قوسَين، ولا أُجيب إلا على المسائل الاجتماعية من عدلٍ وظلم، وحريةٍ واستبداد، وفقرٍ وغِنى، وكانوا يمضغون القات، ولا يناقشون ووَدَّعوني. وفي الغد، وَجَدتُ عربةً مُصفَّحة أمام الفندق الذي أَسكُن فيه كي تأخذني إلى الجامعة، فسألتُ: لماذا؟ فقالوا: رئيس الجامعة أمر بذلك. واتضح فيما بعدُ أن الزنداني وأصحابه أعدُّوا بيانًا بتكفيري يبدأ باسم الله والصلاة والسلام على رسوله لأنهم بعد أن استمعوا إليَّ وقَرءوا، تأكَّدوا أنني كافرٌ مُلحِد، أستحق العقوبة، فخاف عليَّ رئيس الجامعة، وأمر بحراستي ذهابًا وإيابًا من الجامعة إلى الفندق، وأن أغادر في الغد ضمانًا لحياتي. وكان معي جابر عصفور، ونصَحَني بسماع كلام رئيس الجامعة، فغَادَرتُ في الغَد مُسلَّحًا حتى المطار.

وأثناء انتفاضة ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧م التي كان اليسار هو الذي يُوجِّهُها قُبِض على عبد المنعم تليمة، أُودِع سجنًا في طرة، وذهبنا أنا وزوجتي لزيارته، وكان سعيدا، ولما طلبنا منه ماذا يُريد قال: ينقصنا الخضار. وفي المرة الثانية جَهَّزَت له زوجتي صينية قرنبيط باللحمة المفرومة، وذهبنا إليه، وأفرغناها في أواني السجن، واستَرَدَدنا الصينية فارغة. ونحن في طريق العودة نزلت العربة في حُفرة فكُسِر مِحوَرها Axe. وكلَّفَتنا الكثير، لكن كُنَّا سعداءَ بأننا قمنا بواجبنا تجاه المُعتقلِين؛ فعلى الأقل نحن أحرار، مُطلَقو السَّراح.

وفي يومٍ استُدعِيتُ إلى قسم مصر الجديدة وأنا ساكنٌ بشارع الحجاز، فذَهبتُ، فقابلني ضابط، وظَلَّ يسألني أسئلةً لا معنى لها ولا هدف؛ فمن ضيقي كُنت أُحرِّك إصبعي السبَّابة في يدي اليمنى المسنودة على يد الكرسي. ويبدو أنه كان دارسًا لعلم

النفس، فقال: تحريك إِصبعكَ يدُلُّ على أن فيه شيئًا تُخفِيه، فأجبته: أنا لا أُخفي شيئًا، وأنا أعترف أني من المَعارَضة، وهذا شيءٌ مشروع.

ودَعَتني وزيرة الثقافة في البحرين لإلقاء محاضرةٍ عن تجديد الفكر الديني، وقيل لي إنها من الأسرة الحاكمة، وكُنتُ أنا مع الثورة في البحرين، وفهِمتُ بعد الزيارة أن الثورة يقوم بها الإخوة الشيعة الذين يمثلون الأغلبية في البحرين. لقد كُنتُ مع الثورة في أي مكان وفي أي طائفةٍ مثل تروتسكي وجيفارا، ثم فهِمتُ أن الغرض من الثورة في البحرين ليس الثورة بل القضاء على عُروبة البحرين؛ وبالتالي تكون البحرين امتدادًا لإيران، فقلت إن عرب الأهواز لا يمثلون خطرًا على فارسية الجانب الشرقي للخليج، فشَرحُوا لي أن عرب الأهواز يمثلون أقليةً في إيران، أمَّا الشيعة في البحرين فهم الأغلبية؛ فهل من المعقول أن يكون الشيعة هم الثوار وأهل السنة العرب هم المطيعون للحاكم؟ ألا يُوجد سُنةٌ ثوار؟ وهو نفس الوضع في كل أنحاء الخليج حتى اليمن. أمَّا عُمان، الإباضية، فقد كانوا ثُوَّارًا في البداية مثل علي بن أبي طالب دون أن يكونوا شيعة. وعرفتُ جماعةً في البحرين يُسمَّون «الشراة»، يبدو أنهم ثُوارٌ على الثورة، وهم الذين شَرَوا أنفسهم للشهادة في سبيل الحق. وفي المرة الثانية توقفتُ في البحرين، ومددتُ إقامتي يومًا زائدًا، فأنكروا أنفسهم، فكنتُ أخشى أن تكون صفة الغدر أيضًا قد لحِقَت بهم كما لحِق بدار الأمير، دار نشرٍ شيعية ببيروت، وهي التي قدَّمَتني إلى العالم حسين فضل الله، مؤسس حزب الله، بعد أن غادره، وتبادَلنا المؤلَّفات. المخلصون منهم مَن هم في معهد الدراسات الفلسفية، للشيخ حراجي؛ حيث تعاوَنتُ معهم في وضع برنامج المعهد، وما زال غير مُعترفٍ به في نظام التعليم اللبناني، طبعوا كتابي «قضايا معاصرة» (الجزء الثاني) في «في الفكر الغربي المعاصر» للقراءة داخل المعهد، وليس للاتجار به مثل باقي الناشِرين اللبنانيِّين. أقمتُ لهم عدة مُحاضَرات، واستمعتُ إلى الشيخ حسن قائد الحزب بمناسبة تحرير أحد أسرى الحزب من السجون الإسرائيلية، وكان جمهورًا واسعًا، لم أَرَ تنظيمَ حزبٍ سياسيٍّ مثله. ورأيتُ ما قامت به إسرائيل من دمارٍ في جنوب بيروت، في المخيمات الفلسطينية. وتَصوَّرت نفسي هناك ينازعني الولاء بين الحزب والدولة، بين الإسلام والوطن. ورأيتُ السجون المنفردة التي أقامَتها إسرائيل في الجنوب، مترًا في مترٍ؛ فيخرج المُقاتِل من السجون وقد انحنَى ظهره إلى الأبَد من هذه الأقفاصِ الفولاذية.

الفصل السابع

التدريس في المغرب والبحث الدولي في اليابان (١٩٨٢–١٩٨٧م)

وبعد كُل هذا الشد والجذب تَعِبت، فعَرضَ عليَّ صديقي حبيب الشاروني الذي كان يُدرِّس بالمغرب بفاس أن أَحُل محلَّه لأنه سيعود إلى مصر، وبالفعل قبِلتُ. وغادرتُ إلى فاس مع زوجتي وأطفالي الثلاثة: حازم، حاتم، حنين. وأَدخَلناهم المدارس بجوار المنزل الذي كان أقرب إلى فيلَّا في حديقة في شارع بن عائشة رقم ١٢. وشَرَح إليَّ الإخوة المصريون والسوريون والعراقيون أن أوراقي ستَتوقَّف في الوزارة، ولا تسير وتأخذ طريقها إلا إذا دَفَعتُ ما نُسمِّيه في مصر «رشوة»، فرفضتُ، وظلَلتُ بلا مُرتَّب، وكان لا يزيد عن ألف دولار شهريًّا. وبعد تدخُّل الأصدقاء مثل محمد عزيز لحبابي صرفوا إليَّ المُتأخِّر كُلَّه. ولَّما علِمَت مُوظَّفةُ البنك أنني مصري، وقد أرجع إلى مصر، طَلبَت مني أن أُحضِر لها قماش «بوبلين»، وكُنتُ سمِعتُ هذا اللفظ من والدتي وأنا صغير، كما طلَب مني العميد «المعلوم» حتى أُسوِّي أموري بالكلية والجامعة، فأخرجتُ رُزمةً من الأوراق فئة المائة درهم. ولَّما أخذت زوجتي العربة السيات التي اشتريناها من إسبانيا ونَزلَت وسط المدينة لشراء بعض المواد الغذائية خاصة اللحوم، وعادت، وَجَدَتِ الشرطي واقفًا بـ «الكلبش» بجوار العربة، فعُفِي عنها لأنها سيدةٌ مصرية وإلا لكان له شأنٌ آخر. وكُنتُ قد ذهبتُ إلى إسبانيا، الدولة المُجاوِرة، واشتريتُ عربة سيات Seat وهي فيات الإسبانية، فيات الإيطالية المُصنَّعة في إسبانيا كي أَتحَّرك بها إلى الجامعة وأزور المغرب. وكُنتُ أُدرِّس للسنة الرابعة لطلابٍ غاية في العمق والشجاعة والجرأة في المناقشة. ولم أَرَ طالبًا عربيًّا في مثل هذه الثقافة والوعي العربي والجرأة مثل الطالب المغربي. وكُنتُ أُعطي درسًا ثانيًا للسنة الأولى التي كان

يحضر فيها حوالي أكثر من أربعمائة طالبٍ من كُلِّ السنوات والكليات. وكنت أَسمحُ لمن يريد الحديث أن يتحدث، وطلب الأمازيغيون الحديث كثيرًا، وكذلك الماركسيون، ولم يكن هناك سلفيون، وكُنتُ لا أرفض أي دعوة للحديث خارج الجامعة مثل حزب الاستقلال. وحاضَرتُ في سلا ومكناس والرباط والدار البيضاء ومراكش في الجنوب، وتطوان في الشمال. واتَّصَلتُ بالأحزاب التقدُّمية والجرائد والمجلات الماركسية مثل «أنوال».

وقمنا بالسياحة، زوجتي وأنا وأولادي الثلاثة عبر المغرب جنوبًا وشمالًا وشرقًا؛ فذهبنا إلى الشمال عبر تطوان، وعَبَرنا جبل طارق إلى إسبانيا. ورأينا الآثار الإسلامية، قصر الحمرا في غرناطة، جامع قرطبة وجيرالدا في إشبيلية، وهي بقايا المئذنة لمسجدها الكبير، بل ذهبنا إلى مدريد وقبلَها طليطلة لِنرى سورها وآثارها الإسلامية، وفخامة العاصمة مدريد. ثم ذهَبنا مرةً أخرى إلى الجنوب إلى بلاد الأمازيغ حتى مراكش وجبالها من حولها. ثم نَزلنا إلى الجنوب، مدينة العيون والحدود الموريتانية، وهناك حَدثَت حادثةٌ للعربة؛ إذ أَسقَط علينا عاملٌ على جبل حجارة فجاءت تحت العربة، فأوقف مُحرِّك السيارة تمامًا. وكان هذا العامل جُنديًّا بالجيش، فاستَدعَى الونش وجَرَّها إلى توكيل فيات بالمدينة، وانتظرنا حتى تم إصلاحها. ودعانا هذا الجندي إلى منزله بالطقوس المغربية، المائدة والمناديل البيضاء إرضاءً لنا، وإلا كان الجيش وقَّع عليه عقوبة الإهمال. وعُدنا إلى فاس، ومرةً ثالثة إلى الشرق، من فاس إلى وجدة على الحدود الجزائرية بعد أن تلقيت دعوة من المؤتمر العربي للقاء في تونس. فذهبنا عبر المغرب العربي كله. وعجبنا من غلق الحدود بين المغرب والجزائر، ودِقَّة التفتيش وخلع الأحذية. وكان مُوظَّف الجمارك يريد خلع باب العربة لَعلي أَخفَيتُ فيها شيئًا، وأخذوا ما لدينا من عملةٍ مغربية نستلمها حين العودة، ورأينا المُهرِّبين عَبر الحُدود. ومَرَرنا عَبر الساحل الشمالي بعد أول مدينة، مغنية، وكان جَبليًّا، وخافَتِ الأُسرة، وفَضَّلَت طريق الأصنام الجنوبي حتى عبرنا الحدود الجزائرية التونسية. ووَصَلنا إلى تونس، وعُدنا من نفس الطريق الذي فيه السلامة والأمان دون التوقُّف في تلمسان غرب تونس، وعُدنا من نفس الطريق إلى فاس؛ لِغضبي أننا لم نَرجِعْ عن طريق الساحل الجبلي كي تزداد معرفتنا به.

والمرأة المغربية في هذا الوقت كانت حديثةً في لباسها وسلوكها؛ فلم تكن الحركة السلفية قد انتشرت بعدُ، تعتني بجمالها، شَعرِها، و«مكياجها». وكانت اجتماعية يسهُلُ الحديث معها، يغلب عليها الطابع الفرنسي، وليس الشرقي. وكان معي أخي وصديقي محمود إسماعيل أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس، مُعارًا إلى المغرب. وكُنَّا نذهب إلى

المقهى، ونطلب قهوةً بالحليب، ونحادث الفتيات على الكراسي المجاورة أو السائراتِ في الطريق، فلا يُمانعنَ من تبادُل الحديث. وكان المصري محبوبًا للغاية، خاصة اللهجة المصرية من خلال الأفلام السينمائية؛ فكثيرٌ من العرب جُذورُهم مغاربة، نزحوا من الأندلس مثلي؛ فاسمي حسن حنفي حسنين أحمد حسنين المغربي؛ فقد نزح جَد جَدِّي من الأندلس، واستقر في المغرب. وكان كثيرٌ من المغاربة في طريقهم إلى الحج يمرون بمصر، ويستقرون بها حين العودة، وهناك حيٌّ بالإسكندرية يُسمَّى حارة المغاربة، وما زال الأقارب يسكنون فيها ويعملون بالمهن العربية مثل الحياكة. وكثيرٌ من مشايخ الصوفية نازحون من المغرب مثل السيد البدوي بطنطا، والمرسي أبي العباس في الإسكندرية من مدينة مُرسيا الأندلسية؛ فالتصوُّف المغربي رَدٌّ فعلٍ على انسحاب المُسلِمين من الأندلس وهزيمتهم أمام فرناندو إيزابيلا لآخر المعاقل في غرناطة، وتسليم عبد الله بن الأحمر قصر الحمراء لهما دون قتالٍ بشرط عدم قيام المارشال بيتان بتسليم باريس للألمان في الحرب العالمية الثانية شرط عدم تدميرها، كنائسها، ومتاحفها، وقصورها.

والعادات المغربية فريدةٌ في نوعها خاصةً في شهر رمضان؛ فالصوم واجبٌ ديني. وما إن ينطلق أذان المغرب حتى يبدأ المغربي بأكل الحلوى وشرب الشيشة وربما لعب الطاولة والدومينو وربما المعاشرة الجنسية. ويبدأ الإفطار في الساعة الحادية عشرة ليلًا بعد صلاة التراويح، ثم يبدأ الخروج إلى الشوارع للسَّمر ولقاء الأصدقاء. أمَّا السحور فقبل الفجر بقليلٍ مع صلاة الفجر. يوم الجمعة أكل السكسك «الكسكسي»، مُقدَّم بالخضار واللحم وليس بالسكر والزبيب في الأفراح كما هو الحال عندنا في مصر، ويُقدَّم على مائدةٍ مستديرة يجلس عليها الضيوف وما تبقَّى يُعطى لأصحاب المنزل، ثم يُقدَّم الشاي الأخضر. واللباس المغربي للسيدات جلبابٌ أَخضرُ طويل، عليه نقوشٌ من خيوط الذهب الصفراء، وتضع السيدة جميع أنواع الحُلي في وجهها وعلى صدرها. أمَّا الرجل فيلبس القُفطانَ المغربيَّ الطويل وعلى رأسِه الطربوش الأحمر ذو الزِّر الأسود، وفي قدمَيه الخُف المغربي، لم يتفرنس كما هو الحال في الجزائر وتونس. الحديث عن الدين يسبق الحديث عن السياسة، مؤمنٌ بالقلب ومُنفتِحٌ حُر في السلوك، يتكلم العربية الفُصحَى قَدْر الإمكان بالرغم من وجود اللهجة المغربية.

والفَقر في المغرب مثل الفقر في مصر، وسكان العشوائيات في المغرب مثل سكان العشوائيات في مصر، والقصور في المغرب مثل القصور والتجمَّعات الجديدة في مصر، والبطالة في المغرب مثل البطالة في مصر، ومغادرة الأوطان إلى أوروبا في المغرب مثل

مغادرة الأوطان في مصر. المرأة في المغرب تعمل ربَّاتِ بيوت، وتُسمَّى في مصر «شغَّالة»، وأَكثَرهُن في المغرب، ولكنها تتأنَّق وتَلبَس خَير ما عندها من حُلي وجلاليبَ مغربية، عمِلَت لدينا أكثرُ من واحدة تطبخ وتغسل وتُنظِّف. وإذا خَرجَت الزوجة من المنزل لِعمَلها فإن الشغَّالة تقوم بباقي الواجبات للرجل مثل إعداد القهوة وغير ذلك، وقد تقوم بما تقوم به الزوجات حين غيابها. والمنزل المغربي منزلٌ عربي أصيل، الديكورات العربية والأرابيسك والأقواس العربية، ما تبقَّى من الأندلس. في قلب كُلِّ مغربيٍّ يسكُن قَصرُ الحمرا بأعمدته ونوافذه ونوافيره المتسقة. والخضرة في ربوع المغرب تجعله جنةً على الأرض، الورود بكافَّة ألوانها، والروائح العطرة التي تُنافس روائح الورود. وتمتد المغرب من طنجة شمالًا إلى العيون جنوبًا إلى وجدة شرقًا، جبال وتلال ونخيل وأشجار. من يَعشَق الحياة يُحب أن يعيش فيها، ومن يُعمِل عقله؛ فالطالب المغربي خيرُ مُحاوِر، ولُغته العربية الفُصحَى سليمة، والابتسامة على وجهه، لا يعبأ بالزمن، يُفضِّل الاستمرار في الجامعة على أن يتَخرَّج ويُصبحَ عاطلًا، وبالرغم من بعده عن الوطن العربي مثل مصر إلا أنه يحمل همومه، وفي قلبها فلسطين، وكما قال الجابري: تمَشرَق المغرب وتمَغرَب المشرق. وما زالتا مدينتا سبتة ومليلة تحت الاحتلال الإسباني، لا تثاران في السياسة المغربية خشية أن تطرد إسبانيا المغاربة من على أرضها، طابعها أوروبي وليس عربيًّا، العرب فيها يُهرِّبون ما يستطيعون رجالًا ونساءً، ولهم أسواقهم، تتركهم إسبانيا في المَدينتَين يدخلون ويخرجون في مقابل الاحتفاظ بهما إسبانيتَين، وتتحوَّل المدينتان إلى غُصَّة في القلب، وأنا ابن جيل التحرُّر الوطني.

كانت طنجة مِثلَهما ثم تَحرَّرَت، فلماذا لا تتحرَّر المدينتان أُسوةً بطنجة وسنغافورة وهونج كونج وكيب تاون وربما أيضًا قناة السويس قبل اتفاقية الجلاء ١٩٥٤م والتأميم ١٩٥٦م.

ومرةً دعاني حزب الاستقلال لِأُلقي محاضرةً في فندق فاس عن «نظام الحكم في الإسلام». فقلت ما يعرفه الجميع، صغيرًا وكبيرًا، مُؤمنًا ومُلحدًا، أنه ليس نظامًا إلهيًّا أو مَلكيًّا أو وراثيًّا. واستَشهَدتُ بآية ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، وأن نظام الحكم في الإسلام شورى، وأن مقاومة الحاكم الظالم جزءٌ من واجب العلماء بناءً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغادَر بعض الأساتذة من الصفوف الأُولى، ولم أفهم ما السبب. وأَضَفتُ أنه لا يجوز تقبيلُ يدِ الحاكم أو قَدمِه أو حافرِ حِصانه لأن قَدْره لم يصل بعدُ إلى تقبيل القدم. وجاءت الشرطة إلى المنزل لاستجوابي في

قسم الشرطة، وسألوني: إذا كُنتُ أقصد فعلًا مَلِكًا بِعَينه؟ ألا أُقبِّل يد الوالد أو الوالدة؟ فأجبتُ بالنفي. وما كان أَسهلَ من الردِّ عليَّ بالقول بأن سياق هذه الآية هو النظام الفارسي، نظام الكياسرة، والنظام الروماني، نظام الأباطرة! وقد كان داود ملِكًا على بني إسرائيل، وكانت سبأ ملكةً على شعب اليمن وآمنَت بنبوة سليمان، ولكن «اللي على رأسه بطحة يحس بها» أو «لكِ الكلام يا جارة». وظلَلتُ تحت الاستجواب، ورفضوا أن أتصل بالأسرة لِأُطمئِنهم عليَّ خاصة وأن حادثة بن بركة في الأذهان. وظل محمود إسماعيل وطه المصري الأستاذ الذي كان لصيقًا بالعميد الفاسي يبحثون عني. وأخيرًا جاء القرار بأن أترك البلاد في ظل أربعٍ وعشرين ساعة، ثم أُفرِج عني، وذهبتُ إلى المنزل والأسرة تبكي.

وهنا ذهب محمد عزيز لحبابي إلى بن سودة المسئول عن الجامعات في القصر، وأَخبَرهم أنها ستكون فضيحةً لو طُرِد هذا الأستاذ الكبير من المغرب، فطلبوا مني الاعتذار، وعن أي شيء أعتذر؟ عن آية قرآنية لست مُؤلِّفَها؟ وأخيرًا رضي الملك أن يُؤخِّر مغادرة البلاد حتى ٣٠ يونيو نهاية العام الدراسي من أجل الأولاد في المدارس، وطلبوا من زوجتي التي كانت تُدرِّس اللغة الإنجليزية الاستقالة، واشتَرَطوا عليَّ ألا أتكلَّم خارج الجامعة. ووقعَت مظاهرات الشمال، في الحسيمة والناضور يناير ١٩٨٤م، مظاهرات الفُقراء مثل ١٨–١٩ يناير ١٩٧٧م في مصر، واتَّهَم الملك من جديدٍ الأساتذة المَشارِقة، مصريِّين وسوريِّين وعراقيِّين بنشر الأفكار الاشتراكية في البلاد، أمر بطردهم جميعًا في نفس التاريخ. وأنا أُعِد العدة للرحيل أَعدَدتُ بيانًا لشعب المغرب: «أَتَيتُ المغرب طائعًا، وأتركه مكرهًا». وُزِّع على جميع الطلاب والجامعات. وأَرسَلتُ الأولاد الثلاثة: حازم، حاتم، حنين جوًّا إلى القاهرة، بالرغم من رغبة حازم العودة معنا بالعربة. ولَمَّا كنا نخاف عليه وعلى أنفسنا فرجَوناه أن يعود مع إخوته بالطائرة. وقد أخبرني المؤرِّخ الاجتماعي والمؤرِّخ المغربي علي أومليل الذي أصبح سفيرًا لبلده في لبنان أن الفكر الفلسفي يُؤرَّخ قبل قدوم حسن حنفي وبعد مغادرة حسن حنفي، وما زال أَثَري في المغرب مشهودًا، أتلقَّى اتصالاتٍ هاتفية، أساتذة الفلسفة، وكانوا يومًا ما طلابي في فاس، ينقلون رسالتي إلى طلابهم؛ فالمغرب هو البلد العربي الوحيد الذي درَّستُ فيه سنتَين، وتَحمَّلني النظام السياسي على مَضَض هذه المدة. وما زِلتُ أرى أن الطالب المغربي هو أفضلُ من رأيتُ من الطلاب العرب. أتوق للحياة في المغرب، أنا والأسرة، ونعتبر هاتَين السنتَين أَجملَ عُمرٍ قضيناه من حياتنا. بنيتُ منزلي تقريبًا أندلسيًّا، والسكسك والبسطيلة أُحضِرهما معي كلما دُعيتُ إلى المغرب. لم أُوضَع على

القائمة السوداء لِيحجزوني في المطار كما حدث في تونس في عصر زين العابدين بن علي أو في وقتٍ ما في مصر قبل ثورة ٢٠١١م، خاصة إذا كنتُ عائدًا من إيران. وما زال الجلباب المغربي لي ولزوجتي أفضل ما ترتديه في القاهرة. وبعد ذلك بعشرِ سنواتٍ دُعيتُ إلى عمالة فاس لِأُلقي محاضرة، وكُنَّا كأننا في مظاهرةٍ بميدان التحرير. بعدها دعَتني عاملةُ فاس وكانت من حزب الاستقلال للزيارة في لقاءٍ مفتوح مع طلابي القدامى، وأَهدَتني إبريقًا وصينيةً وأكوابًا ستةً فضية، وقالت: إن جلالة الملك يُهديك التحية، ويُهديك ذلك لِيعتَذر لك عمَّا بدر منه من عشر سنوات. وأَقبلُ الدعوة لزيارة المغرب دائمًا، مثل ذكرى الأربعين لصديقي محمد عابد الجابري التي أقامَها له الحزب الاشتراكي. وكان الطلبة يُصفِّقون ويَهتِفون كلما ذكَرتُ مثلًا اشتراكيًّا من القرآن الكريم مثل الأخ الذي له تِسعٌ وتسعون نعجةً ويُريد أن يأخذ نعجة أخيه الوحيدة حتى يستولي على كل شيء. رأيتُ للأسف بعض الأصدقاء الشيوعيِّين وقد مالوا إلى الحكومة، وتركوا المعارضة، كما رأيتُ انتشار الحركة السلفية، ووضع بواباتِ حديدٍ بين طُرقات الجامعة لمنع الطلاب من التجمُّع مثل الحواجز الحديدية في حَرَم جامعة القاهرة. وفي عام ١٩٨٤م قُبض على ثمانٍ وثلاثين من طلبة السنة الرابعة من قسم الفلسفة لِأوَّل مرة، وكُنتُ أُهرِّب لهم الكتب داخل السجن لعل وعسى. وتلقَّيتُ دعوةً أخرى للاحتفال بمحمد شكري صاحب «الخبز الحافي»، وكُنتُ من أوائل من كتَب عنه بعد أن زُرتُه في طنجة ولكني لم أستطِعِ الذهاب؛ فقد كِبر السن، وضعُف الجسد، وأصبحت جالسًا على كُرسيٍّ متحرك: غادرتُ المغربَ ولكنه لم يُغادِرني.

وتلقَّيتُ دعوةً في الصيف لزيارة اليابان، جامعة طوكيو، زميلًا لإيزوإتاجاكي لتدريس فلسفة الغرب والشرق، دراسةً مقارنة، ويُركِّز هو على تدريس الفكر الإسلامي في الوسط، فذَهبتُ أنا وزوجتي وأولادي الثلاثة إلى طوكيو. دخل حازم وحاتم المدرسة الفرنسية ذاهبَين بالمترو، وحنين إلى الحضانة نُوصِّلها على درَّاجةٍ مثل معظم اليابانيِّين. وسَكنَّا في بيت للجامعة، وفي البيت المجاور إيراني وزوجته من المعارِضين للثورة. وعجِبتُ من سُهولة الحياة، بجوارنا سِتُّ أوانٍ، في كل آنيةٍ نَوعٌ من المُخلَّفات: الزجاج، البلاستيك، الكانز، الكارتون، الجرائد، ثم مُخلَّفات المطبخ. وهذا يُسهِّل على تدويرها لإعادة استعمالها. والمواصلات في طوكيو عن طريق المترو تحت الأرض، وتذاكرُ إلكترونية تفتح البوَّابات آليًّا، لا أحد يدفع أحدًا أو يُسابقه، لا أحد يُعاكس أحدًا أو يتحرش به، الشوارع نظيفة، وكل يابانيٍّ يكنس الرصيف أمام بيته بمن في ذلك رئيس الوزراء. والمطاعم وما أكثرها! بين كل مَطعمٍ ومطعمٍ مطعم، وأمامنا كرةٌ حمراءُ مُعلَّقة، والأكلة

الشهيرة إسباجيتي بالمرقة، تُؤكَل بالعصايتَين الشهيرتَين. والياباني لا يأكل مع زوجته رسميًّا إلا في نهاية الأسبوع عندما يلبس الكيمونو الياباني، ويذهب الجميع إلى المعبد. والطالب الياباني يستمع جيدًا للأُستاذ ويُدِّون ملاحظاته، ولكنه لا يُناقش ولا يُعبِّر عن تساؤلاته للأستاذ، بل لرئيس الشركة التي يأتي منها؛ فالفائدة عمليةٌ له وليس نقاشًا حُرًّا بُغيةَ العلم مع الأستاذ، والبحث عن الحقيقة أو كيفية البحث عنها؛ فالأستاذ يُحاضِر وكأنه يُكلِّم نفسه.

وبعد أن انتهى عام جامعة طوكيو دعَتني جامعة الأمم المتحدة، وهي الجامعة التي أنشأها يوتانت سكرتير عام الأمم المتحدة الفيتنامي من أجل ربط العالم الثالث بمجموعةٍ من الباحثين الشبان، تَنشُر الجامعة أعمالهم، وتخرج الجامعات اليابانية من عُزلتها، وليست جامعة طلابٍ وشهاداتٍ ودرجاتٍ علمية، كي أُشرِف على الأبحاث في العلوم الاجتماعية فيها، أُنسِّق بينها بدلًا من تناثُرها، فذهبت لمدة عامَين ١٩٨٥–١٩٨٧م. وكان هناك مشروعان كبيران: الأول لأنور عبد الملك بعنوان «البدائل الاجتماعية الثقافية» Socio-Cultural Alternatives (SCA). والثاني عن التنمية الوطنية لعالمٍ نرويجي كبيرٍ استقَر في اليابان وتزوَّج يابانية، ويدور على العالم شرقًا وغربًا، ويشرف عليه أزنييرو. وكان حسام عيسى قَبلي في هذا المنصب، وكُنتُ أزور مواقع البحث العلمي في أفريقيا وآسيا وفي أفريقيا في غانا حيث كان سمير أمين يقوم ببحثٍ في المكتب التابع للأمم المتحدة. وكان هناك مكتبان: الأول في القاهرة يُشرِف عليه أبو سيف. والثاني في كوناكري-نانا يشرف عليه سمير أمين، يستعملان المنهج الماركسي، كانا لا يَقبَلاني بسهولة وأنا لستُ ماركسيًّا بل يساريًّا إسلاميًّا. قابلتُ سمير أمين في إحدى المسيرات الشعبية في روما ضد الاستعمار، وجهًا لوجه وكأنه لا يعرفني، وكنت في مكتب القاهرة كنت أشعر أنني غريب عنه، ولسان حاله يقول: ما الذي أتى به إلى هنا؟ كان الأول معروفًا برسالته للدكتوراه بعنون «النمو اللامتكافئ» Unequal Development، يأتي إلى مصر بين الحين والآخر، تستقبله دارُ نَشر عين لعدة أسبابٍ، علميةٍ وغيرِ علمية، كما عَرفَ لبنانيةً كثيرة الكلام كمثقَّف لبعض هذه الأسباب. ويُحمد له أن جمع حوله عديدًا من الباحثين الشبان الأفارقة.

وفي الهند عند الباحثِين الشُّبَّان الجُدد، وفي مصر في المكتب التابع للأمم المتحدة. وكانت كل هذه البحوث تحت إشراف موشاكوجي، عالمٍ ومُفكِّر وباحثٍ منفتح على العالم الثالث خاصة أمريكا اللاتينية. وكان رئيس الجامعة من إندونيسيا، المرشح لرئاسة

الجمهورية. كان مُفكِّرًا من مُفكِّري العالم الثالث. وفي كل مرةٍ أذهبُ إلى أحد مراكز البحث في أفريقيا أَمرُّ على القاهرة لأرى الأسرة. ولم أنقطع عن طلابي فكان نصر حامد أبو زيد في أوساكا أستاذ اللغة العربية، وكُنَّا نتهاتف كل يوم، وهو يكتب «مفهوم النص»، ودعوته إلى مؤتمرات الجامعة عن الثقافة العربية حول مفهوم النص. وبعد سنتَين في جامعة الأمم المتحدة وسنة في جامعة طوكيو وسنتَين في المغرب يكون المجموع خمس سنوات، وهو ما تسمح به قوانين الجامعة المصرية، فعُدت. وكان يمكنني أن أُجدِّد إقامتي بجامعة الأمم المتحدة باعتبارها مهمةً قومية، وعلى صلةٍ دائمة بسفير مصر في اليابان وبمستشارها الثقافي الذي كان لا صوت له تقريبًا، والمُعَار من إحدى الجامعات المصرية خاصة قسم اللغة اليابانية بكلية الآداب. وكان أحد الماركسيِّين المصريِّين يحوم حول المنصب كي يخلعني مع تشجيعٍ ومؤازرةٍ من كانوا قبلي في المنصب. وكانت أسرتي قد غادَرَت طوكيو بعد عامٍ واحد نظرًا لأن ابني الكبير حازم قد وصل إلى مرحلة الثانوية العامة، وهي شهادةٌ لا يمكن امتحانها في الخارج مثل باقي السنوات السابقة في السفارة المصرية. وكان أحمد عبد الحليم يراسلني في فيورباخ، وأرسل لي رسالته لِقراءتها وإعداد الملاحظات عليها. وقبل العودة النهائية، عادت زوجتي إلى طوكيو لِتُساعدني في الإعداد للعودة النهائية. وأثناء العودة وبمصاحبة زوجتي بدأنا ببانجوك، والمعبد الكبير لبوذا ثم مانيلَّا وحي اللهو، ثم جاكرتا إندونيسيا وكولالمبور وماليزيا وسنغافورة. وفي كل دولةٍ أتعرَّف على جامعاتها وأساتذتها ومدى ما وصل إليه المسلمون من مناصب. تَعرَّفتُ على عبد الرحمن وحيد رئيس جماعة نهضة العلماء بإندونيسيا والذي أصبح رئيس جمهوريتها فيما بعدُ. دعاني إلى القصر الجمهوري وأَلقَى محاضرةً عن فكري والحاضرون ينظرون إليَّ بإعجاب. وكان قد أتى إلى القاهرة من قبلُ وهو طالب واستمع إلى محاضراتي قبل أن يُكمِل دراسته، وغادر إلى العراق. وتَعرَّفتُ على زين العابدين رئيس جماعة المسلمين بسنغافورة والذي أصبح فيما بعدُ عمدةً لها؛ فقبل العودة إلى القاهرة كان الطواف بالشرق الآسيوي بعد الطواف في المغرب العربي.

وكان الصراع في جامعة الأمم المتحدة التي أَسَّسها يوتانت السكرتير العام للأمم المتحدة السابق بين الإداريِّين والأكاديميِّين. وقد كتبتُ مذكرةً إلى رئيس الجامعة الإندونيسي، ورئيس قسم العلوم الإنسانية الذي أعمل به برئاسة موشاكوجي. كان الإداريون لهم رؤيةٌ إداريةٌ محضة، وكان الأكاديميون لهم رؤيةٌ أكاديميةٌ خالصة، وأَصَرُّوا على تغليب الرؤية الإدارية على الرؤية الأكاديمية، كما أَصرَرتُ على إقامة

سيمينار مرةً أسبوعيًّا ندعو فيه المُتخصِّصِين في الجامعات اليابانية ونقضي على عزلة جامعة الأمم المتحدة التي أنشأها يوتانت كجامعة للعالم الثالث، بحيث تَفتحُها عليه، وتَفتحُ اليابان عليها.

وكانت الفائدة الكبرى هي السياحة في اليابان خاصة رؤية هيروشيما ونجازاكي، وأَثَر القنبلة النووية عليهما حتى بعد أن أُعيد بناؤهما إلا جزءًا صغيرًا للذكرى. وما يُميِّز الحكم الياباني بالإضافة إلى الديمقراطية الشديدة الحِرفية، تقديس الإمبراطور كما هو الحال في المغرب العربي؛ فهو خارج لعبة الديمقراطية، يعيش في قصر في طوكيو هو وعائلته، ولا يكاد يراه أحد إلا نادرًا. وناطحاتُ السحاب الطويلة في وسط المُدن لا تنفي البيت الياباني التقليدي في ضواحيها، ويَظهَر الإحساس بالجمال في كل شِبرٍ فيها، والخضرة والورود تحوط كل شيء. والكُل يشهد بالنبوغ الياباني: أربع جُزرٍ بين آسيا والمحيط الهادي لا مواد أولية فيها ولا طاقة ولا أرض، تستورد الطاقة من الخارج، والحديد من جارتها، لديها فقط العقول والسواعد، وأصبَحَت تُنافِس أمريكا الممتدة من الأطلنطي إلى الهادي. والصين التي أصبَحَت الآن الأُولى في التصدير نظرًا لِمساحتها من المحيط حتى أواسط آسيا، أشار إليها المصلحون كنُموذجٍ لِلمُسلِمين.

وامتحن الأولاد الثلاثة سنواتهم الدراسية قبل الثانوية العامة في السفارة المصرية، وحين أتت الثانوية، اضطُرَّت الأُسرة إلى العودة إلى مصر. وكان الأولاد قد دخلوا المدرسة الفرنسية وتعلَّموا ما استطاعوا، اللغة والعلوم الإنسانية. واضطُرِرتُ إلى مغادرة منزل الجامعة الكبير والسكن في غرفةٍ أرضية في منزلٍ ياباني بكيشيجوجي. وكنتُ قد تَعرَّفتُ على ممرضةٍ يابانية في إحدى العيادات التي تملأ الأحياء، ورحَّبتُ أن أُعلِّمها الإنجليزية، واتفقنا على أن تأتي مرةً أسبوعيًّا في نهاية الأسبوع، وفي المقابل تُعطيني هي درسًا في أساليب الحياة اليابانية، تنسيق الزهور والرقص والموسيقى والرسم. وكانت تأتي ومعها بعض الحلوى والفاكهة من السوبر ماركت القريب من محطة المترو، وتتصل تليفونيًّا أنها وَصلَت، فأذهبُ إلى المحطة على الدرَّاجة لِأَصطحِبها وهي تجلس على المقعد الخلفي كما نفعل في مصر. وبعد الغداء نستريح، ونسمع الموسيقى السيمفونية، حفل السادسة مساءً، ثم تُغادِر. ومرةً أتت وهي جادةٌ أكثر من اللازم، فلمَّا سَأَلتُ: ما الخبر؟ قالت كنتُ في عمليةٍ جراحية. ولَّما كُنتُ أعلم ضَعفَ مُرتَّبها ساهمتُ معها بالنصف، وعندما غادرتُ بعد سنتَين كانت تبكي. وأتت زوجتي من القاهرة إلى طوكيو لمصاحبتي في رحلة العودة النهائية، فبكَت أكثر لأنني لم أستطِع أن أراها بعد ذلك. وغادرتُ طوكيو

في عام ١٩٨٧م. وراسلَتني عندما قَرأَت عني في صحيفة Japan Times، وهي صحيفةٌ بالإنجليزية، ورَدَدتُ عليها مرة، ثم انجرف كلٌّ منا في تيار الزمن. والمرأة اليابانية على الرغم من أدبها وإخلاصها لزوجها إلا أنها تُحب الاستطلاع، وتغييرَ إيقاعِ الرتابة التي تعيش فيها، والصداقة نوعٌ من المعرفة وحُب الاستطلاع، إذا صادَقَت أحدًا فلِمرةٍ واحدة، ثم تختفي وكأنه لم يعرفها حتى لا يكون لها سِجِلٌّ وتاريخ؛ فهناك فَرقٌ بين الأبدي لزوجها وأسرتها والحب الوقتي العابر لمن لاقَته مصادفة وأُعجِبَت به وتُريد معرفته.

وكانت فرصة ونحن في اليابان أن نزور كوريا الجنوبية والعاصمة سيول والتي أصبحَت نموذجًا للتنمية، ورأينا المعابد البوذية. وفي معبدٍ يَتكرَّر بوذا اثني عشر مرةً أو يزيد من الكبير إلى الصغير، والابتسامة على وجهه، يدٌ مفتوحة إلى السماء ويدٌ مُوجَّهة نحو الأرض كما نقول نحن ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولكنَّ يدَينا الاثنتَين مفتوحتان كالشحَّاذ إلى السماء. ومنها إلى جزيرة هاواي في وسط المحيط الهادي، سيادةً أمريكية ولكن شعورًا يابانيًّا. ما أسهل السكن هناك في فيلات، وليس في فنادق! وما أسهل أكل اللحوم، الاستيك الأمريكي، والأيس كريم الأمريكي! وركبنا الطائرة السياحية لنرى الجزيرة «من فوق» وأشجار الموز. صحيحٌ أنها تربط بين الشرق والغرب. طالبتي وزميلتي وصديقتي يُمنى طريف الخولي أخبرتني كم هي مُعجَبة بجامعة هاواي، ومحاولة التعرُّف على الفكر العربي المعاصر بما فيه فكري.

وكثيرًا ما تَوقَّفتُ في جاكرتا إندونيسيا؛ فقد كان عندي في الولايات المتحدة طلبةٌ إندونيسيون من جماعة نهضة العلماء التي كان يرأسها عبد الرحمن وحيد الذي كان طالبا عندي في الستينيات، ثم ذهب إلى العراق، ثم عاد إلى إندونيسيا. وقد بدَأَت هذه الجماعة صوفيةً ثم تطوَّرَت فأصبَحَت عقلية، تسير في تيَّار محمد عبده. وكانت الجماعة الثانية المحمدية، بَدأَت عقلانيةً ولكنها انتهت صوفيةً بزعامة الريس، تعمل بالسياسة مباشرة في حين أن نهضة العلماء تعمل بها بطريقٍ غير مباشر، يكفي استنارة الجمهور ووعيه بالوضع السياسي. تجاوَزَهما محمد مهاتير العقلاني التجريبي في ماليزيا، وأصبح قادرا على أن يُصبِح رئيسًا للوزراء، وقد عَرفتُه في معهد الفكر الإسلامي الذي أَسَّسه وأداره في كوالالمبور، وعَمِلتُ معه في كيفية تطوير المعهد، بعمل برامجَ تنمويةٍ محددة، وعندما أتى مصر طلبني، فحادثتُه عبر التليفون في برنامجٍ معه. كان يلتفُّ حوله السلفيون والإصلاحيون والماركسيون؛ فالتحدِّي هو التنمية وبناء البلاد. ولَمَّا اطمأنَّ إلى مشروعه التحديثي ٢٠٢٠م استقال، ونادرًا ما يحدُث ذلك في الوطن العربي؛ فالرئيس

في الحكم إلى أن يقضي نحبه بشكلٍ طبيعي أو اغتيالًا أو إزاحة من الحكم بانقلابٍ أو بثورةٍ شعبيَّة، وهو في سجنٍ أو مستشفى أشبه بفندقٍ من النجوم الخمسة!

ولمَّا ذهبتُ إلى المغرب واليابان (١٩٨٢–١٩٨٧م) كان أبو الوفا التفتازاني هو رئيس الجمعية الفلسفية، فلم تنشَط الجمعية، وعُدتُ ووجَدتُ في محمود حمدي زقزوق خيرَ صديقٍ ورئيسٍ للجمعية، وما زال حتى الآن يباشر نشاطَه خاصةً المؤتمر السنوي من كل عامٍ في الجلسة الافتتاحية مع رئيس القسم والعميد ورئيس الجامعة وكلمة الضيوف العرب. وكان أول رئيس للجمعية هو إبراهيم بيومي مدكور، وهي الجمعية التي أَسَّسها منصور فهمي باشا ثم انقطع نشاطها بسبب الحرب، ثم استأنفه علي عبد الواحد وافي ومحمود قاسم وعثمان أمين وعثمان نجاتي، وكانت تجمع بين الفلسفة والاجتماع وعلم النفس، كان يقتصر نشاطها على الإصدارات، ولم يكن لها مقَر ولكن كان يُديرها محمود قاسم من كلية دار العلوم بالمنيرة، ثم انقطع من جديد. وكُنتُ أنا قد أعدت نشاطها، وبَحَثنا عن مكانٍ ووجدناه في مساكن هيئة التدريس بجامعة القاهرة بالدور الأرضي، شقة كان يمتلكها أستاذٌ في كلية الهندسة، فاتَّفَقنا على تقسيط التسعين ألفًا. واستمر النشاط بتأييدٍ من جامعة القاهرة في المؤتمر السنوي، وبدعمٍ من وزارة الثقافة التي خفَّضَت الثلاثين ألفا من فاروق حسني إلى المنتصف عندما كلَّمه محمود حمدي زقزوق رئيس الجمعية في ذلك الوقت ووزير الأوقاف، فتبَرَّع للجمعية، وأعطانا على مدى خمسِ سنوات كل سنةٍ ثلاثين ألفًا سدَّدنا بها أقساط الشقة، وأسَّسناها، وفتحنا صالة كبيرة للمُحاضَرات، وصنَّعنا دواليب للكتب ومكتبًا للكومبيوتر والتليفون والإنترنت، وعيَّنَّا موظفةً ثم موظفتَين. وبدأنا في طباعة مجلة الجمعية السنوية، ومطبوعات الجمعية، وندوات الجامعة الشهرية، والندوة السنوية التي أصبَحَت تجمُّعًا للتفلسُف للوطن العربي خاصة الوطن الشقيق، الجزائر والسودان، ثم قطعها جابر عصفور، ثم عادت بفضل صابر عرب وشاكر عبد الحميد وحلمي النمنم مع تخفيضها إلى النصف من صندوق التنمية الثقافية، مع تقديم كل الوثائق اللازمة في كيفية الصرف. وقد بدأنا بِعدَّة محاضرات للأساتذة، ثم بمؤتمرٍ سنوي في الجامعة أيَّدَته الكلية بخمسمائة جنيه. واستمر نشاط الجمعية على هذا المستوى الصغير بدفتر توفيرٍ في البريد في يد الزميل أحمد عبد الحليم كان فيه أربعون جنيهًا قبل أن تتَحوَّل إلى الحساب البنكي حينها لرغبة وزارة الشئون الاجتماعية التي تَخضَع لها الجمعيات الأهلية. ونظرًا لِشدَّة خلافي مع النظام السياسي حول سياساته خاصة كامب دافيد، فقد

أمرنا العميد في ذلك الوقت بالمغادرة؛ فنحن جمعيةٌ أهلية والمكان مؤسسةٌ حكومية، فاستغربتُ لأن معظم الجمعيات الفلسفية تُمارِس نشاطها من خلال أقسام الجامعة المماثلة. وأنا أدير الجمعية منذ نشأتها الثانية ١٩٧٦م منذ أربعين عامًا متواصلة، فإذا افتَقرَت لأسبابٍ مالية دفعتُها من الجوائز التي آخُذها، التقديرية والنيل. والآن نُفكِّر في تغيير الأجيال حتى نطمئن على استمرارها من جيلٍ آخر بعد اعتلال صحتي، وقد وصلت أربعًا وثمانين عامًا. وما زال زقزوق يتَحمَّل أعباء الجمعية واستشارته فيما يطرأ عليها من مصاعب. وحاولنا أن ننقل مسئولياتها على جيل، ولكن عين البعض كان على الرئاسة، يُريد أن يأخُذ أكثر مما يُعطي، فظلَلنا كما نحن عَمودَين للجمعية، ولو بصفةٍ شرفية حتى يقل طمع الطامِعين خاصةً بعد أن أصبح لها وديعةٌ في البنك نصرف من عائدها على النفقات الشهرية للمُوظَّفين وفواتير الكهرباء والماء والإنترنت والإيميل وصيانة العمارة التي بها شقَّة الجمعية لاتحاد الملاك. واستقال أمين الصندوق سمير أبو زيد وقاطَع الجمعية لأنه رفض صرف هذا القِسطِ الكبير للشقة من ميزانية الجمعية، فأخبرتُه أن المقر ضروري، وأن البديل بعد أن تَرَكنا الجامعة هو الشارع. واستلَمَها صديق عمرٍ منذ عودتي من باريس وهو أحمد الأنصاري كسكرتير عام، ولم أَرَ إنسانًا مخلصًا مثله في العمل التطوُّعي، وهو خِرِّيج قِسمِ فلسفة، وقد أَشرَفتُ على رسالتَيه، الماجستير والدكتوراه، وراجعتُ ترجماته العديدة لِمؤلَّفاتِ رويس، فتَطوَّع باستلام الجمعية وأصبح دعامَتَها الأُولى ماليًّا وإداريًّا، وكان وفيًّا في الإشراف على حِساباتها وطباعة مجلتها وأعمال ندواتها السنوية، والاشراف على الجمعية العمومية السنوية، والاستجابة لمطالب وزارة الشئون الاجتماعية التي لا تنتهي، فكان ذراعي الأيمن الذي حاول آخرون قطعه، أستشيره في كل شيء، وأعرف أن نصيحته خالصةٌ لوجه الله. أمَّا السابق فقد كان يكتب عدة مقالاتٍ في الأهرام ويمضي باسمه عضو الجمعية الفلسفية المصرية، ولَمَّا نصحته بالعودة إلى نشاطه بالجمعية اعترض بأن واحدًا فقط هو المسيطر عليها، فطلَبتُ منه أن يحاضرنا في اعتراضاته على سير الجمعية، فأتى ولم يقُلْ شيئًا ذا قيمة. وأَذكُر إخلاصَ رشا ماهر وقدرتها على الإدارة التنفيذية للجمعية حتى شَعَرَت بالتعب، وفضَّلَت إكمال رسالتها للماجستير واختَفَت، فخلفتها ليزا سعيد وآلاء شلتوت بقيمتهما الفائقة في إدارة الجمعية، والاتصال بالأعضاء، والترتيب الإداري للندوات الشهرية، الأحد الثاني من كل شهر، والمؤتمر السنوي في الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر من كُلِّ عام. والجمعية تُبارِك للسكرتيرة الأُولى بالزواج والإنجاب من المهندس كريم، وترجو لآلاء أن تَلحَقَ بها عن قريب.

الفصل الثامن

رئاسة القسم ومحاولة تكوين مدارس فكرية (١٩٨٧–١٩٩٥م)

عُدتُ إلى الجامعة وأنا في شوقٍ إليها، إلى الطلبة والقسم، خاصة وأنها السنوات الأخيرة قبل أن أُحال إلى المعاش. تَسلَّمتُ رئاسة القسم عام ١٩٨٨–١٩٩٤م على فترتَين متتاليتَين، كل فترة ثلاث سنوات. وكان همي هو ربط القسم فلسفيًّا، وتعاوُنَ الأساتذة مع بعضهم البعض لأداء الفلسفة كرسالة، وليس فقط كمهنة. كانت مهمةً صعبة، كيفية التعامل مع الزملاء ومع تضارُب المصالح وتدخُّل الأهواء البشرية مثل الغَيرة والحِقد. وكنا نضع في لجان الامتحانات أسماء زكي نجيب محمود صوريًّا ويأخذ القسمُ مكافأته للصرف على المناسبات التي تمر بالقسم، فذهب أحد الأساتذة ومضى بالاستلام من الصرَّاف بعد أن أعطاه «بقشيشًا» كبيرًا ليزيحني مع أنه ضد القانون، وذهب إلى الأستاذ الكبير وأعطاه مكافأته، وأبلغه أن رئيس القسم هو الذي يأخذ هذه المكافأة وليس القسم، فذهبتُ إليه، وشَرحتُ إليه هذا الأَمرَ وقال لي: «كان من المستحسن إبلاغه، وعمل ذلك بطريقة أفضل.» فاعتذرتُ إليه. وحاول بعض الأساتذة مقاطعةَ جلساتِ مجلس القسم حتى لا يكتمل النصاب فيبطل الاجتماع، لكن كان النصاب باستمرار مكتملًا؛ فبعد عامٍ عادوا لحضور مجلس القسم مثل العصا في العجلة الدائرة. تحمَّلتُ كل شيء بحكمة وعدل، فأدخلت في القسم عدة موادَّ جديدة أو حاربتُ من أجل إدخالها، فلسفة التاريخ للسنة الرابعة، وكُنتُ أُدرِّس المادة فأثير سؤالَ: في أي مرحلة من التاريخ أنا أعيش؟ بعد عرض فلسفات التاريخ في الغرب. وسؤالَ: لماذا لم يظهر موضوع التاريخ في تُراثنا باستثناء ابن خلدون؟ كما أدخلتُ الفكر العربي المعاصر حتى يتخرَّج الطالب وهو على علمٍ بما يدور حوله وبماذا يُفكِّر الناس. وحاربتُ من أجل إدخال فلسفة اللغة التي

أصبَحَت أحد المداخل للفكر الغربي المعاصر. وأدخلتُ فلسفة الدين في السنة الأُولى بحيث يعرف الطلاب أن الدين عِلمٌ يمكن دراسته في علم تاريخ الأديان. وجاهدتُ من أجل إدخال اليهودية مع المسيحية في فلسفة العصور الوسطى. ويُحاول البعض الآن إدخال «فلسفة البيئة»، و«فلسفة المرأة»، و«فلسفة حقوق الإنسان» ولو في الدراسات العليا. واستدعيتُ أساتذةً زائرِين مثل حسام الدين الألوسي من العراق في الفلسفة العامة، أنور عبد الملك من مصر في الفلسفة السياسية، ورشدي راشد من مصر ومن المركز الوطني للبحث العلمي بباريس في فلسفة الرياضيات، وسيد حسين نصر من العراق في الفلسفة الإسلامية حتى يسمع الطلاب أصواتًا جديدة في الفلسفة.

ولَمَّا أصبح رئيس الغيورِين رئيسًا للقسم لم أستطع الجلوس فيه حتى تقل هذه الغَيرة وينضج من كل كلمةٍ يقولها أو فعلٍ يفعله؛ فكنتُ أجلس في قسم اللغة العربية المجاور، ولي فيه أصدقاء، يقابلني الزملاء والطلبة هناك، ولا أَحضُر مجالس الأقسام حيث الكراهية تَشِع من العينَين. وأُزيحَ من رئاسة القسم، ولم يكمل دورته، فعُدتُ إليه، وكان القسم ما زال في المبنى القديم، وكان في حالةٍ يُرثى لها؛ فالأساتذة مع الرئيس أيًّا كان بحثًا عن مصالحهم الخاصة كما يحدث في الدولة. وتحوَّل القِسم إلى عصابة، ورئيس قسمٍ آخر يفتح الباب بدفعةٍ من قدمه احتقارًا له، وثالثٌ يُسانِد في جانبٍ ومثله في جانبٍ آخر كما يفعل المنافقون، وآخر عقله في القسم، ولكن قلبه مع منصبٍ أعلى يتطلع إليه؛ فرئاسة القسم سُلَّم للعمادة، والعمادة سُلَّم لرئاسة الجامعة، ورئاسة الجامعة سُلَّم للوزارة، والوزارة خطوة نحو رئاسة الحكومة، بل أصبح رئيس القسم موضوعًا للتندُّر والسُّخرية في المسرحيات الذكية مثل «أستاذ ورئيس قسم».

وكان همِّي إنما هو تكوين مدرسةٍ فكرية في القسم كما فعل طه حسين وأمين الخولي بقسم اللغة العربية، ومصطفى عبد الرازق بقسم الفلسفة، ومحمد أنيس بقسم التاريخ، ومحمد صقر خفاجة بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية، ورشاد رشدي بقسم اللغة الإنجليزية.

وفي نفس الوقت كنتُ رئيسًا للجان العلمية لترقيات الأساتذة والأساتذة المُساعِدين في الفلسفة، حاربتُ فيها «التربيطات» من أجل ترقية أحد الزملاء بتشكيل لجنةٍ ثلاثية للفحص مواليةٍ أو أخذ اللوم لأن أستاذًا لم يُرَق، بل والخِصام والعَداء، وقد كنتُ عضوًا ثلاث سنواتٍ عندما كانت لجنة فلسفة وعلم نفس واجتماع ثم أمينًا لها ثلاث سنواتٍ أخرى، ثم ست سنواتٍ رئيس لجنة الفلسفة معي في الدورة الأخيرة أمين الفلسفة فيصل

بدير عون صامدَين ضد أي تَدخُّلٍ خارجي لصالح أحد المُتقدِّمين، ثم جاءت اللجنة الثالثة تسير في نفس الطريق حتى وَهنَت. وكانت لجنة التظلُّمات هي الباب الخلفي والتي يُرقَّى فيها من لا يُرقَّى في اللجنة العلمية.

أمَّا الأبناء فسأذكُر ابني البكر الذي أصبح نجمًا من نجوم الفلسفة العربية والإسلامية. وقد سرَّني أن كتب عني مقالًا يقارن فيه بين «من العقيدة إلى الثورة» و«اليسار الإسلامي»، والمقارنة بين الاثنَين خاطئة. «من العقيدة إلى الثورة» المستوى العلمي لمشروع «التراث والتجديد». أمَّا «اليسار الإسلامي» فهو المشروع الشعبي. الأول للخاصة والثاني للعامة. ومع ذلك فرحت لأن أحد تلاميذي تجرَّأ ونقد الأستاذ على غير من يتكلمون في الموضوع ولا يذكرون الأستاذ أبدًا، مع أن ذلك من أصول البحث العلمي للدراسات السابقة. وقد رَجَوتُه أن يستمر في نقده لي حتى يحدث التراكم العلمي الكافي لإحداث تيَّارٍ فلسفي، فكان يكتفي بالنقاش الشفاهي بيني وبينه. وسَرَّني أن تصلني عِدة دراساتٍ ورسائلَ للماجستير عني في كل أرجاء الوطن العربي ومن المغرب العربي، الجزائر وتونس وليبيا، والأردن والعراق ولبنان، حتى كل المشرق الآسيوي، اليابان والصين وإيران، تقريبًا بمنهج العرض للتعريف بمشروع «التراث والتجديد» وبفكري أو ناقدًا إياه من وجهتَي النظر الماركسية أو السلفية، ومنهم من يأخذ جزءًا من المشروع ويُفنِّده مثل «مقدمة في علم الاستغراب» دفاعًا عن الغرب ظانًّا أن الكتاب به نقدٌ للغرب دون أن يتأكد من هذا الجانب في نظرية المعرفة، وقلب الذات إلى الموضوع، والموضوع إلى الذات، استكمالًا لحركة التحرر الوطني على المستوى الثقافي والفكري والحضاري. وقد كُنتُ أحد أفراد اللجنة الخماسية التي شكلها مجلس الكلية مع مصطفى سويف للردِّ على تقرير اللجنة بعدم الترقية التي تَدخَّلَت في ضمير الباحث وحكمها عليه بالإلحاد والكفر بأن ذلك خارج اختصاصات اللجنة العلمية ردًّا على تقرير اللجنة الثلاثية الذي وافقت عليه اللجنة العامة، ولكن الأمر قد تَسرَّب إلى الإعلام. ودخل تلميذي في مباراةٍ إعلامية ضد من ردُّوا عليه، ودخل المتخصِّص وغير المتخصِّص، من يريد الشهرة ومن يريد الإثارة الصحفية. وبالرغم من نصيحتي لتلميذي ألا يَرُد، وألا يتكلَّم في الإعلام فذلك شأنٌ جامعيٌّ خالص، ولا يُناقَش إلا في الجامعة بين مُتخصِّصين، ولكنه أَصَرَّ على مواجهة الإعلام؛ فلا فرق بين معركة الجامعة في الداخل ومعركة حرية الفكر في الخارج، فأبلغتُه أن الأمر ما زال مُبكرًا. يكفينا أن نُكوِّن كتيبة في الداخل مثلي ومثله قبل أن تخرج إلى المجتمع. نحن الآن نقوم بحرب عصابات «اضرب واجري»، ولا نستطيع أن

نُكوِّن جبهةً مثلهم. علينا أن ننتظر عدة أجيال؛ فكما اكتشفتُه أنا فعليه أن يكتشف آخرين من طلابه حتى نكوِّن جبهةً في مقابل جبهة. أمَّا الآن فالمعركة ما زالت مبكرة. وقد كانت هذه هي نصيحة إبراهيم بدران رئيس الجامعة لي. ليس للمجالس الإدارية وليس للجنة العلمية الحق في النيل منَّا حتى لا نُصفَّى واحدًا تلو الآخر، ثم حدث ما حدث بتركه البلاد، ثم استمع إلى نصيحتي أن يعود إلى الجامعة ولو ليومٍ واحد قبل المعاش أي سن الستين، حتى يُعيَّن أستاذًا مُتفرِّغًا، وهو ما حدث.

وهناك عدة نماذجَ جامعية، زُملاءَ وطلابًا أصبحوا أساتذةً يمكن تصنيفها كالآتي:

(١) الغَيرة التي تتحول إلى كراهية ثم إلى كراهية بدلًا من المنافسة الشريفة، نموذج الغَيرة من العلماء دون التقدير أو حتى المنافسة الشريفة والتحدِّي المهني؛ فتتحوَّل هذه الغَيرة إلى كراهية، والكراهية إلى عداوةٍ علنية، خاصةً إذا كان في اليد سلطةٌ وقدرة على الإيذاء، بتعاونٍ مع الإدارة لتحويل هذه الأهواء إلى قراراتٍ إدارية مثل المنع من التدريس أو عدم الموافقة على تقرير اللجنة العلمية للترقية في مجلس القسم حينما يكون الأستاذ الوحيد أو يخاف منه باقي الأساتذة اتقاءً لِشره، وحرصًا على مصالحه. وتتدرج الكراهية من مجلس القسم إلى مجلس الكلية إلى مجلس الجامعة؛ فهذه المجالس تأتمر بأمر الأمن لمعاقبة من يقف ضد النظام. ويعود القرار بالترقية إلى اللجنة العلمية فتعيده إلى المجالس الإدارية فإنها قالت كلمتها؛ فإن القرار بالترقية هو قرار اللجنة العلمية وليس موافقة المجالس الإدارية، فتسقط الأهواء الذاتية أمام موضوعية العلم، وينال هذا النموذج جزاءه من الدنيا قبل الآخرة بالإهمال وعدم نَيلِ أي استحقاقٍ علمي، وتفرُّق الطلبة عنه وإصابته بالكسور والأمراض وعدم التوفيق الأسري، وينتظر نهايته منبوذًا من الجميع إلا ممن استمر على النفاق والمداهنة بدافع الإخلاص والوفاء.

ويتكرر هذا النموذج حتى في التلاميذ ضد أساتذتهم والذي قد يصل إلى حد الإحالة إلى التحقيق لتوقيع العقاب أو مرةً إلى القضاء إذا كان العقاب الجامعي لا يكفي، «الفاضي يعمل قاضي»، يشعر أنه أخذ الماجستير أو الدكتوراه بغير حق، ويفرح أنه تمَّت ترقيته إلى أستاذٍ مساعد وأستاذ وهو لا يستحق، وينال مناصبَ إدارية لأنه يُنفِّذ ما يُطلَب منه من ممثلي النظام، ليس له مُؤلَّف يُعرف به أو يقوم بها تخصُّصه، وليس له دَورٌ في الثقافة العامة، يستمر في الإيذاء لإثبات الوجود، وهو محَطُّ احتقار الجميع. ويتحول هذا النموذج إلى خارج الجامعة، من الغَيرة والكراهية والعدوان إلى الاستعلاء والاستكبار على الآخرِين؛ فهو الأجمل والأعلم والأقدر على الصعود على أكتاف المشاهير

وعن طريق صداقاته العليا أو الأيديولوجيات التقدُّمية ليعلو ويستكبر به على الجهلاء، يتوسَّط به الصغار حتى ولو كانوا من الأساتذة لقضاء مَصالِحهم، ويُرقَّى في الدرجات العلمية باختيار لجانِ فحصٍ أقلَّ علمًا وقدرة. وقد انتشر هذا النموذج خارج القسم في الأقسام المشابهة في جامعات المحافظات؛ فالنموذج يتحول من فردٍ مُؤسِّس إلى عصبة تتبادل المصالح. وهو قادر على الفهم، ولكنه كما يستعلي على الزملاء يستعلي على النص، وينظر إليه من عَلٍ، ويُعيد التعبير عنه بلغته الخاصة، كتب عدة مقالاتٍ في إحدى المجلات العربية الشهيرة عن طريق الواسطة، وتوسَّط لمن أشرف عليه في الدكتوراه كي يأخذ جائزة الدولة التقديرية بعدي بعام، كان يرى أنه مخلوقٌ من جنسٍ آخر غير بني آدم، من ذهب وليس من طين، تأخَّر في ترقيته والتي تمَّت أخيرًا عن طريق لجنةٍ اثنان يميلان ويتحيزان له، الأولى لضعفه العلمي، والثانية لصداقته لأستاذه، وما زال يخاصم ويصادق طبقًا لأهوائه ومصالحه مثل أستاذه، وأرجو أن يُرقى إلى أستاذ قبل أن يُحال إلى المعاش، وأعتذر أيضًا لذلك. قد يكون الانطباع خاطئًا، وقد يكون الأمر أفضل بكثيرٍ مما أتصور. وهل من الضروري الحكم على الأشخاص بما يجب أن يكون أم يكفي بما هو كائن؟ وبماذا يجيب كانط؟ أعتذر للجميع مرةً ثانية، وأُذكِّرُهم بأنني معهم وليس عليهم؛ فأنا بمثابة الأب، وأذكرهم بآية: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

ومن ينتمي إلى النموذج الأول كان أوَّل من أوصت دار نشرٍ بمراجعة ترجمتي لكتاب جان بول سارتر «تعالي الأنا موجود»، وكان يُحسِن استعمال المصطلحات الفلسفية، وله قاموسٌ بالاشتراك عن المصطلح الفلسفي. لم يكن قد ظهر اتجاهه السياسي بعدُ إلا أنه ماركسي، وأنا لم أشعر أنه كذلك. يبدو أنه كان كذلك عندما كانت الماركسية رائجةً من خلال الاشتراكية العربية. والآن يعيش على قضيتين: أن ابن رشد ليس مثله من قبلُ ولا من بعدُ، وهو ممثل العقلانية. والثانية الهجوم على الأصولية، والدفاع عن العلمانية الغربية. ارتبط بالدوائر الفلسفية الغربية أكثر من العربية، ويكتب أسبوعيًّا في الأهرام ويُكرِّر نفسه. لم يحصل على أي جائزة، وهو الآن مُفكِّر الجامعة للهجوم على الإسلاميِّين.

وهناك أيضًا زميل من خارج القسم هو صديقٌ تاريخي من أيام باريس ومؤتمر المبعوثين، وظلَلنا على صداقةٍ مستمرة نحضر المؤتمرات سويًّا، وكلٌّ منا معجب الآخر، ثم أتت فترةٌ بان فيها الخلاف. هو من المُعجَبِين بالرئيس الجديد، واتهمني بأنني

بعد خمسين عامًا أنني من الإخوان، وأنا لا أُعجَب بأحد، بل مهمتي نقد الحكم بناءً على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أطالب بالحريات، والإفراج عن المعتقلِين، وتحقيقِ نوعٍ من العدالة الاجتماعية بعد أن ارتفَعَت الأسعار، فاغتنى الأغنياء وافتقر الفقراء. اتهمني في صحيفةٍ لا يقرؤها أحد، ورَدَدتُ عليه مواجهةً بأنه يعمل لحساب الدولة «عميل الدولة». كاتبٌ مُراوِغ لا يُوجد فيما يكتب أي نقد للوضع الحالي، وكل ما يكتبه مُستمَد من الإنترنت لعرض آخر النظريات في العلوم السياسية والاجتماعية، ونبَّهته على ذلك أكثر من مرة، فإذا لم يجده في الإنترنت طلب مني أن أكتب له هذا الموضوع في عدة أوراق. نال عِدة جوائزَ من الخليج لأن كلامه لا يضر ولا ينفع في حين أنني مُنِعتُ جائزة الملك فيصل في علم أصول الفقه، وأُلغِيَت في العام الذي تقدَّم فيه الناشر بكتابي في الموضوع «من النص إلى الواقع»؛ فمقالي الحسن هو ما لا يتعرض للنظام ويقول كلامًا في الهواء لا يصيب، ومقالي السيئ هو الموجَّه ضد النظام، رئيسًا أو مؤسَّسات لأنه يصيب. وعندما نكون على منصةٍ واحدة يتكلم كلامًا ليس مُوجَّهًا ضد أحد، فأحسست أنه أيضًا غيور مثل باقي الزملاء الذين أعيش بينهم منذ خمسين عامًا، وما زلنا متخاصمَين؛ فأنا لا أحب التابع للنظام، وهو لا يحب الناقد له، طريقان مختلفان. وكثيرون غيرهم كوَّنوا جماعةً مضادة لي في مؤتمرات وندوات، ولكني لا أَرُد. لم يَزُر إسرائيل مثل غيره من الاجتماعيِّين ولكن لا مانع لديه من استقبال صحفيِّين إسرائيليِّين في مكتبه بالرغم من الثورة عليه.

ومنهم من كان صديقي الأول في مصر أستاذًا ورئيس قسم الفلسفة بعد تعييني في القاهرة، استقبلني استقبالًا حارًّا، وانتدبني للتدريس بالقسم بعد سفر رئيس القسم السابق إلى إيران ثم إلى باريس، وقراره بعدم العودة نهائيًّا إلى مصر لأن القسم طلب منه أن يكتب طلبًا للعودة بعد جوازه السنوات المُقرَّرة بالإعارات فرفض لأن كرامته لا تسمح بذلك. وكنتُ أُهديه أول نسخة من أي كتابٍ يصدر لي، ثم غادر في إعارة، وتجاوَزَ المدة المقررة بخمسة أضعافها، وعاد وهو يريد أن يصبح صحفيًّا مثل هيكل، فكتَب مرةً أو مرتَين في الأهرام فلم يلتفِت إليه أحد؛ فشتَّان بين الكاتبَين. ونظرًا لطول إقامته في الإعارة بمفرده استعمل حريته إلى أقصى حدٍّ حتى بعد العودة، وعلِمَت أُسرته بذلك فأتتني باعتباره صديقي الأول في مصر، وأَسَرَّت لي بما يدور في خَلدِها وهي تبكي، فلم أستطع إلا أن أتعاطف معها، ثم جاء الصديق لِيُقنعني بموقفه، ويأخذني إلى صفه كما فعل كُل زملائه بالقسم رغبةً في الإعارة أو مَدِّها. ولَمَّا كنتُ أبغي الحق فلم أُغيِّر موقفي، فما

رأيت منه إلا أن كتب مقالًا طويلًا ضدي، وضد «اليسار الإسلامي»، واتهمني بأنني زعيم الحركة السلفية وممثل الإمام الخميني في مصر ومن أنصار الثورة الإسلامية في إيران في وقتٍ كان النظام السياسي في مصر يُعادي الثورة خوفًا من الإخوان. وكان الرئيس يُغالِط في كلماته، ويتهم الخميني بأنه يقول «الله أكبر، الخميني أكبر.» أي إنه أكبر من الله مع أن الكلمة الفارسية «هربر» تعني قائدًا أو زعيمًا. وظل الرئيس يعتمد على هذه المُغالَطة لِتملُّق الحس الديني للجماهير، فتعادي الثورة الإيرانية. فحزِنتُ أن ذلك يأتي من أعز صديقٍ لي في مصر، فقاطعتُه. وعَلِم صديقٌ مُشترَك بيننا علماني الاتجاه مثله، ودعانا إلى العَشاء عنده لعلنا نصطلح، وأَدخلَنا الشرفة وأَغلقَها علينا. وانتظر هو أن أُفاتحه في الأمر مع أني هو المعتدَى عليه، وانتظرتُ أنا ليبدأ بالاعتذار، ويُوضِّح موقفه، ولكنه لم يفعل استكبارًا؛ فمن مثله يعتذر؟ ومن مثلي حتى يتم الاعتذار له؟ وبعد مدةٍ لا نعرف ماذا نقول وفي أي موضوعٍ نتحدث غادرنا الشرفة، والصديق المشترك يتعجَّب من عدم إتمام المصالحة. ورأيته مرةً واحدة في عزاء زميلٍ مشترك آخر بالمجلس الأعلى للثقافة، يسنده اثنان لأنه لا يستطيع السير، ومن يومها لم أَرَه حتى وفاته. تَحدثتُ إليه مرةً واحدة تليفونيًّا عندما علمتُ أنه قد هُدِّد من الجماعات الإسلامية بالقتل، وأطمأنَنتُ عليه، وأعلنتُ مُساندَتي له، ووقوفي بجانبه.

(٢) الصداقة التي تنقلب إلى غَيرة وعداوة في فترتَين من العمر، من النقيض إلى النقيض. وهو النموذج الثاني الذي تبدو عليه علامات النبوغ الفكري كمُفكِّر وليس كباحث، والبحث العلمي أداةٌ للتفكير الحر. وجد صعوباتٍ في حصوله على الماجستير لأن الفلسفة الإسلامية كانت تتم بشكلٍ تقليدي تاريخي. وكرَّر نفس الشيء في الدكتوراه معي، فكرٌ جيد ولكن بحثٌ علمي ضعيف غيرُ مُوثَّق، فنصحتُه أنه يمكن أن يحصل على الدكتوراه معي، ولكن المهم ما بعد الدكتوراه أن يعيد النظر في منهجه لأنه لا يحفِر بيديه ويستخرج النفط من البئر بنفسه دون أن يعتمد على أفكار الآخرِين، ويُعيد إنتاجها بأسلوبٍ جديد؛ فجيِّدٌ أن يكون الإنسان مُفكرًا بعد البحث والتمحيص والحفر باليدَين، وليس قبله، ولم يستمع. كان يريد الشهرة بسرعة، فالتصق بتلميذي الآخر نصر حامد أبو زيد لأنه لم يعترض على الشهرة السريعة أو مخاطبة الإعلام. وبدأ الخروج إلى الإعلام، وكتابة أفكاره في الصحف، فكان يأخذ قطعةً من «النَّدَّاغة» من فمي فيُكوِّن منها بالونةً كبيرة حتى تَكبَر ويراها الناس ثم تَنفجِر بسرعة لأنها لا تَستمِد هواءها من ذاتها. كان هدفه الشرب من بئري لينال شهرة نصر حامد أبو زيد؛ فهو خليفته، مع أنه

على النقيض؛ فنصر حفَر بيدَيه بعد أن أخذ الشرارة مني. ونبَّهتُه إلى أن ذلك ليس بحثًا علميًّا، ونبَّهتُه إلى أن البحث العلمي ليس أخذ قطعةٍ من السكر أو الملح من ماء غيره ويذيبها، فلم يستمع، وتقدَّم ببحوث من هذا النوع، العلم مني والشهرة من نصر حامد أبو زيد، وأسمع من الزملاء أنه كان كثير النقد والتجريح لي. ومرةً أراني زميلٌ ما كتبه على الفيسبوك بأنني كاهن الفلسفة في مصر، ورجل النساء والشهرة والمال والأسفار، وأنني لا أعرف الموضوعية ولا الملوخية، وأنني سبب تعطيله في الترقية إلى أستاذ مساعد. وعندما كلفته بجمع أوراق «التراث والتجديد» تقدَّم بها للترقية إلى أستاذٍ مساعد عن «الثيولوجيا والأنثربولوجيا»، وأخذ من نصر حامد أبو زيد «النص والخطاب». مع أنه طلب الأوراق التي وَصلَت إلى الجمعية فأعطيناها له؛ فالعلم ليس فيه احتكار. وقد وجد صعوبةً في الترقية، وتقدَّم أربع مرات، ورُفِضَت الترقية لِعَيبٍ في المنهج، فتقدم إلى لجنة التظلُّمات التي كوَّنَت لجنةً ثانية «مطبوخة» فرقَّته. وأنا لا أعطي لذلك أي اهتمام حتى إنه قال إني أغار منه! وعَرفَ العميد ذلك وسألني هل يُقدِّمه إلى التحقيق، فرفَضتُ؛ فكيف يشكو الأب أبناءه؟ كما أن الزمن سيُعلِّمه. وقد تقرَّب من أحد الأساتذة الغيورِين مني والذي أعطى زوجته رسالة ماجستير عن «إخوان الصفا» في إحدى الجامعات الإقليمية. اخترتُه عضوًا في لجنة مناقشة طلب لرسالة دكتوراه، وما إن عَلِم العضو الثالث حتى أراد الاعتذار، وخِفتُ أن يأتي الإعلام فيُصَّور المناقشة، ويُشَهِّر في اليوم الثاني بنا، فطلبتُ تغييره إلى أستاذٍ آخر بناءً على طلبه. وجاء مُدرِّس كاره، وكان تلميذًا لي من قبلُ، ويظن أنني وقفتُ ضده في ترقيته إلى أستاذٍ مساعد منذ عِدةِ سنوات، يطعن فيَّ أمام القسم دون أن يتحدَّث هو بأنه هو الذي طلب الانسحاب. وقد صاحَبَ نصر حامد أبو زيد في رحلته الأخيرة من إندونيسيا إلى القاهرة، ثم تُوفِّي نصر بعدها بعد أن طلَبَت منه زوجته نقله إلى القاهرة، وليس إلى هولندا. قال نصر قبل أن يغادر هذا العالم: «علينا ألا نترك أستاذنا وحيدًا، وأن نقف معه، ونتعلَّم منه.» وحينها اتصل بي الأستاذ آخر مرة، وقال إنه يريد أن يحتفل بعيد ميلادي ليس بالطريقة المعهودة، فأفرغتُ ما في قلبي تجاهه، مَدَدتُ له ذراعي فقطعه. كانت كتابته أشبه بالمقالات الثقافية المُطوَّلة، يعرض أفكاري وكأنها أفكاره، ولم يُشِر إليَّ ولو لمرة واحدة في إحالاته المرجعية، وكأن هذا الماء قد خرج من بئره. لم يُهدِني أي كُتيِّب من كُتيِّباته ظانًّا أنني لم اكتشف خِداعَه ومَصادِره غير المُعلَنة. كان القسم يعتبره خير من يخلُفني، ولكني اكتشَفتُ باطنه كما عَرفتُ ظاهره؛ فقد كان يُبدي إخلاصًا لي في الظاهر، ويُبطِن عداوةً في الباطن، ثم تُوفِّي

بعدها رحمه الله دون أن ينال لقب باحثٍ أو مُفكِّر، وسمِعتُ أنه قال وهو في النزع الأخير: حسن حنفي هو أستاذي في النهاية. وتَكوَّنَت حلقةٌ معادية لي من تلاميذي الذين أصبَحوا أساتذةً بأنني السبب في إجهاضه بل وموته شهيدًا للفلسفة بسبب كراهية القسم له. وتَقرَّب إليَّ أستاذٌ كان في مَعِيَّته، وكان يسعى إلى نحو الشهرة والمال، وكان يكتب في «الأهرام» و«القاهرة»، وجعلوه نائب رئيس لجنة الاحتفال بنصر حامد أبو زيد بعد أن كانت زوجته رئيسًا، ولكنه كان يريد أن يكون الرئيس ولا أحد غيره. أتى مرةً إلى مؤتمر الجمعية الفلسفية المصرية، وحضر يومًا واحدًا لأن هناك عربةً ستغادر إلى القاهرة، وكان سؤاله: «هل أنت رئيس كل الجلسات دائمًا؟» وقد أراد زحزحتي عن درس التأويل في الدراسات العليا، ولو كان طَلَبَه بمحبةٍ لَكُنتُ تركتُه له. كان إذا أتاني الطلبة الإندونيسيون عندي كما يفعلون كل عام أدعوه للمشاركة. ودعا هو رئيس جمعية نهضة العلماء إلى الأهرام مع أحد كُتابه الغيورين وسأل: «طبعًا أنت راجع من السفر وتعبان ولا تستطيع أن تأتي إلى «الأهرام»؟» فأجبتُه: نعم. أراد أن يحل محلي ومحل نصر حامد أبو زيد، كان يُريد أن يسير على طريقٍ شَقَّه غيره، وكانت الدراسات العليا عند فلان، مثل «من محمد عبده إليه» لِوصفِ مسارِ الفكر الإصلاحي. هذه شهادة لِلحق وأعتذر له وهو في السماء حيث يسود الحق والعدل إن كنتُ قد ظلمتُه في شيء، ولْيَرُد عليَّ أحد من مجموعته. وقد يحدث هذا في الطبعة الثانية من الذكريات يَرُدُّون فيه على تجربتي مع الراحلِين؛ فربما أكون قد أسرفتُ أو أوَّلتُ أو ظلمتُ. والله أعلم.

(٣) الازدواجية بين القول والفعل، بين اللسان والقلب، صداقة باللسان، وعداوة بالقلب والفعل، إظهار غير ما يبطن؛ باللسان صداقة وحب وتقدير وعرفان بالجميل، وبالقلب كراهيةٌ دفينة، وبالفعل إيذاءٌ وانتقام. يقضي حياته في إيذاء الآخرِين، يشعر بضعف الشخصية والعلم النسبي، ويَتخفَّى وراء الآخرِين، ويعمل تحت أجنحتهم، لا يستطيع أن يعمل بمفرده أو يقوم بواجباته إلا من وراءِ آخر، في تربيطات ومحاور. هو «تافه» في رأي أحد من يحتمي وراءه، لم يسمع حديث الرسول: «لا تأتوني بأنسابكم، وأتوني بأعمالكم.» ولم يسمع عن آية: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. يترك العلم مع أنه قادر عليه لو أخلص له، لم ينل إلا أصغر التقديرات وهو التقدير الذي يناله أصغر الباحثِين تشجيعًا له. ويتشكل هذا النموذج بطريقةٍ أُخرى مُعاكِسة، ظل وقتًا حتى أصبح نجمًا من نجوم الفلسفة العربية، له نشاطه وتعبيراته واتصالاته ومؤتمراته، ولكنه أصبح «أجوف» الفلسفة. ولَّما بدأ ينتشر في الوطن العربي، كُنتُ قد أَرَدتُ أن

أشركه في عملية الانتقال من جيل زقزوق وجيلي إلى جيلٍ آخر، مع أنه لم يصبح عضوًا في الجمعية الفلسفية لأنه لم يدفع اشتراكاته على مدى ثلاثين عامًا، ولم يشارك تقريبًا في أي ندوةٍ شهرية. وكنتُ قد استبعدتُه جانبًا منذ ذلك الوقتِ عندما لاحظتُ أنه بدأ يغَلِّب مصالحه الخاصة على العامة، يعمل لصالحه الخاص وليس للصالح العام. وقد حاول هذا النموذج الاستيلاء على النشاط بعضويةٍ جديدة لعشرات المُعيدِين والمُعيدات في الجامعات الإقليمية وبعض الأساتذة في القسم، وتم التصويت لصالحهم، وكانت انتخاباتٍ باطلة لأن العضوية الجديدة في هذا النشاط الفلسفي، ولم يمُرَّ عليها ستة أشهر. وعاد النشاط إلى إدارته القديمة، ثم قُدِّمَت شكوى إلى وزارة الشئون الاجتماعية بأن الانتخابات باطلة، وأتى المفتشون ووجدوا أنها صحيحة، وعاد من جديدٍ عندما وجد أنه ليس رئيسًا ولا نائبًا ولا حتى سكرتيرًا للجمعية، اشتكى بأنها ستنهار، وهدَّد موظفات الجمعية أنه يمكن هدمها بخطابٍ صغير بثلاثة تعريفة؛ أي يشكونا كما فعل من قبلُ إلى وزارة الشئون الاجتماعية التي تُشرِف على الجمعيات العلمية الخاصة، وأخذها عَدُوًّا له. واتهمني في مجلس القسم أنني من الإخوان. ويشترط في عقد المؤتمر السنوي بالاشتراك مع القسم ألا تشترك أي منظمةٍ أخرى، ويعني المعهد السويدي بالإسكندرية التي تعقد فيه أيامها الثلاثة الأخيرة بعد عقد الأيام الثلاثة الأولى في جامعة القاهرة، ويُصرِّح بأن العميد هو الذي طلب ذلك، وكأنه يمثل العميد لدى القسم ولا يمثل القسم لدى العميد. مع أني أعتبر هذا النموذج تلميذي، وأعتمد عليه في تحريك النشاط الفلسفي في القسم، هو نموذجٌ صامت لا يتكلم، لا يُسمع له صوت. وقد حامت حوله بعض الشبهات وأُحيل إلى التحقيق، وكنت أُدافع عنه في اللجنة العلمية للترقيات، ساعدتُه ماليًّا عندما تراكمت عليه ديون المطبعة. ولم يأتِ المؤتمر السنوي لهذا العام، بل إنه سَوَّأ سُمعتي لدى بعض الزملاء وجعلني مسئولًا عن عدم اشتراكهم في المؤتمر، عرفتُ أن الطبع غلَّاب. ومع ذلك أحضر كتبه ومجلته ووضعها على منضدةٍ يبيعها بنفسه دون تكليف أحد الفراشِين ودون فصلٍ بين كتبه وكتب الجمعية، بالرغم من التنبيه عليه من موظَّفات الجمعية ألا يرتكب الأستاذ أخطاء البيع والشراء والحسابات. هذا ليس نيلًا من أحد ولكن وصفٌ لما يحدث كل عامٍ مع التقدير الكامل لجهده في إصدار الكتب والمجلة، ولم ينل أي جائزةِ تقديرٍ ولم يُستدعَ في أي إعارة.

(٤) اللعب على الحبلَين حتى يكسب الجميع ولا تُعادي أحدًا، إيثارًا للسلامة؛ فمنه من عُيِّن في منصبٍ ثقافي كبير ثم طُرد منه، له صديقة بالقسم، وتلميذة له، يقول ما لا

يُبطن، ويُبطن ما لا يقول حتى لو كان عالمًا، وكما استُبعد هو من أمانة المجلس الأعلى للثقافة، استُبعدتُ من أمانة لجنة الفلسفة فيه، وعُيِّن بدلًا مني زميلٌ مريض لم يحضُر، فأصبح أقدم من في اللجنة أمينًا ثم تُوفِّي، ثم أصبح زميلًا عائدًا من الخارج بعد عشرين عامًا، وإقالته من جامعته تأسِّيًا ببعض أساتذة القسم.

(٥) الابتعاد وإقصاء النفس عن الاختيار طبقًا للمثل الشعبي «اللي يجيلك منه الريح سده واستريح» وهو نموذج الابتعاد والعزلة وتجنُّب المشرف بعد الحصول على الدرجتَين العلميتَين؛ فقد تحقَّق الهدف بعد أخذ درجة الماجستير، وكان لا يعرف كيفية الكتابة، وأرسلتُه إلى الكلية العلمية ببرلين Kolleg Wissenschaftliche لمدة عام ليتعلم الألمانية، ويَدرُس اليهوديات وتجميع نصوصها خاصة الفلسفة اليهودية العربية المكتوبة بالعربية ولكن بحروفٍ عبرية، ولم يفعل شيئًا في الدراسات اليهودية، وهو المشروع الذي بدأته أنا وأحمد هويدي من قسم اللغات الشرقية. وكان يريد العودة بعد شهر لولا منعتُه كما منعه نصر حامد أبو زيد الذي كان هناك يقضي أيضًا عامًا في سيمينار علوم القرآن، فاتفقنا مع أساتذة اللغات السامية أن يشتركوا معي في ذلك، فوافقوا. وأصدر أحمد هويدي وأنا جزأَين لم أَرَهما، وبعد أن كان يقول أستاذي اختفى، ولا أدري عن المشروع شيئًا. ولَّما رأيتُهما أُعجِبتُ بالنشر في مركز اللغات والترجمة ولكني صُعقت أنني رأيتُ علم إسرائيل على غلاف الجزء الثاني! فعاتبتُه أن هذا الشعار ضد المشروع الذي يقوم على نشر التراث العربي اليهودي، ونقله من الحروف العبرية إلى الحروف العربية. وكان يجب أن يُراجِع أغلفَة الكتب. ويسير المشروع الآن ببطء للغاية نظرًا لكثرة المعروض على المركز القومي للترجمة، وقلة الإمكانيات. وقد نُشِر هذا التراث من قبلُ في إسرائيل بحروفه العبرية كما هو تحت عنوان «التراث اليهودي»، وفي أوروبا وأمريكا إلى اللغات الأوروبية تحت عنوان «التراث اليهودي في العصور الوسطى». وهو خطأ تاريخي لأنه لا ينتمي إلى العصور الوسطى المسيحية الأوروبية، بل إلى الحضارة الإسلامية في عصر ازدهارها الأول في الأندلس. وإذا كانت الماجستير في علم الكلام اليهودي، فقد كانت الدكتوراه في زوهار Zohar، في التصوف اليهودي. ولما لم يكن قد تعلَّم شيئًا وهو في برلين بل تعرَّف على مجرَّد صديقات، لم يفهم النص الإنجليزي الذي صوَّره من عندي، ولم يعرف ما المقصود من الرسالة، وما التصوف اليهودي مقارنة بالديانات الأخرى، خاصة التصوف الإسلامي. كتب رسالة لا تُقرأ، فأعدتُ له لصياغتها حتى حصل على درجة الدكتوراه، وبعد ذلك اختفى، لم يكتب مقالًا واحدًا! ولم يشارك في بحث واحد إلا نادرًا تحت ضغط

مني، ولم يكن له مشروعٌ لدراسة الفلسفة اليهودية العربية في إسبانيا. وقد قارب على المعاش، وما زال مُدرسًا، وهو فرِح بطبع كتابه عن الفلسفة اليهودية دون أن يُشير إلى أنها رسالة الماجستير، وأن طبعاتها متعدِّدة لأنها مقرَّرٌ في مادة الفلسفة اليهودية في القسم وفي التعليم المفتوح، ثم طبع رسالته الثانية عن «زوهار» وهو كتاب «الضياء»، ولم يشر إلى أنها رسالته للدكتوراه، ولا إلى المشرف على رسالتَيه، ولا حتى إلى أن الاسم مُشتَق من الفعل العربي «ظهر»، ولم يساهم في تنمية هذا الفرع في الفلسفة وهو الفلسفة العربية اليهودية. ويبدو أن الأستاذ يضع كثيرًا من الآمال في طَلبتِه، وأَعتذِر له إن كنتُ قد أَخطأتُ في حقه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

ونوعٌ آخر من هذا النموذج الخامس البداية بالعلم الجادِّ يقرأ ويكتب بمهنيةٍ عالية، وبمجرَّد الحصول على الدرجتَين العلميتَين لم يكتب مَقالًا أو أَثارَ قضية، وما أكثر القضايا الفلسفية قبل اليونان مثلًا! وماذا عن حديث «اطلبوا العلم ولو في الصين.» لو كان صحيحا؟ في كل مؤتمرٍ أدفعه هو وزملاءه للاشتراك، تأَخَّر في الترقية، وما زال مُدرسًا، وسمِعتُ أخيرا أنه تمَّت ترقيته. رفَعتُ صوتي عليه لأنه لا يحضر ندوات الجمعية الفلسفية المصرية، الأحد الثاني من كل شهر، فزعل. كان يستعملني أحيانًا كمساعد باحث، أبحث له في مكتبتي عن مراجع في التخصُّص، وأُكلِّف أحد مُساعِديَّ بالقيام بذلك، يقرأ له الفهارس وسرعان ما يحكُم لا، لا، فعجِبتُ! ومكتبتي مفتوحةٌ للجميع، والتصوير مجَّانًا. ربما لم يَستقِرَّ أسريًّا ولا عاطفيًّا فأَثَّر ذلك على الناحية العلمية. وكان فيه العيب الرئيسي لهذا النموذج، لسانه معي وقلبه وسلوكه مع غيري طبقًا للمصلحة، ليس لديه الشجاعة الكافية لمواجهة الظلم حتى لو أتى من رئيس القسم خوفًا على مصالحه. وأستاذه كان يُواجِه الظلم بمفرده حتى لو ازداد الظلم ظلمًا؛ فالعدل في النهاية هو الذي ينتصر؛ لذلك اختَصَر المعتزلة أصولهم الخمسةَ في اثنين: التوحيد، والعدل. سمِعتُه مرةً في مجلس القسم وهو يجلس بجواري يُدافِع عن الكتاب المُقرَّر. ومرةً كنتُ أُحاوِل المصالحة بين رئيس القسم وأحد الأساتذة الذي أُحيل إلى التحقيق، وطلبتُ التصويت على إرجاعه للقسم، والقيام بالتدريس، فلم يُصوِّت مع الاقتراح إلا اثنان. وقام هو وزميله التابع له بمغادرة حجرة القسم حتى لا يصوتا بنعم أو لا خوفًا أو جبنًا. والفريق الثالث قال إن ذلك يُترك للجامعة وليس في يد القسم. وعَجِبت! وأرجو معذرتي إذا كنتُ أخطأت في شيء، إذا كنتُ لم أُقدِّر الظروف الأسرية التي يعيش فيها الزميل. كان عليَّ أن أختار إمَّا الصمت تمامًا عن تجربتي الحية وأنا أكتب ذكرياتي أو أن أكون منافقًا

أُعبِّر عما لا أعتقد، وهو ضرر بالتاريخ، أو أن أكون صادقًا مهما أسأتُ في التأويل أو في التقدير، والثالث أفضل.

ومن هذه النماذج من فضَّل الابتعاد بعد تحقيقِ غرضٍ وهو نَيل الدرجتَين العلميتَين. لقد تعِب من العمل الجاد، ولا يريد الاستمرار فيه، وغير قادر على النموذج السابق وهو الازدواجية إلا عن بُعد لأنه يعتبره سلوكًا لا أخلاقيًّا فيُؤثِر الابتعاد الكلي أو النسبي تحت حُججٍ كثيرة مثل الخلافات في القسم. ومنه من يظهر بين الحين والآخر لِيُبرِّر انقطاعه عن الأستاذ ويُغرِقه بالكلام الذي لا يُفهم منه شيء، وبينه وبين نفسه هو غيرُ قادرٍ على كتابة شيء غير رسالتَيه العلميتَين. ومنه من يتخفَّى كليةً لأنه يخجل من نفسه لأنه لم يكن قادرًا على كتابة رسالته الثانية خارج الترجمة، فكتبها له الأستاذ بأسلوبٍ عربيٍّ سليم ومفهوم، وأفكارٍ متسلسلة. لم يعرف كيفية التعبير باللغة العربية، بالجملة الاسمية أو الفعلية، لها بداية ونهاية، نقَل وتَرجَم صفحاتٍ دون التعبير عن أفكار. لا يُشارك في ندوةٍ أو في مؤتمرٍ أو يُلقي محاضرةً عامة أو يكتب مقالًا في جريدة. هو فيلسوفٌ من منازلهم، لا يشارك في حياةٍ عامَّة أو خاصة. ويتَكرَّر هذا النموذج كثيرًا بحُجَّة الخلاف مع القسم أو بُعد المكان أو الإعارات المتتالية أو عدم الاهتمام بالعمل العام. وهو أقرب إلى المرأة منه إلى الرجل، حقيقةً أم تمثيلًا، هادئ الطبع. تعلَّم الألمانية، ولكنه لم يستطع السفر إلى الخارج لأنه لا يعرف الكومبيوتر والإنترنت، وهي وسائل الاتصال الحديثة لطالب البعثات. غالَى في استعمال منهج تحليل المضمون، فاكتفى بمجرد الإحصاء دون البحث عن الدلالة. اعتمد على «قال ... يقول» نقلًا عن الدارسين للموضوع. ومن يوم المناقشة حتى الآن لم يتصل بي، وقاطعني إمَّا خوفًا أو خجلًا أو حرجًا، وادَّعى أن هناك خلافاتٍ في القسم وهو بعيدٌ عنها. ولم أَرَ له حتى الآن كتابًا عن الهيجليِّين الشبان ولا حتى طبع رسالتَيه، ولا أدري ماذا يفعل في محاضراته؟ وكيف يُواجِه الطلاب؟ وقد قيل إن أحد الزملاء الشبان ضُبط وهو يُراسل زوجته على الإنترنت، وأنه مُحالٌ للتحقيق، لا يحضر مجالس الأقسام، ولا يشارك في المؤتمرات، ولم يكتب ولو مقالًا واحدًا، ولا يعتني بالشئون العامة. كان أقربَ إلى مدرس الابتدائي، حاولتُ عدة مراتٍ أن أُخرجه من هذا الطابع، ولكنه احتجَّ بخلافات القسم! وأيُّ قسم خالٍ من الاختلافات؟ ولماذا لم يأتِ ويدافع عن الحق؟ وأعتذر إن كنتُ قد أخطأتُ في الوصف والتقدير. قد يكون هو غير ذلك، ولكن ما الدليل؟

ونوعٌ آخر من هذا النموذج، طالبٌ عانى الأَمَرَّين في الماجستير في الإشراف، وساعَدتُه قَدْر الإمكان في إشرافي على الدكتوراه بعد أن كانت هناك محاولاتٌ لإيقاف مناقشتها إمَّا بالحديث مع بعض أعضاء اللجنة للاعتذار أو مع السلطة الدينية «الفاتيكان» لبيان خطورة الرسالة أو مع إدارة الكلية، وكان هناك زميلٌ يُعاديه، ربما كان هناك في الذهن شخصٌ آخر في نفس التخصَّص يُراد تعيينه ولم يُكتفَ بتعيينه لمدة سنتَين، من خارج هيئة التدريس، وهي مسيحيةٌ أَقدَر على أن تقوم بتدريس الفلسفة المسيحية، ولم تنجح هذه المحاولات، واستطاع أن يناقش. وظننتُ أنه سيحفظ الجميل على الأقل حتى ألقى الله أو ربما يحافظ على ذِكراي. وظننتُ أنني أستطيع أن أعتمد عليه كذراعي اليُمنى، ظل هكذا عامَين أو ثلاثة أعوام. ولَمَّا كلفته بالقيام ببحثٍ في المؤتمر السنوي للجمعية الفلسفية المصرية عن مناهج البحث في العصر الوسيط وشَرحتُ له ماذا أقصد بذلك «أومن كي تعقل» أو «أعقل كي تؤمن» وهو موضوع شهير للغاية خاصة عند أنسليم تكلَّم في معركة أوغسطين مع الدوناتيِّين الذين كانوا يَوَدُّون الاستقلال بشمال أفريقيا عن روما، فانفعلتُ عليه علنًا بأن هذا خارج الموضوع، فاعتبر التعليق إهانة! وبدأ ينسحب شيئًا فشيئًا مني حتى اختفى تمامًا. وعهدته أن يُقبِّل اليد عندما يُسلِّم عليَّ مُصادَفة، ورأيتُه يُقبِّل يد رئيس القسم ونهَرتُه. ورأيتُ له كتابًا في الفلسفة المسيحية مُقرَّرًا على طلبة التعليم المفتوح. لم يشارك في أي معركةٍ ثقافية في الفلسفة المسيحية أو أعدَّ مشروعًا فيها للدراسة والبحث.

وهناك زملاءُ سلبيون لا يهتمون إلا بمصالحهم، دروسًا أو توزيعَ كُتب أو الإشراف على رسائل أو التعليم المفتوح، عُذرُهم أنهم يسكنون خارج القاهرة. أحدهم علمه محدود لكن أخلاقه تبدو طيبة. ومنهم من يتخذ العلم سُلَّمًا للإدارة؛ فالعلم يتوقف بعد الدكتوراه، ويبدأ البحث عن الإدارة في السُّلَّم الجامعي، ولا تتوقف الإدارة إلا عند الوزارة. وهو نُموذجٌ يتكرر في جميع الأقسام، العلم وسيلة، والمنصب غاية، يستحق التقدير في العلم، والحُزن في السعي إلى الإدارة أو الحُزن على فقدانها. العلم الهدف القريب، والمنصب الهدف البعيد. وما أَسهلَ أن يقع الرجل في حب هذا النموذج إذا كان امرأة! ولا نكتفي بالمظاهر؛ فإننا لا ندخُل قلوب الناس. إنهم نموذج من الأساتذة الذين يتركون غيرهم للقيام بدورهم في الظلم أو في العدل، ويتَخلَّون عن أخذ المواقف، وكما يقال في المثل المصري «معاك معاك، عليهم عليهم» باهتون في اللون أو يتلوَّنون، وأحيانًا يكونون كالعقرب يلدغون من وراء ستار، بالرغم من مدح اللسان. ينشطون في تكوين الجبهات والمحاور من أجل إشعال النار، بالرغم من براءة الوجه وسماحة الكلام، وينضم إليهم

جماعةٌ من المظلومِين بالرغم من تباين المواقف. لا يدافعون عن حقوقهم، ولا يقومون بمعاركهم، ويتركون غيرهم يقومون بها؛ فمن يتقدم ويُعلي صوته دفاعًا عن الحق غير من يتراجع ولا يُسمع دفاعًا عن الحق ضد المتخاذِلِين الذين يُحبون غيرهم القيام بدورهم بدلًا عنهم. لا يعني ذلك أن هؤلاء الزملاء لا فضائل لهم؛ فلكل إنسان فضيلته التي تتغلب على أهوائه وانفعالاته؛ فالإنسان ليس شيطانًا ولا ملاكًا، وإنما السؤال أي الجانبين يتغلب على الآخر حتى يمتلك الفضيلة. بالفضائل تُبنى الحضارات والرذائل تنهدم. ولَّما كان الإنسان هو صانع الحضارة فإنه هو المسئول عن بنائها بفضائله وعن هدمها برذائله. ويمكن أن أَقلِب الصفحة فأَجِد الصور والنماذج الأخرى للفضائل، وما منعني من ذلك هو أنني أخشى أن أكون من المدَّاحِين، وما أكثرهم في عصرنا! بالرغم من قول الرسول: «احثُوا التراب في أفواه المدَّاحين.» وهناك قِلةٌ من الأساتذة يدافعون عن الحق، ويدينون الباطل، لا يُؤخَذ برأيهم مهما علت أصواتهم، وتَكرَّرت تهديداتهم، أصواتٌ تضيع في الهواء مهما علت؛ فلا أحد يستمع إليها، وإذا استمعوا إليها فإنها تدخل من أُذنٍ وتخرج من الأذن الأخرى. لا تعرف كيف تُكوِّن الجبهات مع الصامتِين، مع ما يُسمَّى في السياسة «حزب الكنبة» الممتنعون عن التصويت بيدَيها، متباطئة أو بالخروج بسرعة من القاعة حتى لا يأتي عليهم الدور، فيُصوِّتوا بنعم أو لا. سمعتُ مرةً أن هناك صراعًا بين رئيس مجلس القسم وأحد الأعضاء الأساتذة كان قد خسر الانتخابات أمامه عندما كانت الرئاسة والعمادة بالانتخاب، وينتظر أن تلحق به رئاسة الجامعة، حاولتُ الإصلاح بينهما قبل أن ينتهي التحقيق باعتباري أقدم الأساتذة وأطولهم عُمرًا، فأَصرَّ رئيس القسم على عدم التنازُل عن التحقيق، وضرورة توقيع العقاب عليه. ولَّما ذكرته بآية ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، واعتذر له الزميل عدة مرات فلم يقبل الاعتذار، ولَّما صدَرت العقوبة عليه من الجامعة باللوم رفض الاعتراف، وأصر ألا يُوزِّع عليه حقه في جدول التدريس، والكل وافقه باستثناء أستاذتان، فأحسست أنني في عصبة، ولست في مجلس قسمٍ علمي، وأن الكل يريد أن يأخذ نصيبه من الميراث. وذَكَّرني ذلك برواية «علي بابا والأربعين حرامي»؛ فشتَّان ما بين أحلامي والواقع المعاش. ولم أدخل القِسم بعدها حتى لا أُشارك في ألاعيب المُدرِّسِين مع ناظر المدرسة. وتعِبتُ من سياسة المَحاوِر في القسم؛ فلا أنا قادرٌ على مواجهة العَداء بالعَداء، ولا أنا قادرٌ على أن أعطي محور الصداقة ما يريد من تحقيق

المصالح. وظلَلتُ قائمًا على ساقي حتى انتهت المدة مع سن المعاش. ولا يُوجد معاش في الجامعة، بل يعين الأستاذ بعد الستين أستاذًا متفرغًا، له نفس الحقوق للأستاذ العامل إلا المناصب الإدارية. وبعد السبعين يُعيِّن أستاذًا غير متفرغٍ كل سنتَين مرةً بطلب القسم يقوم بالإشراف على الرسائل، ثم أُلغي الفرق بين الأستاذ المتفرغ وغير المتفرغ، وأصبح الكل مُتفرغًا حتى ينتقل إلى رحاب الله. ولا أدري هل يُجازونه الفرق بين المرتب والمعاش كما سِمعتُ أم إنه من لا يعمل لا ينال كما قال أحد العمداء، وقد جاءني خبرٌ الآن أنهم يفعلون. فلم أتعرَّف على أحدٍ منهم، ولا هم حاوَلوا التعرف عليَّ بالرغم من أن الطلبة والأساتذة الشبان يأتون إليَّ من أقاصي الأرض للتعرُّف عليَّ. يعرفون طريقهم منذ البداية: اختيار أستاذٍ يختار لهم موضوعًا مضمون النجاح فيه مع درجة الشرف الأولى في الدكتوراه، وممتاز في الماجستير، معي لا شيء مضمون في الدرجات إلا العلم، يهابونني قبل التعرُّف عليَّ. لم تعُد الإدارة الجامعية ولا طلبة الدراسات العليا يقرءون شيئًا.

(٦) الصداقة الهوجاء الانفعالية التي تضُر أكثر ما تنفع، تقوم على التمركُز على الذات. وهو عكس النموذج الأول، الغيرة والكراهية والعَداوة العلنية، أحيانًا ينفعل بصداقته لدرجة أنه قد ينقلب في يومٍ من الأيام إلى خصامٍ دون عداوة، وقطيعةٍ دون تواصل، مما يثير في الذهن المثل القائل: «عدوٌّ عاقل خير من صديقٍ جاهل.» ولا مانع لديه من التقرُّب من الزميل الأعلى إداريًّا، يمدحه بقدرته على الكتابة بحيث لا يكون هناك فرقٌ بينه وبين رجال الإعلام، يتعصب لرأيه، يصيح ويصرخ ويتشنَّج، لا يحاور لأنه لا يسمع الرأي الآخر، ولا يسمع إلا صوته، لا يعمل إلا تحت جناح أستاذ، فإذا تُوفِّي انتقل إلى غيره. كوَّن ثلاثيًّا مع أستاذ غيور وأستاذةٍ دون شخصيةٍ أو علم، حاوَلَت أن تُغطِّيَ هذا النقص بعد أن أصبَحَت في منصبٍ إداري أعلى، وهي آخر رئيس بالانتخاب، نافقها كل الأعضاء طلبًا للمصالح الخاصة للتدريس في التعليم المفتوح ومكافآت الجودة، حاول كلُّ عضوٍ أن يسيطر عليها بمن فيهم المدرسون، ولكنهم كتلةٌ صمَّاءُ في القسم. لم يَنَلْ من تحت الجَناح الأخير إلا أقلَّ الجوائز شأنًا بتربيطٍ مع أعضاء لجنة الفلسفة، وعندما رُشِّح إلى جائزةٍ أعلى لم ينَلْ إلا صوتًا واحدًا. نادرًا ما يتحقق هذا النموذج في شخصياتٍ سوية، قادرة على الحوار، والأخذ والعطاء، تُعادِيه باقي النماذج لأنه لا يسير طبقًا للمصالح الخاصة، ولا يحقق إلا المصالح العامة.

ومن هذا النموذج السادس من كان انفعاليًّا، يغضب بسرعة، كان يدي اليمنى في الجمعية الفلسفية بعد قطع يدي اليمنى الأولى، وأدَّى واجبَه خيرَ أداءٍ بالنسبة لجمع

الاشتراكات، والإشراف على الأعداد الأُولى للمجلة، ثم غَضِب من أحد الأعضاء عندما كان يَمزَح معه وهو يَدفَع اشتراكه، فظَن أن ذلك إهانة! وغادَر الجمعية بلا رجعة. ومع ذلك أَعتذِر له إن كنتُ قد أخطأتُ في حقِّه حتى لا يحمل لي إلا المعروف وجميل الذكرى.

(٧) الصداقة العاقلة التي تعرف عيوب النماذج السابقة وتحكم بالعقل الهادئ على ما ينفع وليس على ما يضُر حرصًا على المصلحة العامة، وهي صداقةٌ مخلِصةٌ صريحة، تتفق معي في تحليل أحوال الجامعة وأحوال البلاد. كلٌّ مِنَّا يُصرِّح بهمومه إلى الآخر، ويتحسَّر على الزمن القديم، زمن الأساتذة الكبار الذين تعلَّمنا على أيديهم قبل أن تتحول الجامعة إلى وسيطٍ تجاري بين الطالب والأستاذ خاصةً في التعليم المفتوح. تعترض على جامعة الكتب المُقرَّرة والمَلازم والتلقين والحفظ في مرحلة الليسانس، كما تعترض على النظام الأمريكي للدراسات العليا، نظام الساعات المعتمدة؛ فيكون هَمُّ الطالب هو تجميع أكبرِ قَدْرٍ ممكنٍ من A، ثم ينقل رسالته من الإنترنت ويتَخرَّج حاملًا الماجستير أو الدكتوراه يبحث عن عمل، ويتظاهر أمام دُور الحكومة لِيُسمِع صوته، كما تتَحسَّر على النظام السياسي كله؛ فهذه الجامعة صورةٌ منه. أتينا ومصر تُقاوِم الاستعمار والقصر والباشوات، ونُغادِر الآن ومصر ترزح تحت عبء التدخل الخارجي والانهيار الداخلي، وتَركِ مركزها للخليج وإسرائيل؛ فقد تحوَّل الصديق إلى عدُو، والعدُو إلى صديق. وما زالت تشعر بغربةٍ في الجامعة واغتراب في الوطن.

وأمَّا المعيدون الجدد فمنهم من يحتمي بالأستاذ المشرف الذي يساعده على فرض الحماية طبقًا للسلوك الشعبي في حماية النبُّوت لأنصاره كما هو الحال في الحرافيش «التوت والنبوت» لنجيب محفوظ. ومنهم من يظل صامتًا حتى يَدرُس الموقف ويعرف من أين يُؤكَل الكتِف، يُفرَض عليه موضوع الماجستير والدكتوراه، فلا يعيش المعيد تجربة الاختيار، ولا معاناة البحث العلمي، فيتَخرَّج شخصيةً باهتة، وعِلمُه منقول من الإنترنت، والموضوعات المنقولة من الغرب مثل «الفلسفة والبيئة» في مجتمعٍ لا يعرف كيف يجمع القمامة، و«فلسفة المرأة» لأن الغرب يتكلم عن النسوية feminism في مجتمعٍ يضرب الرجل فيه المرأة ويُطلِّقها باللسان دون أن نتعرَّض إلى وضعها في التراثِ كنِصفِ شاهدة، ورُبع زوجة، وسَبِيَّة في نكاح الجهاد. ومنهم من يُظهر عِلمه وهو طالب، ويحضُر دروس الدراسات العليا وهو ما زال في الثالثة أو الرابعة لِيُبيِّن عِلمه، وما إن يتخرج ويُعيَّن معيدًا حتى يختفي. ومنهم من يبحث بجهده الخاص على منحةٍ للسفر واستكمال الدراسات العليا بالخارج، وما إن يسافر حتى يقاطع الأساتذة، وقلَّما يعود،

يتَكبَّر ويستعلي، رأسًا برأس. وأعتذِر لهذا الجيل الجديد كُلِّه الذي لم يتعود بعدُ على سلوك الجيل القديم، وأهمية النقد الذاتي.

فما أضاع القِسمَ وجعَله مُفكَّكًا، لا هدف له يسعى إلى تحقيقه ولا قضية يدافع عنها هو الانفعالات البشرية، وليس العواطف؛ فالانفعالات سلب والعواطف إيجاب.[1] وكانت الغَيرة أقوى الانفعالات، مع أنها كان يمكن أن تتحول إلى منافسةٍ علمية وجادة. الغيرة تدمر، والمنافسة تبني. تكون جريمةً بأفعالٍ مرئية أو تكون باطنةً مكتومة. وثاني الانفعالات هي المصلحة الخاصة وتغليبها على المصلحة العامة. ويتغير السلوك طِبقًا لِتغيُّر المصالح. وهنا أدركت أهمية ما كتبه هابرماس عن «المعرفة والمصلحة» Knowledge and interest. وثالثها الجبن عندما تُعرف الحقيقة ولا يتم الدفاع عنها حفاظًا على المصلحة أو لضعف الشخصية، ويتم العمل العدائي من وراء ستار وتحت جناح القوي القادر على الفعل، ويتغير الحامي ولا يتغير المَحمِي، فتضعف شخصيته حتى لو كان ذا علم؛ فالانفعالات مترابطة، كلٌّ منها يجُر الآخر. ورابعها النفاق عندما يتكلم اللسان بما ليس في القلب، ويكتم القلب ما لا يقوله اللسان. وخامسها الخوف من الرئيس مع أنه لا ينفع ولا يضر، وموافقته على ما يقول وما يُقرِّر، والتنازل عن حق المراجعة، وشجاعة الرأي، وهو ما يُسمَّى في التراث «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، والخوف هو وهمٌ مما لا وجود له، الخوف من المُخيف للأطفال. وسادسها السلبية أو الانزواء والانطواء على النفس عملًا بالمثل الشعبي «الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح»، وبذلك يخلق الأستاذ عالمه الخاص الذي يعيش فيه، ولا شأن له بالقضايا العامة.

وقد حاوَلْنا أن نُعيد الترابط للقسم بين أعضائه بدعوتهم إلى اللقاء مرةً شهريًّا عند أحدهم. وحضروا عندي مرة، وكان ناجحًا للغاية؛ إذ إنهم نسُوا الخلافاتِ بينهم والمصالح المتعارضة. ولَمَّا حاولوا تَكرارها عند أحد الأعضاء وحدَّد موعدا ثم أجَّله إلى موعدٍ آخر ثم أجَّله إلى موعدٍ وحدَّد موعدًا ثالثًا، ثم أجَّله إلى أجلٍ غيرِ مُسمًّى، فعرفتُ أن ما خرج عن الطبيعة لا تُعيده الصنعة، ثم جمع رئيس القسم فريقًا مختارًا من أنصاره إلى منزله احتفالًا بحصول أحد أنصاره على درجةٍ علمية، فقسَم القِسم فريقَين: الأنصار، والأعداء.

وعندما جاء الفيلسوف اليوناني موتسوبولوس إلى القاهرة، وهو الذي أشرف على رسائل أستاذة الفلسفة اليونانية بالقسم، دعوتُه إلى منزلي مع أعضاء القسم جميعًا

[1] حسن حنفي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، القاهرة، ٢٠١٨م.

للعَشاء كما تقضي بذلك التقاليد في الجامعات الأوروبية والأمريكية خاصة، لم يحضر أحدٌ إلا تلميذة الأستاذ، هدى الخولي رئيس القسم الحالي، ولم يُقدِّموا حتى الاعتذار، وهو أهم فيلسوفٍ يوناني. كان مدير جامعة أثينا، يجمع بين الفلسفة وعلم الجمال، بين الفكر والموسيقى. خجِلتُ، ولا أدري إذا كان الآخرون قد خجِلوا مثلي. ولَّما طلَب مني أحد رؤساء الأقسام أنه يُريد أن يدعو سيدةً فرنسية لديها تسجيلٌ مع جان بول سارتر كي تُرِيَنا إياه وأن الجامعة ليس لديها ميزانيةٌ لذلك أعطيتُه ما يكفي لشراء بطاقة سفرها باريس-القاهرة، ذهابًا وإيابًا، وعندما أتت لم تقُلْ جديدًا عما نعرفه عن الفيلسوف، مع أنها أتت وكأنها تحمل أسرار الدنيا والآخرة. صحيح أن رئيس القسم دعاني على العَشاء معها في نادي العاصمة ولكن الفائدة منها كانت قليلة، فعزمتُها على طبقٍ من الكشري في مدينة أعضاء هيئة التدريس، ولم أكن مُحرجًا، وقبِلَت هي عن طيبِ خاطرٍ الأكلة الشعبية. وأثناء إقامته مؤتمر القِسم عن التأويل حاملًا العبء بمفرده طلب مني مبلغًا من المال يكفي لدعوة الضيوف على عَشاء في باخرةٍ نيلية ففَعَلت. ولَّما طلبتُ منه هذه الأيام تحكيم بحثٍ في علم الجمال للنشر أم لا في مجلة الجمعية الفلسفية رفض أن يأخذ أجرًا.

وإذا أحس بعض الزملاء أن ما قلتُه على القسم تعريضٌ بهم، فالردُّ أمامهم مفتوح. وأَعِد أنَّ ما سيكتبونه ردًّا سأنشُره في الطبعة الثانية، تلك شِيمة العلماء، الردود والاعتراضات. ويا ليتهم يكتبون انطباعاتهم عني وذِكرايَ في نفوسهم كما حاولتُ أن أفعل. لا يعني ذلك أني غاضبٌ عليهم أو أنني لا أتعاون معهم في أي نشاطٍ علمي بالقسم بل إني أكن لهم كل تقدير واحترام. ويا ليتني أقرأ صورتي عندهم في ذهنهم كما قال عمر بن الخطاب: «رحم الله من أسدى إليَّ عيوبي.»

وأتى زوار آخرون أعرفهم ويعرفونني؛ فقد كنت عضوًا بلجنة حوار الأديان التي أَسَّسها هانزكونج Hans Küng برياسة هلموت شميت رئيس ألمانيا السابق. وأَصدَرنا البيان الدولي لحوار الأديان ونُشر وتُرجم إلى كل اللغات. وجاءت اللجنة في مصر لرؤية رئيسها وإطلاعه على مهامها. ولَّما رأتِ الخارجية المصرية اسمي ضمن قائمة اللجنة رفَضَت؛ فما لهذا المصري بشأن اللجنة؟ واستَعجَبتُ وانتهى العجب لأنه لا يُكرم نبيٌّ في وطنه، ورنَّ في ذهني بيت الشاعر:

أَحَـرامٌ عـلـى بَـلابِـلِـهِ الـدَّو حُ حلالٌ للطَّيرِ مِن كُلِّ جِنسِ؟!

وكنتُ أُدعى للمؤتمر السنوي لحوار الأديان الذي يُعقد في روما كل عام، وأجد عز الدين إبراهيم من مصر، وزين العابدين السماك من لبنان، نجتمع فيما بيننا ونتحاور؛ فلا حوار مع الآخر إلا لمن هو قادر على الحوار مع النفس أولًا، ونصلي، ثم نسير بالشموع في الطريق الطويل المؤدِّي إلى الفاتيكان، وبعدها تُعقد عدة ندوات. ورأيت مرةً شيخ الأزهر حاضرًا في وفدٍ رسمي؛ فقد حول الأزهر نفسه إلى كهنوتٍ إسلامي. وأنا حاضر كالعادة في لاهوت التحرير والعقيدة والثورة أمام دهشة المُسلِمين واستعجاب المسيحيِّين. وبعد عمرٍ طويل في حوار الأديان أدركتُ أن الهدف البعيد هو الإقلال من التوتُّر بين الاستعمار والتحرُّر، بين الغرب والإسلام باسم الدين، التخفيف من العداوة بين الشعوب المُتحرِّرة حديثًا والشعوب الاستعمارية القديمة. تأتي المبادرة من القوي، وليس من الضعيف، وليس على الضعيف إلا مصافحة اليد الممدودة وإلا اتُّهِم بالتعصُّب والإرهاب. ويتم ذلك على مستوى الشكليات، أداء الشعائر، حمل الشموع، المسيرات، الغناء، حشد الجماهير وكأنها مظاهرةٌ إسلامية. فإذا ما طلَبتَ أن يتحول ذلك إلى مساعدة الفقراء والمساكين واليتامى وتخصيص بعثاتٍ تعليمية، وفك الارتباط بين التبشير والاستعمار كان ذلك سياسة، والحوار لا سياسة فيه. يبدأ الحوار مع المحتاجِين حتى تمد لهم يد العَون وبالتالي قد يحدث تحول في الاعتقاد كما حدث لعبد الجليل المسلم الجزائري الذي تحول إلى راهبٍ مسيحي لاعتباره مكتشفًا للحقيقة. وقد تكرَّر نفس الشيء مع محمد عثمان السوري الذي كان باحثًا بالمركز الوطني للبحث العلمي في باريس والذي قضى حياته في دَير الآباء الدومينكان لنشر «الفتوحات المكية» لابن عربي، نشرةً جديدة مُوثَّقة في عشرات المجلَّدات كي يعرف مزايا الرهبنة.

ولما أتى رئيس وزراء تركيا السابق مع داود أوغلو وكُنتُ أعرف الاثنَين من القاهرة، وأُساهم معهما في الانتقال من التوجُّه نحو الغرب، حلف الأطلنطي، إلى التوجُّه نحو الشرق، العرب والمسلِمين، رفضَتِ الرياسة أن أجلس على المائدة الرئيسية، وجلستُ مع موظَّفي الخارجية في البلدَين على مائدةٍ مجاورة، فقام داود أوغلو ليجلس بجواري فمنعه البروتوكول.

وكبر الأنجال، وقارَبوا على الزواج؛ فتزوج حازم خريج العلوم السياسية من الجامعة الأمريكية بعد أن قضى في جامعة بولدر عامًا دراسيًّا يُحسب له، وماجستير من لندن في موضوع الفيدرالية. وهو ناصري قومي عربي، ثم عاد وأصبحَ موظفًا بالخارجية المصرية. من مستشارٍ ثان إلى مستشارٍ أول إلى وزيرٍ مُفوَّض، ثم أصبح قنصلًا عامًّا

لمصر في بورسودان هذا العام. لم يوفَّق في زواجه الأوَّل، وانفصل بعد عام، وهو الآن على استعدادٍ لزواجه الثاني. هوايته الغطس، يذهب تقريبًا كل نهاية أسبوع من الخميس مساءً إلى الأحد صباحًا إلى دهب لممارسة هوايته، ويُريد أن يصل فيها إلى أعماقٍ منافسة. ذهب إلى سفاراتنا في نيبال وسيدني وطرابلس-ليبيا وعُمان وصوفيا-بلغاريا. أراد أن يُؤسِّس مركزًا للدراسات الفيدرالية في سَيناء أشبه بابن خلدون بالقاهرة، ثم حاوَلَ تأسيس المركز في الدور الثاني في المنزل الذي نسكُن فيه بجوار مركز والدته لتاريخ السينما المصرية، ولكن الغطس الآن هوايتُه الأولى.

أمَّا حاتم فهو خرِّيج هندسة عين شمس، مهندس اتصالات، تعرَّف على التيار الإسلامي هناك، إسلامي الاتجاه هو وزوجته، عمل في شركة سويرس، ثم تركها لما أُغلِقَت. كان مسئولًا عن الاتصالات الخارجية وامتداد الشركة في باكستان، وبعد بيع شركة سويرس لشركةٍ روسية ظل يبحث عن عملٍ آخر حتى جاءه عملٌ بالسعودية ثم تركيا التي استقر بها هو والأسرة، وأسَّس هو وصديقٌ له شركة اتصالات صغيرة للاستيراد والتصدير. وهو الآن سعيد بإستانبول، نذهب لزيارتهم بين الحين والآخر. وهو مُتزوجٌ وله ثلاثة أطفال: أنس في الثانوية، وعلي في الإعدادية، وخديجة في الابتدائية. وهو أكثر الأولاد التزامًا بالقضية التي اختارها مثل ما اختاره أبوه في أول حياته، الفكر والسياسة.

وأما حنين الصغرى فهي خريجة الجامعة الأمريكية، قسم الأدب العربي، والماجستير علوم سياسية. أرادت أن تتزوج عن تجربةِ حُب؛ فالزواج بالطريقة التقليدية باردٌ لا طعم له، ووجدت ذلك في رئيسها في شركة للتنمية البشرية، وهو دكتور أطفال. وهي ما زالت مليئة بالحيوية، وعمرها الآن ثمانية وثلاثون عامًا، أنجبت طفلة «لارا» أربع سنوات الآن حبيبة كل الأقارب. هي وزوجها ماركسيًّا الاتجاه. سافَرَت إلى عدة بلادٍ أوروبية وعربية، وهي ملتزمة مثل أخيها الأوسط لولا الزواج وأعباء الحياة والإعداد للدكتوراه ورعاية الابنة «لارا» والبحث عن عمل بعد أن أُغلقَت الحكومة معظم المنظَّمات الأهلية المُتعلِّقة بالتنمية البشرية. وقد كان لِمُنظَّمتهم حضورٌ كبير في الريف، وتقوم بأبحاثٍ ميدانية حتى تُقدِّم الأحكام النظرية على تحليلاتٍ إحصائية ومُوثَّقة.

وكانت زوجتي أمينة مكتبة بالجامعة الأمريكية، خريجة قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، وماجستير من قسم الأديان من جامعة تمبل بالولايات المتحدة. والآن هوايتها السينما، النقد والتوثيق. وحصَلَت على بكالوريوس المعهد العالي للسينما، ثم أسَّسَت

مركزًا لتوثيق السينما العربية في الدور الثاني في منزلنا الجديد «البيت العربي»، ونَشرَت من قبلُ أعمال حسن جمعة في ثلاثة أجزاء. بدأت ليبراليةً وانتهت ليبراليةً إسلامية. والأب يساريٌّ إسلامي. نتعايش سويًّا في حوار مستمر؛ فعندي في المنزل كل الاتجاهات السياسية ممثَّلة، والكل مسموحٌ له أن يمارس نشاطه بحريةٍ تامة. مرةً حاول الابن الأصغر أن يضع على باب الشقة السكنية «لا إله إلا الله»، فمنعتُه لأن هذه الشقة بها تياراتٌ مختلفة، تُوضَع فقط على باب غرفتك، وعلى الحائط مُعلِّق «يا يهود، يا يهود، جيش محمد سوف يعود»، «إن الأقصى قد نادانا: من سيُعيد القدس سِوانا؟» وفي حجرة ابني الأكبر صورة عبد الناصر فوق خريطة الوطن العربي. وفي حجرة ابنتي الوحيدة صورة ماركس ولينين. والأب يساريٌّ إسلامي يجمع بين الإسلام والتقدُّم، وهو ما سُمي عِلميًّا «التراث والتجديد».

وإذا كان قد تم اللجوء إلى نظام الفصلَين الدراسيَّين منذ أيام عبد الناصر لإشغال الطلبة بعيدًا عن المظاهرات، فإن الجامعة تحوَّلت من النظام الفرنسي في الدراسات العليا، كتابة رسالتَين لدكتوراه الدولة إلى النظام الأمريكي، الساعات المعتمدة مع بحثٍ صغير، فأصبح هم الطالب أن يجمع أكثر من A حتى يكتب الرسالة معتمدًا على الإنترنت بمئات المراجع التي لم يقرأ منها شيئًا أو رسائل لا هدف منها ولا قضية، وفي نفس الوقت يدفع قدرًا من المصاريف، ويدفع الطالب العربي أضعافًا مُضاعَفة؛ فلم تعُد الجامعة تهتم بالعلم، ولا الأستاذ المُشرِف، وأصبح هم الطالب هو نيل الدرجة العلمية، وما أسهلها! ثم تقوم المظاهرات في الشوارع بعد ذلك لأن مئات الحاصِلِين على شهادتَي الماجستير والدكتوراه بلا عمل، فامتنعتُ عن الإشراف على رسائلَ جديدة، ولكني ما زلت أُناقش بعض الرسائل القديمة التي يشرف عليها الزملاء. أمَّا «التعليم المفتوح» فهو مشروعٌ تجاري خالص، يدفع فيه الطالب آلاف الجنيهات، والطالب العربي الضعف ثمنًا للكتب التي تشتريها الجامعة من الأستاذ، وتكون وسيطًا تجاريًّا بين البائع والمشتري، ويأخذ الشهادة الجامعية، ولم تنطبق عليه شروطها وهو المجموع الكلي المطلوب في الثانوية العامة. وتتساوى الدرجتان العلميتان، التعليم المشروط والتعليم المفتوح؛ فالجامعة أصبَحَت تحمي الكتاب المُقرَّر، وتُتاجر فيه قبل الأستاذ. أَصبَح التعليم الجامعي حفظًا وتلقينًا لمعلوماتٍ يدرُسُها الطالب على الإنترنت، والطالب يغيب، والأستاذ يغيب، والدرجة العلمية مضمونة. ولا يمكن دعوة أستاذٍ من خارج الجامعة لإلقاء مُحاضَرة إلا بموافقة سلطات الجامعة وعلى رأسها الأمن. ولا يمكن عمَل أي نشاطٍ علمي خارج المُقرَّرات

الدراسية إلا بموافقة السلطات الجامعية. وعربات الأمن المركزي تُحيط بالجامعة، وقد سأل أحد الزوار الأجانب رئيس الجامعة لَمَّا شاهد هذا المنظر: هل أنتم في حالة حرب؟!

وقد أُعطِيتُ عدة جوائز في مصر وخارجها. أُعطيتُ جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية، والفلسفة جزء منها عام ٢٠٠٧م، ولم يُرشِّحني قسمي بل رشَّحني قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، في حين رشَّح القسم محمود حمدي إبراهيم من القسم الذي رشحني! وأُعطِيتُ جائزة النيل الكبرى عام ٢٠١٥م وليس من قسمي بل بترشيحٍ من الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وأتيليه الإسكندرية. وكان رئيس الدولة هو الذي يُسلِّم الجوائز للمُفكِّرين في عيد العلم، وفي حالتي كان رئيس الجامعة ونُوابه عندما بدأ التوتُّر المكتوم بين الرئيس والمُثقَّفين. وأُعطِيتُ جائزة «المُفكِّر الحر» من بولندا وسلَّمها لي رئيس جمهورية بولندا، وقدَّمني لِمُفكِّري بولندا، وألقى خطابًا في حرية الفكر، ولَمَّا عرف أني أعزف الكمان طلب من الفرقة عزف كونشرتو الكمان لِموزار، وطلب مني أن أعزف شيئًا، فعزفتُ «الكمان» على العَشاء في القصر، من موسيقى سيد درويش.

وقد شاركتُ في معظم نشاطات المجلس الأعلى للثقافة منذ إنشائه حتى حكم العسكريِّين، أي حتى الآن؛ فكنت أحد أعضائه البارزِين قبل تشييد البناء الخاص به في أرض الأوبرا. وكان في البداية يُسمَّى المجلس الأعلى للثقافة والآداب والعلوم الاجتماعية برئاسة يوسف السباعي. وبعد اغتياله تولى رئاسته في لجنة الفلسفة زكي نجيب محمود وفؤاد ذكريا ومحمود أمين العالم وأنا وأخيرًا أنيس منصور كما طلب من فاروق حسني. كانت اللجنة في مبناها القديم تُصدِر «الفكر المعاصر»، «تراث الإنسانية»، «المجلة»، كما كانت تُصدِر «الكاتب»، وكانت متنوعة الاجتهادات، وشاركت في معظمها والتي جَمعتُها بعد ذلك في «قضايا معاصرة» (جزءان)، الفكر العربي المعاصر، الفكر الغربي المعاصر. رأستُها وهي في المبنى الجديد وبعد عامٍ أُزحت عنها دون إبداء أسباب. وجاء من بعدي زميلٌ مريض لم يحضر ولا جلسة ثم زميلٌ آخر بالنيابة حتى تُوفي. والآن يرأسها من قضى في الكويت مُعظَم عمره بعد أن كان أستاذًا في الفلسفة اليونانية في جامعة عين شمس، ويُصرِّح بأنه يُعِد مشروعًا للفلسفة المصرية. ولم أكن أقبل أنيس منصور مفروضًا علينا من وزير الثقافة لأن تعليقاته على الأساتذة وكأنهم جُهلاءُ بأورتيجا وغيره من الفلاسفة، وكنتُ لا أُقدِّره لأنه كان أنيس الرئيس المغدور، وكان يفتخر أن معاهدة كامب دافيد قد تم توقيعُها بقلمه الذي يحتفظ به لِلذكرى. وفي اليوم الذي قرَّر فيه مناقشة كتابي فشته، فيلسوف المقاومة تعاركنا، وقذف بالكتاب أحد الأعضاء على

المنصَّة مستهجنًا حتى انتقل الاثنان إلى الرفيق الأعلى، ومن يومها لم أدخل المجلس. ولم أُدعَ إلى حضور نشاطٍ فيه بعد أن استولى عليه التيار المعادي للإسلاميِّين، وصُنِّفتُ بأني من الإخوان، وأنتسب إليهم، ثم عُزلتُ عن نشاطاته تمامًا وكأنني لم أعُد مُثقفًا، وقد كانت الرئاسات السابقة لا تُفرِّق بين إسلامي ويساري. لقد أصبحت كل مؤسسةٍ ثقافيةٍ أو سياسية أو اقتصادية تسير على ساقٍ واحدة، فتسير عرجاء، وترى العالم بعينٍ واحدة فتكون عوراء، وتتنفس برئةٍ واحدة فتختنق. وما عابوا عليه الحكم الإسلامي، أُحادية الطرَف، وقعوا فيه. الخطورة اليوم هو التبعية لنظام الحكم مثل الإعلام، وربما كل مؤسَّساتِ وزارة الثقافة، وهو ما جعل الثقافة خاوية؛ فالثقافة حوار بين تيَّاراتٍ مختلفة حتى لو كانت متعارضةً أحادية، الفرقة الناجية تموت.

وكان أثَري في ماليزيا وإندونيسيا وأوزباكستان وكثير من جمهوريات آسيا الوسطى كبيرًا. وعرفتُ في إندونيسيا عبد الرحمن وحيد رئيس جماعة نهضة العلماء، والرايس رئيس جماعة المحمدية، وهما أكبر مجموعتَين إسلاميتَين في إندونيسيا. وأفكار اليسار الإسلامي منتشرة هناك، بَدأَت نهضة العلماء يساريةً وانتهت يمينية، وبدأت جماعة المحمدية يمينيةً ثم أصبحت يسارية، وكان همي الجمع بين الجماعتَين في اليسار الإسلامي، إلا أن الرغبة في الرئاسة مَنعَت من هذا التواصل. وما زالت إندونيسيا ترسل لي سنويًّا في الصيف حوالي عشرين طالبًا وطالبة دراسات عليا كي أستمِع إلى رسائلهم وأُصحِّحها لمدة شهرَين مرةً أسبوعيًّا لعدم قدرتي على الحركة، وعندي قاعة للاجتماعات تكفيهم وأكثر. وماليزيا أكثرُ تحرُّرًا وعلمانية بفضل محمد محاضر رئيس الوزراء السابق بالرغم من خلافه مع أنور إبراهيم على السلطة، وقد عرفتُ الاثنين، ولكن الشعب كان مع محاضر. وذهبنا إلى كابل عن طريق موسكو؛ فروسيا هي الطريق الوحيد لأفغانستان، وفنادق موسكو كلها نمطية، جادَّة، لا زواق فيها، بين الحين والآخر تُشاهِد فتاةً روسيةً شقراء بكعبٍ طويل وميني جيب لا أدري ماذا يفعلن في بهو استقبال الزوار. وفي مطار موسكو وقفنا بالساعات للتفتيش، الأوراق، الجوازات، تأشيرات الدخول، صحيحة أو مزيفة حتى كدت أصرخ فيهم: نحن ضيوفُ منظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا. لا يدل على وجوه الموظفين والموظفات الذكاء، يريدون فقط أن يؤدوا واجبهم بحرفيةٍ مطلقة، لا تُوجد أي شبهة في أيٍّ من أعضاء الوفد، ومع ذلك التفتيش هو التفتيش. وفحص الأوراق هو فحص الأوراق، ولا يهم أوراق من؟ معنا مرافق يرسم له الطريق، ولا يستطيع أن يغيره، معه كاميرا خاصة للتصوير لبيان مدى ترحاب روسيا بالوفد. وحاضرت علماءهم وأَهدَوني

العباءة الوطنية الأفغانية، ثم أخذوها لأني رفضتُ الذهاب إلى السفارة الأمريكية. وذهبت إلى جامعة كابل، ورأيت تمثال جمال الدين الأفغاني، مفجر الثورة العرابية في مصر وواضع أيديولوجية التحرر الوطني للعالم الإسلامي. وبعد كابل من أواسط آسيا زرنا أوزبكستان وطشقند وسمرقند وباكو، وتَعرَّفتُ على علمائهم، يبدءون الطعام بالفاكهة، طلبوا مني في المسجد أن أتلو القرآن؛ فأنا من جوار الأزهر الشريف، حاولت لكن ليس مثل القراء المُحترِفين. وفي بخارى رأيتُ مدرسة بخارى. وفي طشقند تُوجد المدارس والمساجد العالية. وفي سمرقند مرصد أولوغ بك، والبوابة الكبيرة على مدخل المدينة. فَرِحتُ للحضارة الإسلامية، وانتشارها في أواسط آسيا، والحفاظ على آثارِها، ثم حَزِنتُ على ضَياعها وتحوُّلها إلى إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي مع محاولة استقلال الشيشان.

وقد امتد أثري إلى أمريكا اللاتينية، المكسيك وفنزويلا والأرجنتين. ورأيتُ مدى التشابه بين حياتهم العامة والخاصة مع حياة العرب، كانوا يتوقون إلى التحرر من سيطرة الولايات المتحدة الاقتصادية. وفي المكسيك حياة إسبانية، بها بقايا الأثَر العربي القديم. وامتد أثري في جامعات أوتوا العاصمة الكندية وتورنتو وكاليجري. وحاضرت هناك مع الأساتذة العرب والكنديِّين. ورأيتُ كيف أن الأمريكتَين الجنوبية والشمالية مرتبطتان بالوطن العربي والثقافة العربية، ولا خوف من تكفيرٍ أو حكمٍ بالردة؛ حيث يسمع الطلبة والأساتذة هذا الفكر الجديد من أحد مُمثِليه. ولما قابلوني بعد ذلك في مؤتمراتٍ قبَّلوني ومنهم من قبَّل يدي وكأنني شيخ طريقةٍ جديد، سمِعوا عني وقرءوا لي قبل أن يَرَوني، وقد جاءت المناسبة الآن للتصوير معي، كي تبقى لهم ذكرى في التاريخ. ولا يعرف معظم الناس في مصر عن أمريكا اللاتينية إلا لاعبي كرة القدم.

وأثَر دعوةٍ لبعض المُفكِّرين المصريِّين للحج، دعوةٍ من الملك عبد الله مباشرة، ذهبت أنا ومحمود أمين العالم وآخرون وعشنا في المُخيَّم مثل باقي الحجيج. ودُعينا إلى الغداء مرةً على مائدة الملك، فوجدنا الخراف المشوية المنتصبة واقفة على الموائد وتحتها الأرز، وفي صدر المائدة جلس الملك. وقام أحد المدعوين بإلقاء كلمةٍ نيابة عن المَدعُوِّين، وكان فلسطينيًّا بليغ اللسان وهو بلال الحسن. وبعدها أردنا أن نُجالس المثقفِين السعوديِّين من مكتبة الملك عبد العزيز، فلم يُستجَب إلى الطلب، تحادثنا مع أنفسنا. وكان الشباب السعودي يأتوننا في المساء بلا دعوة لِيُجالِسوا بعض المُفكِّرين العرب الذين يسمعون عنهم، ووجدنا روحًا جديدة راغبة في السماع والتعلُّم ومناقشة الأفكار المثيرة التي نُمثِّلها، وكانت الجلسات تستمر حتى الصباح في بهو الفندق. وكان السؤال: هل نفتح قلوبنا

لهم كما فتحوا قلوبهم لنا أم نحترس؟ ففتحنا قلوبنا بلا خوف، وتحدَّثنا عن مضمون الإسلام وليس شكلياته، وأنه بِنيةٌ اجتماعية وليس أحكامًا شرعية. وتفرَّجتُ على شعائر الحج، والطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات، والصعود إلى عرفات من شرفة بناء مجاور، وأنا في ملابس الإحرام. ورفض محمود أمين العالم أن يلبسها أو أن يُشارِك في شيء، ولم يأخذ ملابس الإحرام الخاصة به؛ فهو صاحب مبدأٍ لا يتنازل عنه. ولَمَّا عُدتُ كتبتُ «خواطر حاج» في «أخبار الأدب». ودَعَوتُ فيها إلى أن عرفات يجب أن يكون في القدس، بهذه الملايين الصاعدة فوقه خاصةً وأن القدس كانت أُولى الحَرمَين. وعجِبتُ من أخي الذي أخذ الوالدَين على نفقته الخاصة للحج مرتَين، وكانت مرةٌ واحدة تكفي من أجل إرضاء رغبات الطبقات الشعبية.

وفي هذه الفترة كان لي أصدقاء، معظمهم من «حزب التجمُّع» مثل محمد عودة والذي كان شيخَ حارةٍ يُعرِّف الأصدقاء بعضهم ببعض، وكان معظم الأصدقاء الذين عرفتهم في مصر عن طريقه مثل فيليب حلاب وزوجته الصحفيَّين وكمال الذين رفعت والذي كان من الضباط الأحرار، وعائلة النقاش ومحمد الفولي، وكُنَّا نجمع بين الثورة والحياة، فذهبتُ إلى مزرعة مجدي حسنين في بنها معهم والذي كان محافظًا للبحيرة أيام عبد الناصر لنأكل البط الأصيل. وكان لي أصدقاء يعيشون في فرنسا ولكن يأتون إلى مصر خاصة بعد حرب ١٩٧٣م ليساهموا في بناء مصر التي انتَصَرت وأزاحت عن كاهلها عار هزيمة ١٩٦٧م، مثل أنور عبد الملك الذي غادر مصر في أزمة الشيوعيِّين مع عبد الناصر في ١٩٥٨م، وأقام في باريس، وعمل بالمركز الوطني للبحث العلمي، ورشدي راشد. وبعد عام ١٩٧٣م أراد أن يَشُد الرحال إلى مصر، ولكن أين؟ بالجامعة وهي مغلقة على أهلها بقوانينها أو في «الأهرام» وهي جريدة الدولة أو في المركز القومي للبحوث الاجتماعية وهو ما زال تقليديَّ الاتجاه. كان مديرًا لمشروع البدائل الاجتماعية الثقافية في «جامعة الأمم المتحدة» بطوكيو، وكان على صلة قوية بمفكري العالم الثالث في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وانتُخِب نائب رئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتماع، وهو خريج قسم الفلسفة بجامعة عين شمس، وتلميذ عبد الرحمن بدوي، وآخر كتبه «الوطنية هي الحل». وقد كَتبَ فيه وفي أمثاله لطفي الخولي مقال «العابرون بعد العبور». وكان في وداعه الأخير في الكنيسة بضعة أفراد معدودة على الأصابع، كانت القاعة شبه خالية، ولم يحضر المتحدثون ولم يعتذروا، وكما هو في المثل: «البعيد عن العين بعيد عن القلب.»

الفصل التاسع

«التراث والتجديد»
وأحزان خريف العمر (١٩٩٦–٢٠١١م)

لا يعني بروز هَمِّ العلم توارِيَ هَمِّ الوطن أو البُعدُ عن السياسة التوقُّفَ عن ممارستها أو عدم الاهتمام بها، بل يعني عدم وقوع أحداثٍ كبرى تجعل المُفكِّر يتجه بشعوره نحو الواقع المباشر، ونحو تحليل الحوادث الحاضرة. هذا الاستقرار السياسي الذي دام ثلاثين عامًا كان ربما في الظاهر، ولكن الباطن كان يسخن على نارٍ هادئة حتى درجة الغليان في الثورة الشعبية الكبرى في يناير ٢٠١١م، باستثناء الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م والحرب بين حزب الله وإسرائيل وإطلاق صواريخه عليها عام ٢٠٠٦م. وتملَّكَني إحساس بأن النهاية قد قرُبَت وأن إكمال «التراث والتجديد» ما زال بعيدًا، والعلوم النقلية التي أردتُ تحويلها إلى عقلية أو على الأقل إلى علومٍ نقلية عقلية مثل أصول الدين وأصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوُّف.[١] وقد أخذ مني «من النقل إلى العقل» خمسة عشر عامًا مثل أُولَى أجزاء «التراث والتجديد»، «من العقيدة إلى الثورة».

---

[١] وهي:
(أ) من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين (خمسة أجزاء)، ١٩٨٧م.
(ب) من النقل إلى الإبداع، محاولة لإعادة بناء علوم الحكمة (تسعة أجزاء)، ٢٠٠٢م.
(ج) من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه (جزءان)، ١٩٩٤م.
(د) من الفَناء إلى البَقاء، محاولة لإعادة بناء علوم التصوُّف، ١٩٩٦م.

والعلوم النقلية خمسة: القرآن، الحديث، السيرة، التفسير، الفقه.[٢] وهو مُوثَّق توثيقًا دقيقًا مع تحليل كل مساهمةٍ للقُدماء في كل علم، وتضخُّم جزء «التفسير». والفقه أكثر حساسيةً لأنه يحكم الناس شرعيًّا. ولم أشأ أن أُخرِجه إلى الإعلام في مقالاتٍ أو مراجعاتٍ صحفية حتى لا يجده صحفيٌّ شابٌّ يريد الترقِّي في جريدته، ويثير زوبعةً إعلامية تَدخُل فيها الاتجاهات المُحافِظة، وأُصبِح ضحية الإعلام مثل نصر حامد أبو زيد، ومن الأفضل أن يكون ضحية الصمت عن أن يكون ضحية الإعلام.

وقد ركَّزتُ في هذه السنوات على إخراج أجزاء «التراث والتجديد». وكنتُ أكتبُ فيه منذ المغرب العربي، ثم بدأت «من النقل إلى الإبداع» لإثبات أن علوم الحكمة؛ أي الفلسفة، ليست نقلًا عن اليونان بل فيها قَدْر من الإبداع في تسعة أجزاء عن طريق تحليل المضمون. الثلاثة الأولى عن النقل، الترجمة، التعليق والشرح أو التفسير. والثاني عن التحول، في التأليف في الوافد دون الموروث ثم التأليف في الوافد مع غَلبَته على الموروث ثم التأليف في الوافد مساويًا بالموروث. والثالث الإبداع، التأليف في الوافد مع غلبة الموروث مع اختفائهما، اختفاء الوافد والموروث تمامًا مثل العلوم الرياضية والطبيعية دون الاعتماد على أيٍّ من الرافدَين والذي اكتمل في عام ٢٠٠٢م بعد أن كان الكومبيوتر قد دخل عالم الطباعة. وجَمعتُ كتاباتي الصحفية في «الدين والثورة في مصر (١٩٥٢–١٩٨١م)» في ثمانية أجزاء؛ الأول: الدين والثقافة الوطنية. والثاني: الدين والتحرُّر الثقافي. والثالث: الدين والتنمية الثقافية. والرابع: الدين والتنمية القومية. والخامس: الحركات الإسلامية المعاصرة. والسادس: الأصولية الإسلامية. والسابع: اليمين واليسار في الفكر الإسلامي. والثامن: اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية، وصدر عام ١٩٨٨م. طبعة أيضًا لينوتيب بالرصاص.

وهناك ثلاثة مستويات لمشروع «التراث والتجديد». أولًا: المستوى العلمي للمتخصِّصِين. وهو ما سمَّاه القدماء خاصة الخاصة والذي لا يمكن عرضه في الصحافة

---

[٢] (أ) علوم القرآن، من المحمول إلى الحامل، ٢٠٠٠م.
(ب) علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، ٢٠٠٢م.
(جـ) علوم التفسير، من التفسير الطولي إلى التفسير الموضوعي، ٢٠٠٤م.
(د) علوم السيرة، من الرسول إلى الرسالة، ٢٠٠٦م.
(هـ) علوم الفقه، من أحكام الشرع إلى أحكام الوجود، ٢٠٠٨م.

وأجهزة الإعلام التي تبغي الإثارة، المدح أو القدح، وقد يصل الأمر إلى التكفير والاغتيال، ولا يُناقَش إلا في الجامعات والمراكز والمعاهد المتخصصة. والثاني: المستوى الفلسفي والثقافي للفلاسفة والمُثَقِّفين من أجل نشر الوعي الفلسفي وبيان أَثَر المشروع في الثقافة. والثالث: المستوى السياسي الشعبي للعامة الذي يُحوِّل المشروع إلى ثقافةٍ شعبية سياسية؛ فلا يجوز الخلط بين هذه المستويات الثلاثة. والحفاظ على كل مُستوًى لأهله.[٣]

---

[٣] **أولًا**: المستوى العلمي:

(١) التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، ١٩٨١م.
(٢) من العقيدة إلى الثورة (خمسة أجزاء)، ١٩٨٧م.
(٣) من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء)، ٢٠٠٢م.
(٤) من النص إلى الواقع (جزءان)، ٢٠٠٤م.
(٥) من الفَناء إلى البَقاء (جزءان)، ٢٠٠٦م.
(٦) من النقل إلى العقل (خمسة أجزاء)، ٢٠٠٦–٢٠١٦م.
(٧) مقدمة في علم الاستغراب، ١٩٨٢م.
(٨) من النص إلى الواقع، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ٢٠١٨م.

ثانيًا: المستوى الفلسفي الثقافي:

(١) قضايا معاصرة (جزءان) ١٩٧٦–١٩٧٧م.
(٢) هموم الفكر والوطن (جزءان)، ١٩٨٠م.
(٣) حصار الزمن (ثلاثة أجزاء)، ٢٠٠٠م.
(٤) دراسات فلسفية، ١٩٨٥م.
(٥) دراسات إسلامية، ١٩٨٢م.
(٦) جمال الدين الأفغاني، ١٩٨٧م.

(7) Islam in the modern world (2eds).

(8) Cultures and Civilizations in conflict or dialogue.

(٩) فشته: فيلسوف المقاومة.
(١٠) أبو الحسين البصري: المعتمد في أصول الفقه (جزءان) بالاشتراك، دمشق، ١٩٦٤م.
(١١) برجسون: فيلسوف الحياة، ٢٠١٤م.
(١٢) جان بول سارتر: تعالي الأنا موجود (ترجمة)، ١٩٦٨م.
(١٣) إسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة (ترجمة)، ١٩٧٣م.

لم تُثِر أجزاء «التراث والتجديد» في علم أصول الدين أو أصول الفقه أو علوم الحكمة أو التصوف قَدْر ما أثاره «من النقل إلى العقل»؛ فقد حدث أن أقامت مؤسسة آل البيت الملكية الفكرية للفكر الإسلامي بعمان-الأردن مؤتمرها السابع عشر عن علم السيرة. وقدَّمتُ بحثًا بعنوان «السيرة بين الواقع والخيال». ووصفتُ مراحل كتابة السيرة من المرحلة الأولى، مرحلة المغازي، إلى الثانية مرحلة الشمائل إلى الثالثة مرحلة التعظيم والتبجيل مما يصل إلى درجة التأليه، والرابعة مرحلة القراءة؛ فكل عصر له احتياجاته في السيرة. وهي دراسة لتطبيق الرواية، وليس لشخص الرسول، في حين أن كل الأوراق تقريبًا كانت حول شخص الرسول وطاعته، فتصور العلماء الأجلاء أنني أطعن في الرسول، ومما يدل على ذلك عدم ذكري «ﷺ» أو «عليه الصلاة والسلام». وشَرحتُ أن الأمر يتعلق بالرواية وليس بمضمونها كما هو الحال في علم أصول النقد التاريخي للكتب المقدسة؛ فماذا سيحدث إذن في الجزء الخامس عن «الفقه»، وهو يُحاوِل وضعه في إطاره الزمني وفي مرحلته التاريخية من أجل التحوُّل من فقه الأحكام إلى فقه الوجود؟ وعَرضتُ الأمر على دُورِ نَشرٍ أخرى فطَلَبَت مني المساهمة في ثمن الورق فوافقت. وعلى هذا النحو نُشر «الواقع العربي المعاصر»، ثم رد إليَّ ما اقَترضَته ليس بعد عام كما وَعدَت بل بعد أربعةِ أعوامٍ مع بعض الحقوق. ولما عَرضتُ باقي أجزاء «من النقل إلى العقل» على صاحب الدار طالب بدفع كافة التكاليف، عشرون ألف جنيهٍ مصري لكل جزء. ولا

---

(١٤) هيجل والهيجليون الشبان (اليسار الهيجلي)، ٢٠١٩م.
(١٥) شخصيات وآراء، ٢٠١٨م.

ثالثًا: المستوى السياسي:
(١) الدين والثورة في مصر (ثمانية أجزاء)، ١٩٨٧م.
(٢) وطن بلا صاحب، عرب هذا الزمان، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، ٢٠١٢م.
(٣) من منهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
(٤) جذور التسلط وآفاق الحرية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
(٥) نظرية الدوائر الثلاث (جزءان)، دار عين، ٢٠٠٨م.
(٦) الواقع العربي المعاصر، دار عين، ٢٠١٠م.
(٥) الثورة المصرية في عامها الأول، ٢٠١٢م.
(٦) الثورة المصرية في أعوامها الخمسة الأولى (٢٠١١–٢٠١٦م)، ٢٠١٦م.
(٧) ذكريات (١٩٣٥–٢٠١٨م)، ٢٠١٨م.

يرد منها شيء إلا ٣٣٪، وبالمثل الموزع ٣٣٪ والناشر ٣٣٪. والبعض رفض النشر لأن سوق الكتاب واقفٌ ولا يستعيد الناشر حتى تكاليفه. فكيف يربح؟! وأخيرًا بدلًا من أن أُلفَّ على الناشرِين كالشحَّاذ قرَّرتُ طباعة الجزأَين الأخيرَين على نفقَتي الخاصة، وتركتُ قضية التوزيع للمستقبل، وربما ما بقي من مُؤلَّفاتي سأطبعها على نفقتي الخاصة «الثورة المصرية في أعوامها الخمسة الأولى»، «ذكريات» و«هيجل والهيجليون الشبان أو اليسار الهيجلي»، ثم أَنشغِلُ بعد ذلك بإعادة طباعة ما نَفِد من مُؤلَّفاتي الأُولى. اقترح أحد الأصدقاء المقربين: لماذا لا أنشئ دار نشر باسمي مثلًا، «دار حنفي للطباعة والنشر والتوزيع». ولكني خشيت أن أدخُل في مشاريعَ تجاريةٍ وقوانين الشركات والضرائب ومهايا الموظَّفين. إن ما يهمني طبع الكتاب وترك الباقي للتاريخ. ليتني أستطيع أن أجد ناشرًا واحدًا لجميع مُؤلَّفاتي يقصدها الناس كما وجد الجابري «مركز دراسات الوحدة العربية» ببيروت، ينشر كتبه ويُوزِّعها، ويحفظ له حقوقه في حياته وبعد مماته؛ فقد لاقيتُ الأَمرَّين عند الناشرِين. بدأت ببيروت[٤] وهي شيعية الهوى، ثم توقَّفَتِ الدار عن النشر بعد الجزء الأول «علوم القرآن، من المحمول إلى الحامل». وصادفَني صاحبها الذي هُدِمَت دار نشره في حرب ٢٠٠٦م بين حزب الله وإسرائيل، وعَرَّفَني بالسيد حسين فضل الله، وهو المؤسس الفعلي لحزب الله والذي أهداني بعض مُؤلَّفاته، ورأيتُ أن موضوعاته عن الطاقة والحركة والقوة تشبه أفكاري الأُولى وأنا أضع خطة رسالتي للدكتوراه، الصورة الاستاتيكية، التصوُّر والنظام، والصورة الديناميكية، الطاقة والحركة، وهو ما سمَّيتُه يومئذ «المنهاج الإسلامي العام». وهو نوع العنوان تقريبًا لكُتيِّب لأبي الأعلى المودودي، ثم غيَّرته إلى «مناهج التفسير في علم أصول الفقه». وظَنتُ أننا سنبقى أصدقاء إلى الأبد، صاحب دار النشر وأنا، ثم توقَّف بعد الجزء الأول «علوم القرآن» لأنه فيما يبدو لا يعبِّر عن عقائد الشيعة في الإسلام، ثم توجَّهتُ إلى الهيئة العامة للكتاب التابعة لوزارة الثقافة في عهد محمود الشنيطي مؤسِّسها والتي طَبعَت لي عملي الثاني وهو ترجمتي لإسبينوزا «رسالة في اللاهوت والسياسة» والذي راجعه فؤاد زكريا. وقد كان عملي الأول ١٩٦٨م «نماذج في الفلسفة المسيحية» (أوغسطين، أنسليم، توما الأكويني) بمساعدة علي سامي النشار في «دار الكتب الجامعية» بالإسكندرية. وبعد طول انتظار، طَبعَت

[٤] وهي دار الأمير.

الهيئة العامة للكتاب ضمن مؤلَّفاتي الكاملة الجزء الأول «علوم القرآن، من الحامل إلى المحمول»، والجزء الثاني «علم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن»، والجزء الثالث «علوم السيرة من الرسول إلى الرسالة»، ثم توقَّفت، ربما خشِيَت من الجزأَين الأخيرَين «علم التفسير»، و«علم الفقه». ولكي أُشجِّع الهيئة تنازلتُ عن كل حقوقي بشرط إصدار كتابٍ كلَّ شَهرٍ أو شهرَين، ووقَّع العقد رئيس الهيئة أحمد مجاهد. وانتظَرتُ سنتَين ولم يصدُر شيء، ربما لأسباب رقابية، فذهبتُ إلى مدبولي الابن فلم يطبع الجزء الأول «علوم القرآن». وربما خاف من العنوان بعدما حدَث للكثيرين بالاغتيال أو التقديم إلى القضاء أو مغادرة البلاد. وأنا في هذه السن المتأخرة، أربعٍ وثمانين عامًا، لا أتَحمَّل هذه النتائج بالرغم من أني لا آخذ أي حقوقٍ عن مُؤلَّفاتي، يكفي نشرها، وكان مدبولي الأب يقول: لماذا تريدون حقوقًا؟ نحن تجار، نستثمر مكسبنا في بناء العقارات، وأنتم مُؤلِّفون، تشتهرون وتنشُرون أفكاركم عن طريقنا، فلا تُزاحمونا في المال، ونحن لا نُزاحمكم في الشهرة. ثم أَصدَرَت الهيئة العامة للكتاب القسم الأول من «مناهج التفسير» بعد أن قرَّرَت طَبْعه في قسمَين لِكِبَره وصعوبة تغليفه، وإلى الآن لم يصدر شيء، وتأخَّرَت سنوات، وكانت الحُجَّة أنني ذكرتُ سيد قطب في كتابه الأخير «معالم في الطريق» الذي كتبه تحت آثار التعذيب وتكفير النظم السياسية، والقول بالحاكمية مع أنه الشاعر في «الشاطئ المجهول» والقصَّاص في «أشواك» و«طفل من القرية». والناقد الأدبي في «النقد الأدبي، أصوله ومناهجه»، و«التصوير الفني في القرآن الكريم» و«مشاهد القيامة في القرآن الكريم» وسبق ذلك كله «الإسلام حركة إبداعية في الفن والحياة». والاشتراكي في «العدالة الاجتماعية في الإسلام» و«الصراع بين الرأسمالية والإسلام»، ثم المُفكِّر الإسلامي في «المستقبل لهذا الدين» و«خصائص التصوُّر الإسلامي ومقوماته».

ويمكن تصنيفهم إلى أنواعٍ طبقًا لدرجة صدقهم؛ فهناك الصدق المطلق مثل الهيئة العامة للكتاب ولكن تتأخر في الطباعة عدة سنوات قد تصل إلى خمس سنوات لأنها هيئةٌ حكومية. ومنها بعض دُور النشر في جيل الآباء المؤسِّسِين مثل الأنجلو المصرية قبل أن تتَحوَّل مثل باقي الناشِرين. ومثل دار غريب التي أسَّسها الأب فكان له طموح اللجنة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وما إن تُوفي حتى اختلف الأبناء على الإرث، فتفرَّقوا، ولم يحافظ أَحدٌ على تُراث الأب، وأَسَّس أحدهم الشركة المصرية السعودية. ودار الطليعة في بيروت التي حاسَبَتني بالجنيه المصري بدلًا من الدولار عندما انخفض الجنيه وارتفع الدولار. وثانيًا هناك الكذب المُطلَق الذي أخذ الكتب ولم يُعطِ

الحقوق، دار التنوير التي نشأت في ١٩٨٢م ببيروت، أسَّسها أحد تلاميذي السوريِّين بلبنان. وطبع كتبي الأُولى ووزَّعها، وتَوسَّع في توزيعها، وأقام الصفقات، وطبع بعض مُؤلَّفاتي مثل «من العقيدة للثورة» في بيروت بالتعاون مع المركز الثقافي العربي المغربي اللبناني، المركز يقوم بالطباعة، وهو يدفع حقوق المُؤلِّف، رأيتُه عدة مرَّاتٍ في بيروت والقاهرة، واختفى. وسمِعتُ أنه نصَب على غيرِه من الناشرِين، وظل يهرب حتى سمعتُ أخيرًا أنه قضى نَحبه. ومثل دار ماي اللبنانية الليبية، وطبع لي «محمد إقبال» و«من الفَناء إلى البَقَاء» و«من النص إلى الواقع»، وأعطاني حقي في الكتاب الأول ثم اختفى بالكتابَين الأخيرين، وطباعته الفاخرة يبيعها في الخليج. وقَد أخذتُ منه وعدًا بطباعة كتبي طبعةً شعبيةً لِفقراء العرب، وتحجج بأنني طبعتُ الكتابَين طبعةً مصرية رخيصة تُوزَّع في الوطن العربي، فغرقت السوق. وأخيرًا قرَّرتُ الطباعة على نفقتي الخاصة، الجزأين الأخيرَين: من «النقل إلى العقل: مناهج التفسير، من التفسير الطولي إلى التفسير الموضوعي»، و«علوم الفقه: من أحكام الفقه إلى أحكام الوجود» ثم «الثورة المصرية في أعوامها الخمسة الأولى» ثم «التفسير الموضوعي للقرآن الكريم». وأنا الآن أُفكِّر في طباعة هذه «الذكريات» على نفقتي الخاصة. وهناك الصدق النسبي الذي يعطي جزءًا من الحقوق ثم يختفي.[٥] والثالث المحايد الذي لا يأخذ ولا يعطي مثل دار «الكتاب للنشر» ودار «عين». وهناك من يأخذ ولا يُعطي مثل دار «الكتاب المصري» الذي أخذ كل ما لديَّ من مُؤلَّفات من دار «غريب للتوزيع»، وبعد أن أَعلَن صداقته لي، وأنه يُريد أن يكون ناشِرِي ومُوزِّعِي مثل «مركز دراسات الوحدة العربية» ببيروت وتعاقُده مع الجابري ليكون ناشره ومُوزِّعه والمُحافِظ على حقوقه. وهناك دُور نشرٍ صادقةٌ في سوريا حمَى الله شعبها وخلَّصها من حكامها الظالِمين وقادتها المُنتخَبِين. أمَّا المغرب فقد نَشَر «حوار المشرق والمغرب»، وتونس «التراث والتجديد» ولم آخذ حقوقًا نظرًا لاعتزازي بثقافتهم وتقديري لمُثقَّفِيهم.

وكما تعِبتُ مع الناشرِين تعِبتُ مع السكرتارية التي تُساعِد في المنزل؛ فقد أتت سكرتيرة من دار قباء تعمل وقتًا إضافيًّا عندي على نفقتي الخاصة، وكانت مُدَّعِية الإسلام، وتتظاهر بأشكاله وعباراته النمطية في الصلاة والسلام على الرسول، واقتَرضَت

[٥] مثل دار رؤية.

مبلغًا من المال تعمل به، ثم لم أَرَها بعد ذلك، بل إنها أَخذَت الكومبيوتر الخاص بي للعمل في المنزل اختصارًا للوقت، ولم تَعُد. وتكرَّرَت الواقعة مع العديد من السكرتارية الآخرين، يقترضون المال للعمل به، ثم لا يعودون. وآخر يعمل لحسابه الخاص حتى استهلك ما لديَّ من إنترنت مُدَّعيًا أنه يقوم بما كلَّفتُه به من أعمال. وكلٌّ له دينه، ولا فرق في النصب والاحتيال بين دينٍ وآخر؛ فالأخلاق تجمعهم. ومنهم من اقترض آلاف الجنيهات واختفى. وعلِمتُ أنه كان يسرق قِطَع الكومبيوتر من مركز الدراسات الاجتماعية مما اضطَرَّ مُديرَه إلى ترقيمها. كما علِمتُ ممن يليه أنه أُصيب بفشلٍ كُلوي، وأنهم يجمعون له المال في القصر العيني، ثم اقترض من أتى بعده بحُجَّة أنه صعيديٌّ أمين، ثم اختفى. وكنتُ أحمِل لهم بنفسي الإفطار في رمضان، فكان يأتي بعد عمله، ويصِل قبل الإفطار، ويُفطِر ثم يعمل لمدة ساعة ثم يغادر نظرًا لزحام المواصلات. وسمِعتُ أنه ضرب امرأته وطردها من المنزل. وكنتُ أُعطِيهم جميعًا العيديات والمكافآت في المناسبات.

وباستثناء اثنَين، بقي أحدهما معي ما يفوق العشر سنوات، مثال في الأمانة والصدق والإخلاص وهو شريف صبري، وما زال يُمثل ذراعي الأيمن، هو الذي يَرُد على المراسلات، ويكتب الخطابات. ويُعِد أوراق الدعوات للمؤتمرات، بالإضافة إلى الأبحاث والأوراق المُقدَّمة في الندوات. وما تَبقَّى له من وقتٍ يُساعِدني في كتابة الأبواب والفصول للمُؤلَّفات. والثاني محمد فاروق مثال آخر في الصدق والأمانة والولاء بالرغم من صعوبة وضعه المالي الاجتماعي. بدأ كل يومٍ بعد الظهر، ولَمَّا مرِض عمِل ثلاثة أيام. ولما أُرهق عمِل يومَين في الأسبوع، ويُحدِّد بنفسه حقه آخر الشهر، يكتب أيضًا الأبواب والفصول لمُؤلَّفاتي، ويُراعي المكتبة، ويُسجِّل ما يأخذه الناشِرُون. وما زِلتُ أبحَث عن ثالثٍ لِطباعةِ «ذكريات» الذي انتَهيتُ منه هذا الأسبوع، وقد تكون ابنتي. ثم وَجَدتُ أخيرًا شريف سعد، وقد كنتُ مشرفًا وعضوًا في مناقشة رسالته للماجستير، وهو أيضًا مثال الكفاءة والأمانة، بالإضافة إلى ثقافته الفلسفية. وأرجو أن يظل الشريفان، صبري وسعد معي حتى أُغادر هذا العالم، أُمناءَ على مكتبتي واستمرارًا في الرد على المُراسَلات التي تأتيني، واستقبال الزيارات التي تأتيني، وتصوير النصوص التي يشاؤها الطلاب. وجميعهم يدخلون المنزل ويخرجون بمفاتيحَ خاصةٍ بهم، أستأمنهم في كل شيءٍ في حياتي العامة والخاصة.

وكان الخاسر الأكبر في هذه الرحلة الطويلة هو الجسد؛ فقد بدأ الوهن يَدِب فيه: عملية القلب المفتوح لتغيير أربعة شرايين بعد أن اكتَشفَت ابنة أختي د. داليا عندما رأَت وجهيَ أصفرَ في زيارةٍ لأخي سيد، وأَخذَتني عَنوةً على القصر العيني، وقرَّروا إجراء العملية فورًا، ولم يشأ الجراح أن يقوم بها في القصر العيني حيث يعمل بل في مستشفى السلام الدولي، أَوَّل طريق المعادي، ثم أَجريتُ عمليةً جراحية أخرى لاستئصال المرارة خوفًا من تجمُّع حصاوي فيها، كما أَجريتُ عملية البروستاتا خوفًا من كِبَرها في المستقبل. وأجريتُ عملية العمود الفقري بعد أن تداخَلَت الفقرة الرابعة والثالثة معًا في انزلاق غضروفي. ولَّما وقَعتُ في المنزل وأنا خارج من الحمام وانكسر فخذ الرِّجل اليمنى المرتبط بالحوض غيَّرته بمفصلٍ حديدي، وبعدها لم أستطع السير بسهولة. ولَّما تعِب البصر من كثرة إجهاده أَجريتُ عمليات الماء الزرقاء والماء البيضاء. ولَّما لم يتحسن البصر حُقِنتُ ثلاثَ مراتٍ في العين. ولَّما لم يتحسن البصر كثيرًا أجريتُ عملية في العينَين بالليزر. ولم يتحسن البصر حتى الآن؛ فالعصب قد ضعُف بسبب السكر، ولا حل لذلك إلا القطرات طول العمر حتى لا يضعُف أكثر. ولَبِستُ نظارةً ميكروسوبيةً لتكبير الحروف، مُستورَدةً من ألمانيا، ولكنْ عيناي كانت تدمعان، ثم وضعتُ عدسةً مُكبِّرة على الصفحة ولكن الأمل ضعيف في أن أرى بسهولة ويسر، وأنا الآن لا أرى الألوان، كل شيءٍ أبيض وأسود أمامي، ولا أتحمل ضوء الشمس، ولا أَتعرَّف على من يأتيني للتحية، كما أنني أجلس على كرسيٍّ متحرك في الذهاب وفي الإياب. ويُرافقني مُمرِّضٌ قدير أطال الله في عمره، محمود محمد الدهروطي، ثقافته العامة والفنية واسعة، ضحوكًا، قادرًا على القيام بكل ما يُطلب منه في شئون المنزل، يُوفِّر لي كل وسائل الراحة أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا، بل إنه يصاحبني في الحل والترحال مثل أبو ظبي وعمان والسودان وتونس وتركيا، في المنزل والجامعة، وزوجته وأولاده في بني مزار بمحافظة المنيا، والتي منها مصطفى عبد الرازق. يذهب إليهم كل شهرٍ مرة. ويأتي بديلٌ له ليس له نفس القدرات، ويصعُب عليه أن يتعوَّد عليَّ في عدة أيام، وهذا جزاءُ من يجلس على كرسي متحرك.

وأصبَحَت زوجتي وأنا من كبار السن، لا يستطيع كلٌّ منا أن يقوم بشئون نفسه؛ فلا أنا أستطيع الحركة بعد الوقوع على الأرض، ولم تعَد هي قادرة على القيام بشئون المنزل، وفي حاجة إلى من يساعدها. وقد عانينا الأَمرَّين مع الشغالات؛ فالمصرية تسرق حتى ولو كانت كفؤًا، والنيجيرية تصر على أخذ أجرها بالدولار بعد ارتفاعه، والسودانية أفضلهن، ومع ذلك لا يُوجد منهن أحدٌ خاليًا من العيوب. فالكُل بشر مع

أننا نقف بجوارهن دائمًا في حالة الاحتياج. جاءت إحداهن معي إلى البنك وأنا أسحب بعض المال من حسابي، واستكثَرتِ المبلغ مع أني أصرف حوالي خمسة عشر ألفًا من الجنيهات، مرتباتٍ شهرية، المرافِقين والسكرتيرين والبواب وصيانة المصعد والكهرباء والمياه والأدوية، والغذاء آخرها وأقلُّها كلفة، فأخبرتني أن أُمها بالمستشفى تُجري عملية في المخ، وبأن المطلوب منها ثلاثون ألفًا من الجنيهات، وإلا تقضي نحبها، فتأثَّرتُ، وأعطيتُها ما طَلَبَت، وكتبت على نفسها وصل أمانة، فقطَّعتُه أمامها، كما فعل نجيب الريحاني مع تحية كاريوكا في «لعبة الست»؛ فالعمل الإنساني لا يحتاج إلى أوراق. وكنتُ قد ركبتُ في أسنانها طاقمًا لأنها يبدو أنها ضُرِبت عند من كانت تعمل عنده قبلي، ثم ضُبطت وهي تبيع مسروقاتٍ شرقية في خان الخليلي. فقَبضَت عليها الشرطة التي اتصلَت بي كضامن لها فرفَضت. وقُدمَت للمحاكمة، ولا أدري كم شهرًا سجنًا كان الحكم. والثانية كانت مرحةً تعتبر نفسها من أهل البيت، تجلس معنا وتسافر معنا. ومرةً أخبرتني أن سقف غرفتها فوق السطح قد وقع، وهي في العراء، وأن ثلاجتها قد توقَّفَت عن العمل، وهناك تخفيضٌ لا يُعوَّض لشراء ثلاجةٍ جديدة، فأعطيتُها ما أرادت، ثم سَرقَت أموالًا من درج مكتبي، آلاف الجنيهات، ثم غادَرَت، ولم ترجع، وغيَّرت أرقام تليفوناتها. وثالثة كانت تسرق من المطبخ ما تشاء من أوانيه، ثم اختفت فجأة، وعلِمتُ أنها هاجَرت إلى أمريكا، وتزوَّجَت أمريكيًّا رأسماليًّا أقام لها مصنع مشغولاتٍ شرقية، وأنها أصبَحَت من الرأسماليِّين. ورابعة كان يأتيها زوجها في الصباح الباكر، وتُسلِّم له ما تستطيع من أواني المطبخ من الشباك، ونحن في الدور الأرضي. القصص كثيرة، ولا أدري ما السبب، الأخلاق كما يُقال أم الفقر؟ لا يعني ذلك أنني لم أعرفِ الأمينات؛ فقد عَرفتُ بعضهن منذ ثلاثين عامًا في شقتي القديمة: قبطية، تعمل هي وابنتها، وتجلس بعد أن تُنهي العمل في انتظار عودتنا من العمل، صامتة لا تتكلم، كَفوءٌ وأمينةٌ في عملها. فهل تغير الزمن؟

ولَّما كنتُ لا أستطيع قيادة السيارة فلزِمني سائقٌ كان يعمل لابني حاتم وزوجته وأولاده وأصدقائه. ولَّما غادرَتِ الأُسرة استعملتُه أنا، وكنتُ كريمًا معه. وفي يومٍ طلَب أن أُقرِضه ستة آلاف جنيه لحاجته الماسَّة لها، ويَرُدها كل شهرٍ ألفًا، ففَعلتُ لأني لم أَرَ منه شيئًا قبيحًا، وكان في كل مرة أحتاج شيئًا يُحضره لي وأكافئه الضعف، ورَدَّ ثلاثةَ أشهرٍ متتالية، وفي الشهر الرابع قال لي: هل تصبر عليَّ هذا الشهر؟ ففعلتُ. وحتى أُسهِّل عليه رد المبلغ المتبقِّي، وهو حوالي النصف، طلبتُ منه أن يعمل به، في كل مرة يوصلني إلى

الجامعة أو إلى الجمعية الفلسفية المصرية أَخصِم الأجر سدادًا لما عليه من دَين، واعتَرَضَ على ذلك، كيف يعود إلى أُسرته مساءً وجيوبه فارغة؟ ولَّما رأيتُ كثرةَ التلاعُب منه أوقفتُ التعامل معه، ولم يرُدَّ باقي السلفة حتى الآن.

أمَّا البوَّابون فكان جميعهم من الصعيد، وكانت الوظيفة بالنسبة للبوَّاب مُجرد مَظهر، كان يُنظِّف عربات سكان المنازل، ويقضي حاجاتهم من الأسواق، فيأخذ ضعف المرتب أو الثلاثة أضعاف، وكانت زوجاتهم تعملن عند السكان في النظافة. يأخذ أَحدُهم أَجْر الجرائد الأسبوعية، ولا يُسلِّمها لصاحب الكشك حتى أتى يشتكي أن عليَّ ديونَ شهرَين! وسَرق سيراميكًا من تحت السلم، وكان يقترض ثم يقترض على الاقتراض، ثم عمِل عند غيري لمدة شهر سايسَ عَربات، ثُم غادَر إلى بلدة سوهاج.

وبائع الجرائد الذي كان يفرِشها على الرصيف في كل مناسبةٍ يأتي لطلب الإكرامية، وليس فقط العيدَين، ويُضيف نصف شعبان، ليلة القدر، أول السنة الهجرية، عيد ميلاد المسيح. طلَب سُلفةً ثم سلفة يدفعها من ثمن الجرائد الأسبوعية، وغالَطَ في الحساب أكثر من مرة، فغيَّرتُه إلى آخرَ أكثرَ أمانة، وأكثر تعليمًا. وكان يأتي عمال النظافة والصرف الصحي لطلب مبالغَ كبيرةٍ لِيُزوِّجوا أولادهم وبناتهم، ثم عَرفتُ أنهم كاذبون. فهل هو الفقر؟

ومرةً أخرى سمعتُ عن طبيبٍ يذهب إلى كبار السن في منازلهم ويكشف عليهم ويُعالجهم بخمسمائة جنيه للزيارة للفرد، فاستدعيتُه وأنا في المنزل، وأخذ ألف جنيه، وكَتبَ أدويةً أعرفها من قبلُ، ولم أَرَه بعد ذلك. وقال إنه يحب المال، فكنت ضحيةً عدة مرات، واعتبرتُ ذلك من جانب التعلُّم.

وكما تحكي القصص والروايات عن العلاقة المتميزة بين الطالبة والأستاذ، وكما هو الحال في فيلم «غزل البنات»، بين ليلى مراد ونجيب الريحاني، كانت هناك طالبةٌ شقراءُ تدور حولي منذ السنة الثالثة، لم تُظهِر عِلمًا، ولم تسأل سؤالًا، وفي الدراسات العليا ظلَّت صامتة، وظلَّت تُلاحقني في كل خطوة بالمشروب البارد أو الشيكولاتة حتى في معرض الكتاب. ولم ينقطع تليفونها يوميًّا حتى تساءَلَت زوجتي: ما الخبر؟ وسجَّلَت معي رسالة عن «الزمان والسرد عند بول ريكير»، وهو موضوعٌ صعب. وفي إحدى رحلاتي إلى الخارج أحضرتُ لها ترجمةً إنجليزية للكتاب موضوع الرسالة، وبعد مدة جاءتني برسالةٍ كلها شرح Paraphrase للكتاب. استَغرَبت! كيف عَرفَت ذلك كله؟ ومتى قرأَت؟ ومتى فكَّرَت؟ يبدو أن أحد الزملاء قد قام بذلك نيابةً عنها وأعطته بعض

المال، وربما قام بذلك مكتبٌ من مكاتب بين السرايات المُتخصِّص في كتابة الرسائل نظيرَ كثيرٍ من المال. وظلَّت تُعطيني هدايا، دبوسَ ذهب لا أعرف أين هو الآن، ورابطةَ عنق. ولَمَّا رأيتُها مرتبطةً بي إلى هذا الحد أعطيتُها صوري في ماليزيا وإندونيسيا مع الطلبة، وصورًا أخرى لا أَذكُرها، واشتريتُ ألبومين، وطلبتُ منها أن تُرتِّب هذه الصور بالمئات في هذَين الألبومَين، فأخذَتهما مع كيس الصُّور وعينيها تَبرقان. لم أفهم ذلك إلا بعد أن سألَتني: متى ستأتي إلى المنزل؟ لم أفهم القصد إلا مؤخَّرًا؛ أي متى تطلبني من أبي؟ وكان أخوها نجمًا في الحزب الوطني، ويتطلع إلى المزيد. أحضر إليَّ صناديقَ من المانجو رصَّها في عربتي، لا أذكر كم صندوقًا، فظَننتُ أن الأسرة كريمة ومضيافة، ولها مَزارِع في الفيوم. وكانت الطالبة تسألني عن خطَّابها، المهندس وغيره، وأنا أنصحها بألا تقبل إلا المُثقَّف الذي يفهم طبيعة عملها في الدراسات العليا. وبعد ذلك سمِعتُ أنها ذَهبَت إلى قِسم الفلسفة مُتنازِلةً عن الرسالة، وتشتكي من الأساتذة الذين يغرون الطالبات، وغيَّرتِ الطالبة رقم تليفونها، ولم أَرَها حتى الآن. ولَمَّا كنتُ حريصًا على صوري التذكارية طَلَبَت زوجتي من والدتها أن تُرجِع ابنتها صور الأستاذ، فإذا بالأم تطلب أن أدفع عشرة آلاف جنيه تكاليف مصاريفها في الدراسات العليا! وكادت زوجتي أن تَسُبَّها. يبدو أن التخطيط كان بين الطالبة وأمها على أن تستدرجني للزواج، وأنا قاربتُ الثمانين، والطالبة في العشرينيات، وعيناها على البيت العربي الذي بنيتُه خمسة أدوار لأولادي الثلاثة ودَور للسكن ودَور كمركز للدراسات السينمائية لزوجتي والنصف الآخر للدراسات الفيدرالية لابني الكبير حازم، وهو تخصُّصه في الماجستير. وسأكتُب في وصيَّتي رجاءً لها أن تُعيد الصور وأَضعها في مكتبتي لأنني سأُحوِّلها ربما إلى متحفٍ للزيارة وقد سمَّيتُها «المكتبة الفلسفية المتخصصة».

ووسَط هذا الهدوء وهذا السكون السياسي انهار برجان بنيويورك بفعل طائرةٍ اصطَدمَت بهما. وسقط رمزان من رموز الإمبراطورية الأمريكية، وهما ناطحتا سحاب، وانهار البناءان، وتصاعد الدخان والأتربة. وبَدأَت أصابع الاتهام تُوجَّه إلى القاعدة وبن لادن الذي اغتالَته الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات، وألقت بجثته في المحيط حتى لا يُعرف له أَثَر، وبَدأَت تُفكِّر في الانتقام لنفسها لاسترداد هيبتها، فوَجَدَت حُجَّتها في حصول العراق على السلاح النووي، وهذا ضد قرارات الأمم المتحدة. وبدأ العدوان ٢٠٠٣م من الجنوب والشمال والوسط بالبوارج الحربية والقوات الأرضية بمساعدة المياه الإقليمية لبعض الدول العربية، والقوات الجوية، بحُجة البحث عن أسلحة الدمار

الشامل، واحتُلَّت العراق كلها، واستُشهِد الآلاف. وتم البحث عن صَدَّام فوجدوه في مغارة تحت الأرض، وعقَدوا له محاكمةً صورية، يُعرف حكمها قبل أن تبدأ. ووقَف صدام في المحاكمة مُتحديًا قضاته إلى أن حكَموا بالإعدام شنقًا، ونُفذ الحكم في وقفة عيد الأضحى، وكأنه ضحية، يدفع العرب ثمنها من الإهانة والتحقير. وكان صدام قد اعتدى على إيران بدعوى تحرير الأهواز حيث تقطن أغلبيةٌ عربية كما يقطن في شرق الخليج خاصة في البحرين أغلبيةٌ شيعية، وضحَّى بالآلاف، ولم ينضم عرب الأهواز إلى العراق بل ظلُّوا على هُويتهم الإيرانية، ثم اعتدى صدام على الكويت بدعوى ضم المناطق البترولية التي عليها خلاف، ودخل الكويت لعدة أشهر سالبًا ناهبًا.

وانتفَضَت الجامعات ضد العدوان الأمريكي على العراق، واستمرَّت عدة أسابيع حتى توقف العدوان. وبدأت الحركات الوطنية تطالب بانسحابِ المعتدي، وحكم العراق أمريكي واستولى على أموال النفط، وترك وراءه حكومةً تابعةً للولايات المتحدة الأمريكية. وأثار العُدوان ضَجَّة، وترَكَت مِصرُ العراق دون أن تتحرك، وإذا تحركت ففي الاتجاه المُضاد، استعمال مياهها الإقليمية لمساعدة القوات الأمريكية في إطلاق صواريخها على جنوب العراق. وظهر مُخطَّط تقسيم العراق إلى ثلاث دول: شيعية في الجنوب وعاصمتها كربلاء، المدينة المقدسة. ووسطها السنة وعاصمتُها بغداد، عاصمة العباسيِّين. وشمالها الأكراد وعاصمتها كركوك. وتدَخَّلت إيران بقواتها لمناصرة شيعة العراق، وبدأ تنفيذ مخطط التفتيت في المنطقة، والقضاء على الدول الوطنية وتحويلها إلى دويلات طائفية؛ سنة وشيعة، وعرقية؛ عرب وأكراد، بداية بالعراق، ولا نهاية له إلا في مصر التي استعصت على التفتيت نظرًا لوحدتها منذ الملك مينا مُوحِّد القُطرَين، الشمال والجنوب حتى الملك فاروق، ملك مصر والسودان، وقول النحاس باشا: تُقطَع يدي ولا أفصل مصر عن السودان، حتى عبد الناصر، زعيم القومية العربية.

ثم ظَهرَت بارقة أملٍ عندما نَشِبَت حربٌ بين حزب الله وإسرائيل عام ٢٠٠٦م، وطالت صواريخ حزب الله تل أبيب وبعض المدن الإسرائيلية الأخرى، ورُفعت صور جمال عبد الناصر بجوار صور حسن نصر الله. وأيقظَت الحرب في العرب روح النصر وإمكانياته وتكرار حرب ١٩٧٣م من جديد، بين حزبٍ ثوري ودولةٍ مغتصبة أرض العرب، ثم غيَّر حزب الله وجهه بانضمامه إلى الأسد ضد الثورة الشعبية السورية في ٢٠١١م بالربيع العربي. وانضَمَّت إليه إيران التي كانت أَوَّل من أشعل الثورات في المنطقة في فبراير ١٩٧٩م، انضمامًا إلى الحكم الطائفي العلوي؛ فكان لحزب الله وجهان. الأول ثوريٌّ ناصري ظهر في ٢٠٠٦م، ووجه طائفيٌّ علوي ظهر في ٢٠١١م.

وهدأت الأمور من جديد، وظل السؤال يدور في ذهن الجميع: إلى متى يبقى هذا النظام في سوريا ومصر؟ وقد بقي حوالي ثلاثين عامًا وما زال يُريد أن يستمر، إمَّا عن طريق الأب أو عن طريق الابن عن طريق التوريث، ولا الجيش ولا الشعب قابل له. وبدأت الروايات عن نهب أموال مصر من الرئيس ونجلَيه بل وامرأته وصحبه، وتهريبها إلى الخارج بالمليارات. وكما كان الشعار في الجمهورية الثانية التي انقلَبَت على الناصرية «الرأسمالية ليست جريمة» أصبح الشعار «الفساد ليس جريمة». وكما قال الشاعر:

إِذَا كَان رَبُّ البَيت بِالدُّفِّ ضَارِبًا فشِيمَة أَهْلِ البَيتِ كلِّهم الرَّقصُ

وانتَشَرَت الرشوة والفساد في مؤسَّسات الدولة والمصالح الحكومية لقضاء أيِّ مصلحة خاصَّة. وما زالت قضايا الحريات مثارة، وأهمها استشهاد خالد سعيد الذي قتلَته المخابرات، وهو يُشبه بو عزيزي البائع المتجول الذي كان يسعى إلى قوته اليومي فصَفعَته شرطية على وجهه ليفسح الطريق لأصحاب العربات فكان الشرارة التي أوقدَت الثورة التونسية التي كانت الشرارة التي انطلقت منها ثورات الربيع العربي في مصر وسوريا والعراق وليبيا واليمن. اختُزن خالد سعيد في قلوب المصريِّين حتى اختمر في ثقافة شعبٍ شيمته الصبر، وكما قيل له: «أنتم شعبٌ صبور.» كما كثُر الحديث عن حياة البذخ في شرم الشيخ التي يحياها الرئيس المخلوع وأسرته، والبذخ في تزيين منزل الرئيس وراء الشيراتون في الوقت الذي لا يجد فيه الفقير قوت يومه.

الفصل العاشر

الثورة المصرية، والربيع العربي (٢٠١١–٢٠١٨م)

وفجأة وبلا سابق انتظار انفجَر القِدْر بضغط البخار الصاعد منه في يناير ٢٠١١م، عيد الشرطة. وقد تطوَّرَت المظاهراتُ الشعبيةُ تدريجيًّا من عيد الشرطة إلى المطالبة بالإفراج عن المُعتقَلِين الذين احتَجَزتهم الشرطة بلا سببٍ وبلا محاكمة، ثم تعالت المطالب حتى وصلَت إلى ضرورة استقالة الرئيس الذي رفَض الاستجابة لمطالبهم أو حتى لقاء وفدٍ من المُتظاهِرين الذين كانوا يُؤلِّفون كل القوى الوطنية في البلاد. وجيء بالجِمال لِتَدهسَ المتظاهرين في ميدان التحرير بما يُسمَّى «موقعة الجمل» ومعاركَ أخرى مثل معركة «محمد محمود» وهو الشارع المجاور للجامعة الأمريكية وكذلك معركة «ماسبيرو» حول مبنى الإذاعة والتلفزيون، واستُشهِد المئات. وفي ١١ فبراير قدَّم الرئيس استقالته، وعُين عمر سليمان نائبًا له. واستَمرَّت المظاهرات تُطالِب باستقالة الرئيس بعد أن حاصَروا قصر الرئاسة، ورفض الجيش التدخُّل لصالح الرئيس لأنه كان حانقًا على التوريث، وسَلَّم السلطة إلى المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وعمَّت الفرحةُ الشعب. ونظرًا لعدم وجود قيادة للثورة الشعبية وعدم وجود تنظيمٍ لها، وإن كانت تُطالِب بمبادئ أربعة: الخبز، الحرية، العدالة الاجتماعية، الكرامة الإنسانية، ظلَّت الثورة تتأرجح بين العسكريِّين والإسلاميِّين. وبدأ الجدل حول وضع الدستور أولًا ثم الانتخابات أم الانتخابات أولًا ثم الدستور؟ تنظيم انتخابات برلمانية أولًا ثم انتخابات رئاسية، أم انتخابات رئاسية أولًا ثم انتخابات برلمانية؟ وكل هذه الدوائر المُغلَقة التي تدور حول نفسها تهدف إلى إرباك الثورة، ووُضع الدستور المؤقَّت تسير عليه البلاد ثم تُجرى

الانتخابات، وعُين رئيس المحكمة الدستورية العليا رئيسًا مؤقتًا. وأُجرِيَت الانتخابات بين: أحمد شفيق ممثل النظام السابق، محمد مرسي مرشح الإخوان، عبد المنعم أبو الفتوح «إخواني مستقل»، عمرو موسى «ناصري قومي»، حمدين صباحي «ناصري»، وأربعة آخرين، لا ذكر ولا لون لهم، ونجح المرشَّحان الأَوَّلان، ثم أُجرِيَت انتخابات الإعادة بين شفيق ومرسي. فانتخب الناس مرسي بأغلبيةٍ ضئيلة خوفًا من شفيق صديق الرئيس المخلوع وإلا فلماذا كانت الثورة؟

وبعد عامٍ تقريبًا لم يُسجَن فيه أحد، ولم تُكبت الحريات، ولكن بدأَت أخونة الدولة. وكان الرئيس الجديد يتلقَّى توجيهاته من مكتب الإرشاد للإخوان المُسلِمين. كانوا قد رفع العريان شعار «مشاركة لا مغالبة»، ولكن في الواقع مارسوا «مغالبة لا مشاركة». فبَدأَت القوى السياسية الأخرى، الليبراليون والقوميون والناصريون والماركسيون بالضجَر من هذا الحكم الفرديِّ والذي يمد يده إلى قطر وإيران وتركيا، إلى الخارج قبل الداخل، إلى المحيط قبل المركز على عكس البنية الثقافية التي تُعطي الأولوية للمركز على المحيط. وأجرِيت الانتخابات البرلمانية، فأخذ الإخوان الأغلبية، واختِير رئيس المجلس إخوانيًّا، وأظهر بعض السلوك الديمقراطي، ومنع النداء على الصلاة وضبَط الجلسات؛ فالصلاة يمكن أن تكون على التراخي وليس على الفور، قضاءً وليس أداءً؛ أي آجلًا وليس عاجلًا كما حدَّد علماء الأصول منعًا للمزايدة؛ فالمصلحة العامة مُقدَّمة على المصلحة الخاصة، ورعاية مصالح المسلمين لا تقل إيمانًا عن الصلاة. لم ترتفع الأسعار، ولم يُقبض على أحد، ومع ذلك تجمَّعَت القُوى المناهضة للإخوان بعد عامٍ واحد لعمل ثورةٍ مضادة لحكم الإسلاميِّين الذين أتَوا بالانتخاب الشعبي الحر المباشر في ٣٠ يونيو ٢٠١٣م، ثم ساندها الجيش بقيادة وزير الدفاع ورئيس المخابرات السابق. ولم يقبل الإخوان انتخابًا مبكرًا لمعرفة اختيار الشعب تمسُّكًا بالشرعية، ورفضوا إنذار الجيش، مما اضطر الجيش إلى تولي الحكم في ٣ يوليو. وقُبض بعد ذلك بأيامٍ على الرئيس، وأُودع في السجن، من القصر إلى المعتقل مع الاتهام بالتخابُر مع قطر. في حين أن الرئيس السابق عليه أُودع في جناح في المستشفى العسكري بالمعادي، وله كل الحقوق في زيارات الأُسرة والأصدقاء، وهو الآن يطالب بالعودة إلى منزله في شرم الشيخ حتى مع الإقامة الجبرية. كما قُبض على معظم أعضاء مكتب الإرشاد من أول المرشد العام حتى كبار الشخصيات في الجماعة. أُطلِقَت الاتهامات بالتكفير والعنف والاغتيالات، وطالت قوائم الممنوعين من السفر، وزادت نسبة

الهاربين إلى الخارج، وكانت تركيا هي الأقرب ثم قطر.[١] ونشأ الجدل: هل ما حدث ثورة أم انقلاب؟ وبعد أربع سنوات وتكشُّف السياسات التي اتُّبِعَت منذ ٢٠١٤م يعود السؤال مرةً أخرى: هل ما حدث انقلاب أم ثورةٌ مضادة؟ فكما كانت هناك أخونة الدولة من الإخوان كما كانت تفعل كل الأحزاب، أصبح هناك عسكرةٌ للدولة من الجيش؛ فهو الذي يقوم بحل كل الأزمات: المواد الغذائية، رصف الطرق، بناء المساكن الاجتماعية، إقامة المزارع السمكية. ويقف الضابط في حفل الافتتاح ويضرب كعبي الحذاء، ويرفع يده إلى الرأس لِيُحيِّيَ الرئيس مُعرفًا بنفسه «العقيد فلان قائد خط الجمبري»، بالإضافة إلى الأمن القومي. وأُضيف إليه القبض على المعتقلِين مثل زُوار الفجر. وأصبح الجيش أكبر شركة استثمارية في البلاد، وبدأ يقابل العنف بالعنف في سيناء. وسألت دماء المصريِّين من الطرفَين، مع أن إسرائيل احتلَّت سيناء ست سنواتٍ ولم نسمع عن قتالٍ بين بدو سيناء وجيش إسرائيل، بل استطاعت إسرائيل كسب قلوب السيناويِّين بأداء الخدمات: المستشفيات والمدارس والأندية، وتوفير المواد الغذائية اللازمة والتي تنقص الوادي؛ فهم مواطنون إسرائيليون وليسوا مُواطنِين مصريِّين. والمواطنة حيث المصلحة، والمصلحة حيث المنفعة.

وارتفَعَت الأسعار إلى أكثر من الضعف وأحيانًا الأربعة أضعاف بلا مُبررٍ معقول، كما زادت فواتير الكهرباء والغاز، وتذاكر المواصلات، والمترو قادم. وزادت نسبة الفساد ابتداءً من الوزراء وكبار المسئولين بالملايين حتى صغار الموظَّفِين بالجنيهات. وأصبح الفقير غيرَ قادر على أن يعيش حتى بالفول والطعمية. وبدأ التجار يُخبئون السكر الذي به حياة المصريِّين ليبيعوه بسعرٍ أعلى، والشعب يخطَفه من على الشاحنات. ومن ناحيةٍ أخرى يكسب كبار التجار بالتعاون مع رجال التفتيش، يرفعون الأسعار، ويكسبون الملايين. أمَّا الوزراء وكبار رجال الأعمال فيكسبون بالمليارات بطرقٍ غير شرعية. وتم سفر الفقراء على مراكبَ بحريةٍ فيغرقون، ويزداد عدد المُعتقلِين بالآلاف. وكان كل شيءٍ لا يُحل إلا بالجيش. وبدأ البحث عن التمويل شرقًا وغربًا من الأشقاء العرب والبنك الدولي. وتُركت المليارات تُنهب في الداخل، مع أنه يساوي الاقتراض من الخارج عشرات المرات، ولكن رجال الأعمال مثل رجال الأمن هم سدنة النظام. والاستقواء في الداخل

[١] د. حسن حنفي: الثورة المصرية في أعوامها الخمسة الأولى، القاهرة، ٢٠١٦م.

تعويضٌ عن الضعف في الخارج. والوطن العربي تسيل دماؤه ومصر لا تتحرك، وهي المناطق التي امتدت إليها الناصرية، سوريا والعراق شمالًا، وليبيا غربًا، واليمن جنوبًا. وتُعقد المؤتمرات من أجل تحقيق السلام في سوريا شقيقة مصر التي حمَلَت عربة عبد الناصر على الأكتاف عندما زارها، دون دعوة مصر، وكأن سوريا أقرب إلى روسيا وأمريكا وإيران وتركيا من مصر، وهي القوى التي تتحكم في مصير سوريا على الأرض، بل إن مصر تؤيِّد «الأسد إلى الأبد» دون الشعب السوري الذي ثار ضد نظام الاستبداد والظلم بدعوى الخوف على وحدة سوريا من التفتُّت، وكأن وحدة الأوطان لا تتحقق إلا بالاستبداد، وأن الديمقراطية وحكم الشعب يجلبان التفتُّت والتجزئة.[٢]

وبدأ القِدْر يغلي من جديد، ولكن لم يتصاعد البخار بعدُ، والضجر الموجود في القلب لم يَحِنْ له أن ينفجر؛ فلم يأتِ الوقتُ بعدُ، أصبح الوطن طاردًا لأبنائه. أمَّا الخصومة السياسية فلم تجد لها حق التعبير عن نفسها، وتخشى الاعتقال. والبطالة والفقر، لا حل لهما في سنوات الثورة. ولا يفي النظام بما يَعِد مثل تكوين لجنة من الشباب للإفراج عمن يستحق الإفراج من السجون. وهل الحرية منتقاةٌ للبعض دون البعض الآخر؟ وربما هو كلامٌ في كلام. وفي الواقع يزداد عدد المعتقلِين، ويزداد بناء السجون مثل الإسكان الشعبي. ووزارة الداخلية تُصرح بأنها لم تتلق أي طلبٍ للإفراج عن المعتقلِين أو على الأقل إعداد قائمةٍ بمن يستحق الإفراج باسم الشباب ومن لا يستحق. ومرةً ثانية يتم الاجتماع مع تنظيمات حقوق المرأة، والوعد بتحقيق ما تبقَّى منها ولم يحدث شيء. ومرةً ثالثة الاجتماع مع المعاقِين، والوعد بتسهيل حياتهم المعيشية، ولم يحدث شيء. في حين أن عبد الناصر بعد الثورة بسبعة أسابيع أصدر قانون الإصلاح الزراعي لتمليك الأرض للفلاح، وتوزيع أراضي الملك والباشوات على فلاحيهم في الأرض، بدلًا من العمل فيها كعبيد، وأقام محاكم الثورة، فأَصدرَت أحكامها على رجال العهد البائد، ولم ينتظر سنينَ طويلة، والمُثار ضدهم يعيشون في أجنحة في مستشفى المعادي أو في قصورهم سنوات وسنوات قبل أن يبرئهم القضاء كما حدث بعد ذلك.

وكان مصير الثورة العربية في تونس وسوريا والعراق وليبيا واليمن ليس بأفضل حال من مصيرها في مصر. منذ اندَلعَت الثورة في تونس بدأ التذبذُب في الحكم بين

[٢] حسن حنفي، الثورة المصرية في أعوامها الخمسة الأولى (٢٠١١–٢٠١٦م)، القاهرة ٢٠١٦م.

العلمانيِّين والإسلاميِّين. ولَّما لم يختفِ العنف تمامًا راجع الإسلاميون المعتدلون في حزب النهضة أنفسهم وتجربتهم السياسية، وقرَّروا عدم العمل السياسي لفترةٍ قادمة، والاكتفاء بالعمل الاجتماعي والتربوي. وما زال الجمع في حكومةٍ واحدة بين الإسلاميِّين واليسار يتأرجح؛ فالماضي ما زال حاضرًا في الأذهان. وفي سوريا بدأت الثورة سلمية، ولَّما بدأ النظام مقاومتها بالسلاح وليس بالحوار، اضطُر الثوار إلى استعمال السلاح حتى تطوَّرت إلى حربٍ أهلية، تدخلت فيها روسيا وإيران وحزب الله بجانب النظام. ولم تجد الثورة من يقف بجانبها إلا الشقيقة السعودية إلى حين وأحيانًا تركيا، ووقفت مصر، كعبة العرب، بجوار النظام السوري، وتمَّت التضحية بالشعب السوري في سبيل السلطة، قُتل نصفه أطفالا ونساءً وشيوخًا ورجالًا، وهاجر النصف الآخر، ومن بقي ينتظر مصيره المحتوم، ويبكي على سوريا الوطن الحبيب. والعراق منذ الغزو الأمريكي وهو يصارع من أجل البقاء؛ فقد بَدأَت الطوائف، سنة وشيعة، والأعراق، أكراد وأرمن وتركمان في الصراع على السلطة المركزية في بغداد أو في تشكيل دويلاتٍ مستقلةٍ طائفية وعرقية، مستقلةٍ تمامًا في إطار السلطة المركزية في بغداد. وما زال الصراع دائرًا حتى الآن. وفي ليبيا بعد انتصار الثورة انقسَمَت القبائل فيما بينها تطالب بالاستقلال أو بالعودة إلى الملكية أيام السنوسي قبل الوحدة، ودَخلت في حربٍ أهلية لم تنتهِ حتى الآن. وبعد أن نجَحَت ثورة اليمن، انقلب فريق من الثوار وهم الحوثيون على الثورة من أجل تولي السلطة في صنعاء، وانضم إليهم الرئيس السابق ناسيًا جهاده من أجل توحيد اليمن بين الشمال والجنوب. وكون الفريقان ثورةً مضادة. واحتُلَّت صنعاء. وما زالت الحرب دائرة بين الوطنيِّين من جهة والحوثيِّين وصالح من جهةٍ أخرى، ثم قُتل بعد أن رقص على كل الحبال حفاظًا على الكرسي. وضاع الشعب اليمني بينهما قتلًا وذبحًا وتنكيلًا. وأصبح العالم كله يشهد جريمة قتل وتجويع ومرض ملايين الأطفال باسم الإسلام! وتصارَعَت أمريكا وإيران على باب المندب الذي جعله عبد الناصر بحيرة عربية؛ من الشمال قناة السويس، ومن الجنوب اليمن، ومن الشرق السعودية، ومن الغرب مصر.

وقد تنازلَت مصر عن سيادتها على جزيرتَي تيران وصنافير اللتَين حارب من أجلهما عبد الناصر في ١٩٦٧م، ثم تنازلَت عن ألف كيلو متر مربع للسعودية لبناء مدينة «نيوم» في ملتقى مصر والسعودية والأردن وإسرائيل مثل إيلات، وهي مدينة أم الرشراش المصرية التي احتلتها إسرائيل في ١٩٤٨م، مصر بالأرض، والسعودية برأس المال، وإسرائيل بالتكنولوجيا والأردن بالسكان لتخفيف الضغط على غزة المحاصرة برًّا

وبحرًا، شرقًا وشمالًا إلا مصر جنوبًا؛ فإليها الهجرة وتوطين الفلسطينيِّين، وحل القضية الفلسطينية في صفقة القرن. ويصبح الشرق الأوسط الكبير أو الجديد إقليمًا واحدًا وسط إسرائيل التي يَتودَّد الكل إليها وتُؤازره أمريكا حليف المنطقة، فتبتلع إسرائيل المنطقة كلها، تربةً وأرضًا وسكانًا وعقولًا، وتكسب الحروب السابقة كلها بلا حروبٍ قادمة.

وأخيرًا عُقد اتفاقٌ بين مصر وإسرائيل على أن تشتري مصر الغاز من إسرائيل بخمسة عشر مليار دولارًا، ومصر تعيش وسط بُحيرة غاز، من السعودية والخليج شرقًا، وليبيا غربًا، وحقل «ظهر» شمالًا. ومصر تدين ملياراتها للاستثمار، وهو ما فعله صديق الرئيس المخلوع عندما كان يُصدِّر الغاز إلى إسرائيل بالمليارات، والحُجة تصنيع الغاز، فتُصبح إسرائيل مسيطرةً على مداخل البحر الأحمر من الشمال في خليجي السويس، وأمريكا وإسرائيل على باب المندب، ويتحول البحر الأحمر من بحيرة عربية إلى بحيرة إسرائيلية. والآن يتم التخطيط لِشق قناةٍ بين البحر الميت والبحر الأحمر لضرب قناة السويس في مقتل التي من أجلها أضاعت مصر استقلالها وحفَرتها بسواعد فلَّاحِيها، وتم العدوان عليها في ١٩٥٦م بعد تأميمها.

ورأيتُ فيما يرى النائم أنني دُعيت لِلقاء الرئيس في معرض الكتاب وتسليم الجوائز، جائزة النيل، ومناقشته كما يفعل الرؤساء السابقون كل عامٍ في عيد العلم. وغلَب على تنظيم المعرض الجانب الأمني، وليس الجانب العلمي الثقافي. ووُضِعَت الكراسي بالمئات بالقطيفة الحمراء وهي مَكسُوَّةٌ بالأبيض وفارغةٌ من أي زائر. وفات الموعد، والناس في الانتظار في الصفوف الخلفية يأكلون ما قُدِّم لهم من طعام، ملء فراغ أو رشوة، فسِرتُ بين الطُّرقات، وأنا أصيح: من ينتظر من؟ الرئيس في الاستقبال والمُثقَّفون هم المُستقبِلون؟ وإلى الآن لم يظهر الرئيس! وهذه إهانة لِلمثقَّفِين المدعُوِّين، فجاء رجال الأمن، بعد أن قالوا لي كفاية يا أستاذ، ليستجوبوني: هل أنت إخواني؟ هل لك صلة بالإخوان؟ هل أحد الأصدقاء من الإخوان؟ وكأن أحدًا لا يعترض على شيء إلا إذا كان من الإخوان! ولم يحضر الرئيس. وفي الحلم، رأيتُ أنهم أدخلوني في حافلةٍ داخل سردابٍ طويل حتى جاءت استراحة لتناول المشروبات، وجاء من يعلن أن الرئيس مشغول اليوم! يبدو أن الأمن أَخبَره بشيءٍ جعَله يُغيِّر رأيه. وبعد ذلك بأيامٍ عرض التلفزيون مقابلةً قديمة مع بعض المثقَّفِين، وكأنها حدثت في معرض الكتاب!

وبعد عامٍ بدأت الرئة الأخرى التي يتنفس منها الشعب في الضيق؛ فقد غلَتِ الأسعار إلى الضعف أو ثلاثة أضعاف في كل المواد خاصة المواد الغذائية التي منها يقتات الشعب

مثل الفول والعدس، وزادت أسعار الخضار المجمَّد والطازج، وارتفعت أسعار اللحوم والأسماك والدواجن بحجة ارتفاع سعر الدولار حتى الفجل والجرجير والكرَّاث والخيار والطماطم، وتعويم الجنيه. وبدأ النقد علنًا، يخرج من القلوب إلى الأفواه، يدٌ تعتقل في الداخل، ويدٌ ممدودة للخارج. يدٌ تسرق في الداخل، ويدٌ فاسدة تُهرِّب المليارات إلى الخارج. لا فرق بين رجال الأعمال ورجال الأمن ورجال السلطة. والأخطرُ من ذلك كله التفريط في أرض الوطن، والتنازُل عن جزيرتَي تيران وصنافير. وأَصدرَت محاكمُ بكافة درجاتها أحكامًا بإبطال العقد، عقد البيع، ثم صدر حُكمٌ أخير للمحكمة الدستورية العليا بإبطال كل الأحكام القضائية السابقة، وأن ذلك من حكم السيادة!

إن الحطب جافٌّ، فأين الشرارة؟ تلمع بين الحين والحين ثم تنطفئ، وآخرها هتف الشعب في استاد القاهرة بعد القبض على بعض المواطنِين «حرية، حرية، حرية». وتصفيق الحاضرين في مدرج بعد أن سأل أستاذٌ في مناقشة رسالة الطالب عن حال التمدُّن والمدنية، وهو موضوع الرسالة الآن، فأجاب الطالب بالكُتب في الموضوع. وطلب الأستاذ، ليس الكتب بل ما يشعُر به الناس، سائق سيارة الأجرة، بائع الخضار، المواطن العادي؟ فلم يعرف الطالب المقصودَ لأنه تعوَّد على العلم في كتاب. فساعده الأستاذ: ألا تشعر بأنك إذا وضعتَ أُذنك على قلبك وجدتَ أنه ينبض بالفقر والاستبداد؟ فضجَّت القاعة بالتصفيق. ويظل السؤال قائمًا: متى ينتهي السقوط، ومتى يبدأ الارتفاع من جديد؟ خاصة وأنا أنتمي لجيل بدأ حياته بالارتفاع بحركة التحرُّر الوطني في الخمسينيات ويُنهي حياته الآن بالقهر السياسي، لا اليد تكتب، ولا اللسان يتحدث، ولكن القلب ما زال ينبض.

وأَحَسَّ الشعب بالإحباط كما أَحَس بعد ثورة ١٩١٩م عندما استولى عليها القصر والإقطاعيون والباشوات، واحتاجت إلى ثورةٍ جديدة؛ ثورة الضباط الأحرار في ١٩٥٢م. لم يعرف أحدٌ تموجات الثورة متى ترتفع ومتى تنخفض، والكل يعرف أن ثورة الجياع قادمة، وما ثورة الغلابة في ١١/١١/٢٠١٦م إلا بروفة، كيف تستطيع ثورة الآلاف أن تُجنِّد نصف مليون جندي وشرطي وأمن مركزي؟

والأخطر من ذلك كله الإحساس بالإحباط واليأس، وترك السياسة كلية والبحث عن لقمة العيش، ويساعد الإعلام على إيجاد البديل لهم؛ فهل يستطيع الإرهاب أو الإخوان أن يكون عدوًّا بديلًا عن إسرائيل؟ احتار الناس من العدو ومن الصديق؟ هل العدو فيما بيننا والصديق خارجًا عنَّا أم إن العدو على الحدود والصديق داخل الحدود أم إن

العدو خارجنا والصديق داخلنا؟ فلا فرق بين بدو سيناء وفلاحي الوادي، بين الجيش والشعب، بين الشرطة والخارجِين على القانون؛ فكلهم مصريون.

كان الناس يظنون طِبقًا لما يُشاهِدون أن الشعب قد مات؛ فلا هو قادر على إفراز جيلٍ جديدٍ من الضباط الأحرار، مثل ثورة عرابي ١٨٨٢م، وثورة ١٩٥٢م، ولا هو قادر على أن يقوم بنفسه كما فعل في ثورة ١٩١٩م ثم ثورة ٢٠١١م، وبين الاثنين حوالي قرن من الزمان. ويتساءل: ماذا عن ثورة المُفكِّرين الأحرار التي بَدأَت بها معظم الثورات وعلى رأسها الثورة الفرنسية؛ فتحرير العقول سابق على المجتمعات، ولو تحرَّرت المجتمعات دون العقول لعادت إلى استبدادها الأول وأظلمت العقول؛ فهل من ثورة يقودها المُفكِّرون الأحرار؟ لذلك يشتد التعتيم على الفكر، ولجم اللسان، وتقييد اليد، ولكن لم يشُقَّ أحدٌ على قلوبنا.

الفصل الحادي عشر

كل نفسٍ ذائقةُ الموت
(٢٠١٨م–...)

والآن وقد اكتملت ذكريات الماضي دون الحاضر، فماذا عن المستقبل؟ لم يتحقق المستقبل بعدُ، ولكن هل يمكن للاستباق أن يحل محلَّه؟ هل يمكن بناءً على ذكريات الماضي وربما الحاضر التنبُّؤ أو على الأقل الإحساس بما سيحدُث في المستقبل قبل أن يتحول إلى ذكرياتٍ قد لا يعيش صاحبها؟ فالماضي مستقبل الحاضر، والحاضر والمستقبل هما الماضي قبل أن يتحققا، والمستقبل لا يمكن تحديد نهايته ولا بدايته؛ فالبداية هو الحاضر، ونهايته الموت، ولا يتحول إلى ذكريات إلا يوم الحساب. ومع ذلك يمكن مراجعة الماضي، هل حقَّق كل ما أراده «التراث والتجديد» بمستوياته الثلاثة: العلمية الفلسفية، والثقافية، والسياسية الشعبية؟ صحيح أنني أسمع صداه في كل مكان، وعند عدة أجيال، والواقع يسير في منطقه الخاص، لم يغير مساره في شيء؛ فالصراع بين أنصار القديم، الإسلاميِّين، وأنصار الجديد، اليسار، ما زال قائمًا من أجل الاستيلاء على السلطة في الحاضر. أنصار الماضي هم السلفيون، وأنصار المستقبل هم المدنيون، ما زالوا يتصارعون على الحاضر. والشعب الفقير هو الذي ضاعت مصالحه، ويحتاج إلى خدماته، ولم ينفع في ذلك لا المستوى العلمي للعلماء، ولا المستوى الفلسفي لِلمُثقَّفِين، ولا المستوى السياسي الشعبي للجماهير. ربما عليَّ الانتظار حتى يكتشف التاريخ أهمية «التراث والتجديد»، ويُحرِّكه، وينقله من مرحلةٍ ماضية إلى مرحلةٍ آنية، من مرحلة السقوط في القرون السبعة الأخيرة إلى مرحلة النهوض في القرون السبعة التالية لِحاقًا بالقرون السبعة الأولى، من الأول إلى السابع، مرحلة النهضة الماضية الأولى إلى مرحلة النهضة الثانية الحديثة من القرن الرابع عشر حتى الواحد والعشرين، وابن خلدون علامةٌ فارقة بين الاثنَين.

استرسلتُ في الذكريات قَدْر المستطاع. قد أكون نسيتُ بعضها أو أوَّلتُ البعض الآخر، ولكني لم أظلم أحدًا، ومن يُحسَّ بالظلم بعد قراءتها فليرُدَّ عليَّ، وتُجمَع هذه الردود وتُطبَع في نهاية الذكريات في الطبعة الثانية. الذكريات تسيل كنهرٍ دافق، أكتبها كي أستريح من الكتب العلمية المُوثَّقة في أجزاء «التراث والتجديد»، وتنتهي براحةٍ نفسية بعد التخلِّي عن ثقل التاريخ وهمومه. هو علاج نفسي أعطيه لنفسي عن طِيبِ خاطر، وأُجرِّبه لعلي أعود إلى «الروح الطائر». كنتُ أظن أنها ستأخذ مني سِنينًا، ولكنها أخذت مني شهرَين في صياغتها الأُولى، ثم شهرًا ثالثًا في الصياغتَين الثانية والثالثة. وأنا أَكتبُ كل يومٍ مرتَين، صباحًا ومساءً، لَعَلِّي أترك للأجيال القادمة قصةَ حُب مُفكِّرٍ لا يُفرِّق بين هموم الفكر وهموم الوطن. الحمد لله أنني لم أُسجن أو أُعذَّب، ولكن السجن كان إراديًّا؛ سجن البدن بين أربعة جدران، وسجن الروح وعذابه في حمل الهموم دون التخلي عنها لحسابِ نظامٍ سياسيٍّ أيًّا كان. لقد كُنتُ أشعر دائمًا بواجب العلماء، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد مناقشتي لعبد الناصر في مؤتمر المبعوثِين صيف ١٩٦٦م في المُدرَّج الكبير بجامعة الإسكندرية. ولم أستطع أن أفعل ذلك على من خلَفه في معرض الكتاب لأني اعتبرتُه قد تخلَّى عن الأرض بمعاهدة كامب دافيد واتفاقية السلام مع إسرائيل، ولكني ناقشتُ من أتى بعده في معرض الكتاب مُبيِّنًا أهمية حرية الفكر والاستقلال الوطني للبلاد ضاربًا المثل برمسيس، وصلاح الدين، وعبد الناصر، فسأل: وأين السادات؟ فلم أشَأْ أن أرُدَّ قائلًا إنه عقد السلام مع العدو قبل أن ينسحب من الأراضي المحتلة. وكان عبد الناصر يقول دائمًا: ليست القضية سيناء؛ فأنا أستطيع أن استرِدَّها في أربع وعشرين ساعة، ولكن عيني على الضفة الغربية والجولان.

والآن وقد اكتمل المشروع، وقاربت حياتي على الانتهاء؛ إذ لَمَّا سمِع أبو بكر آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، قال: «إن الرسول ينعَى نفسه.» ولم يَبقَ لي إلا هيجل واليسار الهيجلي أو الهيجليين الشبان؛ لبيان أهمية هذه الفترة من الفلسفة الغربية؛ فقد استطاع هيجل أن يُحوِّل الدين إلى فكر، والعقائد إلى حياة؛ فالتثليث هو الجدل الهيجلي، والتجسُّد هو الروح في التاريخ، والمُطلَق في الدولة. والدين والمثالية قرينان منذ كانط، وهيجل في النهاية هو أحد تلاميذه جمع بين كتبه النقدية الثلاثة، نقد العقل النظري، ونقد العقل العملي، ونقد ملَكَة الحكم في عقلٍ واحد، لا يُفرِّق بين الظاهر والشيء في ذاته؛ فالعقل والغائية في التاريخ؛ فالماركسية هي التطوُّر الطبيعي للدين، من العقائدية إلى المثالية إلى الإنسانية إلى الواقعية الاجتماعية.

ولا فرق بين الإيمان بالمسيحية والإيمان بهيجل؛ فهيجل هو المسيحية العاقلة، والمسيحية المثالية هي هيجل التاريخي. ثم جاء تلاميذه ونقَدوا مِثاليَّته، مثالية الأستاذ والتي لا فرق بينها وبين الدين المسيحي؛ فالحقيقة تحت المثالية في الواقع، في المجتمع وحياة الناس، الفرد عند شترنر، والوعي الذاتي عند باور، والإنسان عند فيورباخ. ثم جاء تلميذ آخر، كارل ماركس، فنقد التلاميذ، العائلة المُقدَّسة؛ فهم ما زالوا مثاليِّين مثل الأستاذ. أمَّا الحقيقة لدَيه فهي الحياة المادية، الصراع بين الفقراء والأغنياء، بين من لا يملكون ومن يملكون، بين الحرية والاستعباد.

وكان بِودِّي أن أُنجِز تفصيلاتٍ لما تركتُه عامًّا مثل «مقدمة في علم الاستغراب»؛ فالإعلان عن كونه مقدمة يُوحي بأن أجزاءً أخرى ستأتي؛ فقد أُعلن في مشروع «التراث والتجديد» أن موقفنا من التراث الغربي وهو علم الاستغراب يشمل ثلاثة أجزاء: الأول، مصادر الوعي الأوروبي خاصة المصادر الأفريقية والآسيوية كما فعل مارتن برنال في الجزء الأول من «أثينا السوداء» لتحليل المصدر الأفريقي للحضارة الأوروبية. والثاني، تكوين الوعي الأوروبي؛ أي مراحله القديمة اليونانية والرومانية، الوسطى المسيحية، الحديثة في عصر الحداثة، وبالتوثيق اللازم كما فعلتُ في «موقفنا من التراث القديم». وكان هذا يحتاج عمرًا جديدًا لا أملكه، وعوضًا عن ذلك ساندتُه ببعض الترجمات مثل «نماذج من المسيحية في العصر الوسيط» والجزء الثاني من «قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر»، و«دراسات فلسفية»، كما ساندتُه ببعض الترجمات مثل «رسالة في اللاهوت والسياسة» لإسبينوزا، و«تربية الجنس البشري» للسنج، و«تعالي الأنا موجود» لجان بول سارتر؛ حيث يضع التقابل بين «الأنا أفكر» Cogito في بداية عصر الحداثة و«الأنا موجود» Ego في نهايته أو ما أسماه هوسرل الكوجيتاتوم Cogitatum؛ فالأنا ذاتٌ وموضوع، وبينهما إحالةٌ متبادلة. ولو امتدَّ بي العمر لَنقلتُ إلى العربية «جوهر المسيحية» لِفيورباخ حيث يُحوِّل فيه الثيولوجيا إلى أنثربولوجيا، وذلك لِمساندةِ مُحاولاتِ المُعاصِرين بمشروعٍ مُشابهٍ داخل الحضارة الإسلامية، وكتابيَّ الأخيرَين عن «برجسون، فيلسوف الحياة»، «فشته، فيلسوف المقاومة». وكان بِودِّي الكتابة عن فلاسفة الحياة، ليس بالضرورة كُتبًا، ولكن يكفي المقالات العلمية كما كُنتُ أفعل في بداية حياتي العلمية الفلسفية في «الفكر المعاصر» و«تراث الإنسانية» و«الكاتب» و«المجلة». وقد جُمِعَت فيما بعدُ في «قضايا معاصرة» (جزءان)؛ الأول «في الفكر العربي المعاصر»، والثاني «في الفكر الغربي المعاصر»، وأيضًا في «هموم الفكر والوطن» (جزءان). كُنتُ أَوَدُّ أن أكتُب عن

فلاسفة الحياة الذين أتَوا لِيملَئوا الفراغ بين العقليِّين والحسيِّين مثل دريش Driesch، دلتاي Dilthey، جويو Guyau، فوييه Fouillée، ثم فلاسفة الشخصانية مثل مونييه بعد أن قدمها محمد عزيز لحبابي في المغرب باسم الشخصانية، وهو مؤسس مجلة «روح» Espirit مع بول ريكير، ويُمثِّل اليسار المسيحي. كما كُنتُ أود الكتابة عن فلاسفة الوجود مثل هيدجر، وياسبرز، ومارسيل، وميرلوبونتي. وكُنتُ أوَدُّ الكتابة عن أورتيجا إي جاسيه بعد أن كتبتُ عن «ثورة الجماهير»، ونيتشه فيلسوف القوة والعدَم بعد أن قدَّمه فؤاد زكريا.

كُنتُ أَوَدُّ أن أُنشِّط اتحاد الجمعيات الفلسفية العربية، كما فعلتُ مع الجمعية الفلسفية المصرية، وبعد الاجتماع الأوَّل، بَدأَت الصعوبات؛ أوَّلها عدم وجود جمعياتٍ فلسفية إلا في تونس والمغرب والأردن ولبنان، وعدم وجود التمويل اللازم لِنفقات سفَر الأعضاء أو الإقامة، وعدم وجود النية الصادقة والحماس اللازم للعمل الجماعي. وكنتُ أَودُّ أن أُحوِّل قسم الفلسفة عندنا إلى مركزٍ للتفلسف، وخَلْق مدارسَ فلسفيةٍ يُحاوِر بعضها بعضًا، بدلًا من الخصام والتوتُّر والمقاطعة بين الأساتذة. كما كُنتُ أَوَدُّ أن أجمع أقسام الفلسفة في مصر في مؤتمرٍ سنويٍّ من خلال الجمعية الفلسفية المصرية أو بدونها بدلًا من هذا التشتُّت الذي جعل بعضنا لا يعرف البعض الآخر. كُنتُ أود أن أضع لكل قسمٍ خطَّة بحثٍ علميٍّ للماجستير والدكتوراه بدلًا من الاختيار العشوائي والمُكرَّر. وكنتُ أَوَدُّ أن يظهر أثَر هذه الرسائل في الواقع المُعاش حتى لا يكون مكانها مُجرَّد وضعها على الرفوف؛ فالفلسفة ليست بأقلَّ أثَرًا من الأدب، بل إن استمرار غالبية المؤتمرات السنوية في جامعة القاهرة بدأ يشُقُّ على النفس، وتظُن باقي أقسام الفلسفة أنها استكبارٌ بالقاهرة على باقي المدن. ولم تَرَدَّد الجمعية الفلسفية المصرية ولا كلية الآداب في أن تستضيفها إحدى الجامعات المؤتمر السنوي تدعيمًا لنشاطها كما فعلَت جامعة الإسكندرية، وجامعة بني سويف، وجامعة المنيا، وكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وما زال الباب مفتوحًا للجميع، وإلا فإن قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة يُشرِّفه أن يكون بؤرة النشاط الفلسفي في مصر والوطن العربي والجامعات العربية.

كنتُ أَوَدُّ أن أقرأ أكثر وأكتُب أَقلَّ خاصة من مكتبتي الزاخرة بكل فروع الفلسفة، تاريخها اليوناني والروماني والوسيط والحديث والمعاصر، والفكر الشرقي القديم وفلسفة الدين، والفلسفة العامة وفلسفة الفن، وباقي العلوم الإنسانية، المنطق وعلم النفس وعلم

الاجتماع. كنتُ أَوَدُّ إكمال ثقافتي في الفلسفة السياسية وأن أقرأ العلوم السياسية والاقتصادية. وكنتُ أَوَدُّ أن أُكمِل ثقافتي في تاريخ مصر وتاريخ العرب الثقافي. وكنتُ أَوَدُّ إكمال ثقافتي للعالم الثالث، أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكُنتُ أود الكتابة عن «أمريكا، الأسطورة والحقيقة» بعد أن أعددتُ مراجعها ولم ينقُصْني إلا الوقت والناشر الجيد. كنتُ أَوَدُّ أن تُجمع مُؤلَّفاتي في دارِ نشرٍ واحدة، أعمالًا كاملةً أم مُجزَّأةً حتى يَسهُل الحصول عليها كما هو الحال مع أعمال الجابري الموجودة في مركز دراسات الوحدة العربية؛ فقد تناثَرَت دراساتي بين دار الفكر العربي، دار الكتب الجامعية، الهيئة العامة للكتاب، دار عين، مركز الكتاب للنشر، مدبولي، الأنجلو المصرية، مركز الكتاب المصري الحديث، وغريب، وقد طبَعتُ على نفقَتي الخاصة منعًا لهذا التشتُّت ظانًّا أن ذلك يجمع المُؤلَّفات في مكانٍ واحد مثل: «الحكومة الإسلامية»، «جهاد النفس»، «اليسار الإسلامي»، «من النقل إلى العقل»، الجُزءان الرابع: «علوم التفسير»، والخامس: «علوم الفقه»، و«محمد إقبال»، «من النص إلى الواقع»، «وطن بلا صاحب». وما زلتُ أنوي طباعة «هيجل واليسار الهيجلي»، «ذكريات» على نفقَتي الخاصة؛ فأنا لم أعُد قادرًا نفسيًّا على التسوُّل أمام أبواب الناشرين، بل هم الذين يأتون إليَّ سائِلين. وكيف لي أن أستمر في التعامل مع رجالٍ أو نساءٍ لا هَمَّ لهم سوى الربح، ولا شأن لهم بالثقافة الجادة ونَشرِها؟ لقد انتهى العصر الذي تم فيه تكوين اللجنة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر التي أَسَّسها زكي نجيب محمود وأحمد أمين وثالثٌ لا أذكره، ولم تستطع الهيئة العامة للكتاب أن ترثها؛ فقد تغيَّر عصر الثقافة إلى عصر التجارة.

كنتُ أتمنَّى ألا يُعادِيَني أَحدٌ في القسم غَيرةً أو حسَدًا يتحولان إلى كراهيةٍ مستمرة وعداوةٍ ظاهرة. لم أفعل شيئًا يضُر أو يؤذي أحدًا، بل كنت طيِّبًا وكريمًا مع الكل، إلا أن الأهواء البشرية كثيرًا ما تطغى على طيبة القلب وصفائه، والأخطر من ذلك تكوين محورٍ ضِدِّي في مجلس القسم حتى لا يكتمل النصاب، فتبطُل قراراته. وكانتِ العداوة تَظهَر في اللجان المشتركة لترقيات الأساتذة والأساتذة المساعِدين من أجل تكوين محورٍ معادٍ للمُتقدِّم أو في صفِّه بِغضِّ النظر عن الأعمال العلمية وتقييمها. وفي إحدى جلسات المجلس الأعلى للثقافة عندما قرَّرتُ مناقشة كتابي عن «فشته فيلسوف المقاومة» ووُزِّع الكتاب على أعضاء اللجنة، أخذ أحد الأعضاء الحاسِدِين النسخة ورماها أمامه، وكان يبيع كتبه المُقرَّرة على معظم الجامعات التي يُنتدب إليها، ويُوزِّع الدرجات العلمية، الماجستير والدكتوراه، على الأصدقاء بتسجيلها في الجامعات الإقليمية التي يدور عليها،

ولَّما نِلتُ جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٧م سعى بالواسطة إلى أن ينالها هو الآخر. ونجح في ذلك، وقضى نحبه وهو خارج من أحد معاهد التدريس.

أتمنى أن أعيش لكي أرى الجامعة وقد عادت إلى مركز البحث العلمي، بعد أن تحوَّلَت إلى معهدٍ لإعطاء الدرجات بالمصروفات بعد أن طبَّقَت النظام الأمريكي، الساعات المعتمدة وإعطاء A B C D E، فأصبح هَمُّ الطالب الحصول على الدرجات، وكتابة رسالةٍ صغيرةٍ مادتها من الإنترنت، ووضع مئات المراجع في آخرها وهو لم يقرأها. وأصبح هم الأستاذ يبيع الكُتب المُقرَّرة ليس فقط في مرحلة الليسانس بل أيضًا في مرحلة الدراسات العليا. وشاركَتِ الجامعة كوسيطٍ تجاري بين الأستاذ والطالب، تشتري المُقرَّر من الأستاذ، وتطبعه وتبيعه للطالب فيما يُسمَّى بنظام «التعليم المفتوح» الذي لا يتعلَّم فيه شيئًا منه، لا منهجًا ولا موضوعًا، بل يحفظ الكتب التي اشتراها بآلاف الجنيهات، ويدفع فيه الطالب العربي عشرات الآلاف؛ كل ذلك من أجل الحصول على الدرجة العلمية التي لا تُؤهِّل لأية وظيفةٍ أو مهنةٍ بل تزيد أعداد العاطِلين. كُنتُ أُريدها جامعة أحمد لطفي السيد وطه حسين ومصطفى عبد الرازق وأمين الخولي، أساتذة لِمدارسَ علمية، يجمعون بين العلم والفكر، بين هموم الفكر وهموم الوطن.

كنتُ أتمنى أن أكون أكثر نشاطًا في العمل العام، وأكثر فاعليةً في تضحياته، ولا أكتفي بالعمل العلمي في «التراث والتجديد» أو العمل الثقافي: في «قضايا معاصرة»، «هموم الفكر والوطن»، «حصار الزمن»، «حوار الأجيال»، «دراسات فلسفية»، «دراسات إسلامية»، ولا بالثقافة السياسية الشعبية مثل «الدين والثورة»، «من منهاتن إلى بغداد»، «جذور التسلُّط آفاق الحرية»، «الثورة المصرية في أعوامها الخمسة الأولى»، «الواقع العربي المعاصر»، «نظرية الدوائر الثلاث»، ولا أكتفي بانضمامي إلى الإخوان المُسلِمين في الخمسينيات أو بحزبٍ يساريٍّ «التجمُّع» في السبعينيات، ولا اكتفائي بالتنظير السياسي في «اليسار الإسلامي» في الثمانينيات. وتأتيني الآن خطاباتٌ عديدة من تياراتٍ مجهولة كي أكون عضوًا مؤسِّسًا فيها مثل الحزب الشيوعي المصري، وحركة شباب الإخوان، فأَرُدُّ بالاعتذار لِكِبَر السن، واكتفائي بالعمل النظري. و«اليسار الإسلامي» ما زال ضعيفًا على مستوى الممارسة العملية، وإن كان موجودًا في حزب النهضة في تونس وحزب الاستقلال والتنمية في المغرب وفي تركيا، وهو موجودٌ أيضًا في رؤية ماليزيا وإندونيسيا. والأَهَمُّ من ذلك أنه موجودٌ في قلوب الناس وتمنياتهم بدلًا من صراع التيَّارَين الإسلامي واليساري على السلطة التي يستولي عليها العسكريون.

كنتُ أتمنَّى أن تُحكم مصر حكمًا ائتلافيًّا بين القوى السياسية الرئيسية في البلاد؛ الإسلامية (الإخوان)، والقومية (الناصريون)، والليبرالية (الوفد)، واليسارية (الماركسيون) من أجل خلق برنامجٍ سياسيٍّ وطنيٍّ مُوحَّد للقضاء على المشاكل الاجتماعية التي لا يختلف عليها اثنان مثل: التحرُّر الوطني، والحرية الفردية، والعدالة الاجتماعية، والوحدة العربية، والهُوية، وحشد الجماهير؛ فما زالت مصر تُحكَم في عصرها الحديث بِطرفٍ واحد قبل الثورات العسكرية أو بعدها، إمَّا الوفديون أو العسكريون، إمَّا العسكريون أو الإسلاميون، إمَّا قريش وإمَّا الجيش. أحدهما وطني، والآخر خائن. أحدهما ناجٍ، والآخر هالك. فهل الحقيقة واحدةٌ يمتلكها فردٌ واحد أم هي وجهاتُ نظر لأفرادٍ مُتعدِّدين، والحقيقة افتراضٌ نظري يعمل عليه الجميع؟

كنت أتمنى أن تكون مصر كما كانت في الستينيات زعيمةً للأمة العربية وقائدةً لنهضتها القومية والاشتراكية، قادرةً على تجميعها، وتُكوِّن العالم حولها، كما فعلت في تكوين دول عدم الانحياز والحياد الإيجابي، ودول العالم الثالث، والشعوب الآسيوية والأفريقية وأمريكا اللاتينية، تكون لها الأغلبية في الأمم المتحدة، ولا يجرؤ أحد على المساسِ بها أو غَزوِها أو تكوينِ قواعدَ عسكريةٍ فيها أو إدخالها في أحلافٍ مثل حلف بغداد أو حلف القاهرة والرياض وتل أبيب أو صفقة أو صفعة القرن التي يتم تنفيذها الآن بعد تغيير اسم الشرق الأوسط الجديد أو الشرق الأوسط الكبير تكون إسرائيل مركزه بديلًا عن مصر. وكما كنا في الستينيات بؤرةً للعالم الثالث مركزه مصر والهند ويوغسلافيا، ناصر ونهرو وتيتو، نكون الآن بؤرةً لتحالُفٍ جديدٍ بين مصر وتركيا وإيران، نملأ الفراغ في الشرق الأوسط بدلًا من مشاريع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير الذي تملؤه أمريكا وإسرائيل، فلا نَخسَر دولتَين لنا معهما إرثٌ ثقافي وسياسي مشترك بسبب وجود الإخوان في تركيا والثورة الإسلامية في إيران، فيعود الخيال السياسي ليتحرك في مصر بدلًا من أن تظل يدُها ممدودةً غربًا وشرقًا كي تعيش. تركتِ العراق مُجزَّأة، وسوريا مُدمَّرة، وليبيا متقاتلة، واليمن مُشتَّتة الصف. وقد تُوفِّي عبد الناصر وهو يُصالِح الأردن مع المقاومة الفلسطينية من كثرة الإجهاد للذهاب للمطار لاستقبال الرؤساء وتوديعهم، بدلًا من أن يذهب رئيس أكبر دولةٍ عربية لاستقبال ولي عهد دولةٍ عربية أخرى مُخالِفًا قواعد البروتوكول السياسي. تخلَّت مصر عن دورها المركزي في قلب الوطن العربي، فانهالت عليها الضربات من الشرق، روسيا، ومن الغرب، أمريكا، ومن الشرق، إيران، ومن الجنوب، الحبشة.

أَتمنَّى أن أعيش عامًا أو عامَين لِأُكمل «هيجل والهيجليون الشبان» (اليسار الهيجلي)؛ وبالتالي أكون قد أدَّيتُ مهمتي للفكر وللوطن، للجامعة والمجتمع. لا أغضب من أحد، وأسامح الجميع، وأشعر بالسيد المسيح في قلبي يدفعني إلى التسامُح والمحبة، عفا الله عما سلف، وأُحاوِل أن تنتشر هذه الروح في القسم؛ المصالحة. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. وضَعتُ وديعةً باسمي في الكلية للصرف من ريعها السنوي على النشاط العلمي للكلية والأقسام في إقامة ندواتٍ ومؤتمراتٍ حتى لا يعيش كل قسمٍ في عزلةٍ عن الآخر، وكلها تُدرِّس نفس الموضوع «اللغة»: اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية واليابانية والصينية، أو العلوم الإنسانية، علوم النفس والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، كما جَعَلتُ للأقسام ودائعَ أخرى، قسم اللغة العربية ذكرى لأخي سيد، وقسم الدراسات اليونانية واللاتينية الذي رشَّحني لجائزة الدولة التقديرية، وربما قسم الفلسفة الذي عِشتُ فيه أستاذًا خمسين عامًا منذ ١٩٦٦–٢٠١٨م، وقبلها أربع سنواتٍ أخرى طالبًا (١٩٥٢–١٩٥٦م)؛ لأنه لم يُرشِّحْني لأي شيء، ومن رشَّحَه القسم لم يَنَلْ إلا صوتًا واحدًا أو صوتَين في مجلس الكلية. ووَزَّعتُ الربع الأخير على عمَّال الكلية بالتساوي. واكتشفتُ بعد أن قرَّرَتِ الدولة التعامُل بالفيزا أن الفرق بين المُرتَّب والمعاش لم يصلني منذ هذا النظام؛ أي منذ أكثر من سنتَين. وحوَّلَتني الشئون المالية بالكلية إلى إدارة المعاشات في أول شارع الهرم لأن ذلك ليس من اختصاصهم. وذهبتُ مع سائق تاكسي حدثني عن صدقه وأَمانتِه ونسيان أحد أثرياء العرب لفَّةً بها الملايين من الجنيهات أو الدولارات لا أذكر، ووَجَد فيها بطاقته، وذهب إليه لِيُعطيه إياها، وعَرضَ عليه المكافأة الكبرى التي رفَضَها وطلَب فقط نسبته الشرعية وهي ١٠٪، وهو سائقُ لواءٍ بالجيش، ولا يعمل سائقًا، وقادرٌ على تصليح كل شيء؛ نجارة وحدادة وسباكة وكهرباء. ومكثتُ في إدارة المعاشات دقائقَ معدودةً لأن إدارتي في كوبري القبة، ورأيتُ سائق التاكسي في انتظاري مع أني لم أطلب منه ذلك، وأوصلني إلى مدينة نصر، وأعطيتُه ضعف الأجر لأنه بلا عدَّاد، وطلَب المزيد فأعطيتُه ما أراد. وطلَب بيتَه، وكان يتكلم في المحمول ولم يشعر أن العربة التي أمامه قد توقَّف صاحبها فجأةً لوجود مطبٍّ على الكوبري، فاصطَدمَت عربتُه بالعربة الخلفية. وإلى الآن ما زالت الإدارة المالية تُحيل من يذهب إليها بخصوصي إلى المعاشات مع أن المعاش يُحوَّل إليَّ عن طريق البنك بانتظام. وأخشى أن يكون في الأمر فسادٌ بعد أن أصبح هو المصدر الأول للرزق للفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء، فسادٌ بالمئات أو فساد بالآلاف أو فسادٌ بالملايين أو فسادٌ وتهريبٌ إلى

الخارج بالمليارات كما حدث من المخلوع وأنجاله وصحبه، وأقاربه. ثم عَرفتُ أنهم كانوا يُحوِّلون الفرقَ بين المرتب والمعاش إلى البنك عندما تكاثَرَت عليه الأسئلة من الزملاء.

كنتُ أتمنَّى أن أعيش أَطولَ ولو أني راضٍ من أني تجاوزتُ الثمانين، كي أُعطيَ أكثر مما أعطيتُ، وأن أقوم بواجبي تجاه حقوق الشعب وواجبات الدولة وأمانة الوطن. وكنتُ أُسَرُّ في رحلاتي إلى الوطن العربي والعالم الإسلامي عندما أرى أجيالًا جديدةً قَرأَتني وهي في الثانوية حتى قبل الجامعة وأَسعدَتها رؤيتي، تُريد أن تتصوَّر معي وكأني أحد النجوم، وكأنني أحد المشايخ، ورئيس طريقةٍ صوفية. وأنا وزوجتي كذلك؛ فزوجة مولانا مثل مولانا في الاحترام والتقديس، وتُقارِن بين فكري الثوري وشخصيتي الهادئة، كيف يُعاديني المحافظون وأنا أَرُدُّ عليهم في هدوءٍ شديد وبمحبةٍ لهم وعُذرِهم، وتمنياتي أن يفتح الله عليهم، وأن يُنير عقولهم، يُحيون أوطانهم، ويُعبِّرون عن عصرهم؛ فكل إنسانٍ هو ابن وقته كما يقول الصوفية. ومع ذلك إني راضٍ تمام الرضى في هذه الثمانين عامًا. والحمد لله أنني أعطيتُ وأخذتُ، ولي أسرةٌ وأحفادٌ وأصدقاءُ ومُحبُّون. والأهم، أَثَري على الناس وفي التاريخ والذكرى الطيبة.

أتمنَّى أن أُدفَنَ بجوارِ من أحببتُ طيلة حياتي، توفيق في الاختيار وسعادة في طولِ البقاء. ولن يحزن مَن في مقبرة أبي وأمي وأخي وزوجته وشقيقتي وخالتي وحماتي وزوج أختي وعلي النجار من أقربائي؛ فالروح لا مكان لها، تتزاور بين البساتين وطريق السويس. أَتمنَّى أن تكون ضغطة الموت خفيفة؛ فقد تعِبتُ في حياتي، وأرجو ألا أَتعَب في وفاتي. وأَتمنَّى أن ألقى من كتبتُ عنهم، فشته وبرجسون، والأفغاني وإقبال. وأتمنَّى أن ألقى أساتذتي عثمان أمين وجان جيتون وطلابي، نصر حامد أبو زيد وعلي مبروك. وأتمنَّى أن أرى أولادي حازم وحاتم وزوجته وحبيبة الأسرة مروة وحنين وأحفادي، أنس وعلي وخديجة ولارا. أَتمنَّى أن يغفر الله الذنوب، ويعفو عني، وأن آتيه بِنيَّةٍ صافية ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. أتمنَّى ألا تكون في القبر وحشة بل أُنس. أَتمنَّى أن أرى النور في الظلام، نور القلب في ظلام المكان. أتمنَّى أن أشم رائحة الورود بدلًا من رائحة الجسَد المُتحلِّل. أتمنَّى أن يكون اللقاء الأخير معك أنت دون رؤيةٍ بصرية، بل يكفي حضورك وحديثك. أتمنَّى أن تعفو عني في جميع من آذيتُهم عن غير قصد، وأعود إليك صافيًا مثل آدم ومحمد. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

هنداوي